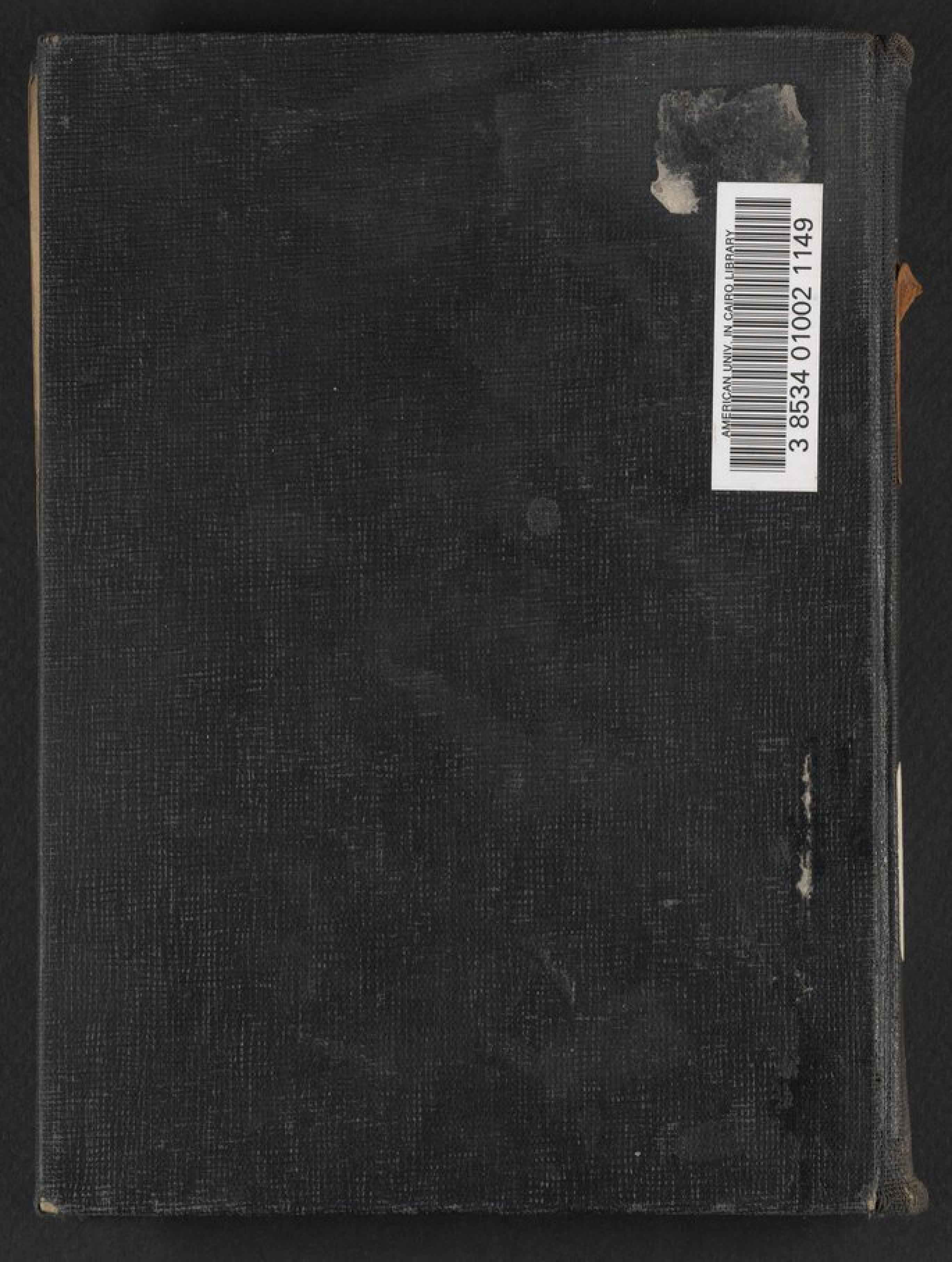

AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY
3 8534 01002 1149

الى المعهد الذي تخرجت منه

المؤلف

١٠/١٢/١٩٥٥

سِحْر لبنان

تأليف
ميشيل سليم يمين

دار المعارف بمصر

تصدير

بقلم الشاعر الأستاذ حسن كامل الصيرفي

لُبنانُ والخُلدُ اختراع الله لم ... يوسم بأحسن منهما ملكوتُه

رحم الله (شوقى) فقد صدق كل الصدق حين نطق بهذا البيت، ولا أعدو الحق إن قلت إنّ (شوقى) على كثرة ما وصف جمال الطبيعة فى شتى البلاد لم يبلغ الذروة التى بلغها فى شعره عن لبنان، ذلك أن لهذا القطر العربى الحبيب من السحر ما يوحى بأروع الشعر.

ولقد أحببت (لبنان) من خيال شعرائه، وأحببته بعد ذلك من خلق أبنائه. وإن الله إذ أفاض على هذا الجبل الأشمّ أروع صوره لتقف الأجيال خاشعة أمام قدرته فى روعة التصوير، أفاض على ألسن أبنائه أبدع فِكَرِهِ ليتفننوا أبدع التفنن فى التعبير.

لذلك سررتُ حين قرأ علىّ الصديق الأديب الأستاذ ميشيل سليم يمين كتابه «سحر لبنان»، وكنت أستمع إليه وهو يحدثنى عن رحلته ويصعد بى فوق القمم الشواهق ويهبط بى إلى السفوح الخضر مفتوناً بهذا الحديث العذب مأخوذاً بذلك الجمال الساحر.

والأستاذ «يمين» مؤلف هذا الكتاب محدّث لبق اكتسب معارف عامة جمة من ماضيه فى الصحافة؛ اذ التحق بعد تخرجه فى مدرسة التجارة العليا

بالقاهرة سنة ١٩٣٣ بجريدة (المقطم) فكان يحرر فيها صحيفة « مجلة فى صفحة » يضمنها موضوعات طريفة وشذرات لطيفة مترجمة عن الفرنسية والإنجليزية . كما اكتسب أيضاً مقدرة قصصية مما كان ينشر من قصص يؤلفه تارة ويترجمه تارة أخرى . ثم عهدت إليه اللجنة الوطنية للفرنسيين الأحرار فى الحرب الكبرى الأخيرة وضع كتاب عن حركة فرنسا الحرة باللغة العربية فقام بإخراج ذلك الكتاب الذى لقى من التقدير مما دعا إلى نفاد نسخه . فلما تهيأ لوضع كتابه «سحر لبنان» يسجل فيه رحلته إلى وطنه الأول بعد غيبة بلغت ربع قرن من الزمان كانت مطالعاته وآثاره القصصية لَبِنات طيبة نهض عليها أساس كتابه الجديد .

فهو يتنقل فى كل مكان بإلهام الشاعر والمصور ، وبإحساس المغترب العائد فى شوق وتلهف ، وبعين المتفحص المدقق يقارن بين الماضى والحاضر ويطلعنا على آثار التقدم والنشاط ، ولذلك كان لرحلته أثر جميل يحسه قارئ كتابه لأنه كتبه كما يكتب قصة ، ودوّن فيه من المعلومات الطريفة ما يهمّ كل شرقى . ولذلك كان توفيقاً من الناشر أن ينشر بين الناس كتاباً كهذا مستهلا به السنة السياحية التى تعتزم الحكومة اللبنانية إقامتها .

لقد أحببت لبنان كما قلت وما زلت أمنّى النفس بالحج إلى ربوع هذه الجنة الأرضية لأقرأ على صفحاتها تلك القصيدة العلوية الساحرة . وإلى أن يتحقق لى هذا الحلم أعاود النظر فى كتاب « سحر لبنان » فإن فيه من صوره ومفاتنه الكثير .

القاهرة ، فى مارس سنة ١٩٥٥

حسن كامل الصيرفى

الإهداء

هذه رحلة قمت بها إلى ربوع لبنان، مع نفر من الأصدقاء ، يسرني أن أهديها إلى المغتربين اللبنانيين ومحبّى لبنان ، بمناسبة السنة السياحية للمغتربين. وقبل أن أبدأ الكتابة عنها نزولاً على إلحاح رفاق السفر ، وإشفاقاً على ما أتحفنا به ذلك الصحافى الذي تكرم بمرافقتنا من معلومات شائقة من الضياع ، عقدت العزم على أن أنهج فى الكتابة فيها على نهج الأسلوب القصصى السهل الممتع ، كى يستسيغه القارئ فلا يمله ، ويعب من فيض ينبوعه فيرتوى ولا يمجه .

والأمل يحدونى أن أكون قد وفقت إلى إظهار بعض محاسن ذلك الجبل الأشم ، الذى هو بلا شك بمنزلة وسام يزين صدر الأرض . كما قال الشاعر الكبير مصطفى صادق الرافعى :

لبنان فنٌّ فى الطبيعة قائم ... دقت محاسنه على الأفهام
جبل إذا وصفوا الرواسى لم يكن ... أبداً لصدر الأرض غير وسام

* * *

وأخيراً لم أجد اسماً أجعله عنواناً لهذه الرحلة إلى بقاع لبنان الفاتنة ، أنسب من اسم « سحر لبنان » لأن فى السحر ألواناً من الجمال ، ترقى بالإنسان فترهف حسه ، وتهز قلبه ، وتحرك مشاعره .

مقدمة

فى نادى لبنان بالقاهرة

كنا ثلاثة أشخاص ، لم تكن بيننا سابقة معرفة ، ولكن جمعت بيننا حفلة شائقة ، من تلك الحفلات اللبنانية التى يقيمها نادي لبنان فى القاهرة ، فى كثير من المناسبات ، يدعو إليها أصدقاء لبنان . ولما استقر بنا المقام، أخذنا نطرق شتى الأحاديث، حتى تم التعارف بيننا . فالآنسة طالبة فى كلية الآداب ، والشاب دكتور فى العلوم الطبيعية وعلم طبقات الأرض ، وكلا الاثنين ، سمعا عن لبنان ، ولكنهما لم يرياه مرأى العين .

وبينما نحن نتجاذب أطراف الحديث ، لفت نظر الآنسة الطالبة ، صورة جميلة ، موضوعة فى اطار أنيق ، معلقة فى صدر البهو الذى كنا فيه ، فأخذت تحدق النظر فيها ، وتتأملها بعين الفنان ، فلاحظتُ عليها ذلك وقلت لها :

ـ أظن الآنسة قد أعجبت بشجرة الأرز ؟

فأجابت : أبهذا الجمال والروعة شجر الأرز ؟

ـ قلت ، أجل يا آنسة ، وهو أشد روعة إذا رأيته فى موطنه .

رأيتَ الفرصة مواتية ، لأتحدث عن لبنان ، وجمال الطبيعة فى لبنان ، ومناظره الفاتنة ، التى لا تملها العين ، فى انتظار بدء الحفلة ،

فكان جميع الذين حولى ، ينصتون إلى حديثى ، وقد هزتهم نشوة من السرور ، لذكر لبنان الحبيب ، فى بقعة لبنانية ، فى دار غربة عزيزة على لبنان .

— قالت الآنسة : وماذا يوجد فى لبنان غير الأرز ؟

— قلت هناك أشياء كثيرة جديرة بالمشاهدة . أذكر فى هذه المناسبة ، أن خالتى لأمى — رحمهما الله — كانت تجمعنى وإخوتى الصغار ، حول موقد النار ، فى ليالى الشتاء الباردة ، فى قريتنا الهادئة الوادعة ، التى تشرف على الوادى ، وتقص علينا على قصف الرعد ، ولمع البرق ، وهطول الأمطار ، قصصاً شائقة عن لبنان وأرزه الخالد ، وجبيل وآثارها العجيبة ، وبعلبك وقلعتها الجبارة ، وبيت الدين وقصرها المنيف الذى شيده الأمير بشير الشهابى الكبير ، وقاديشا ومغارتها الفاتنة ، وصوامع النساك المنقورة فى الجبال ، والصخور المطلة على الوديان العميقة ، وفاريا وجسرها الحجرى الطبيعى المعلق ، ومغارة جعيتا التى تمتد تحت الجبال ولا تعرف لها نهاية ، والغابات الكثيفة التى كانت تزين كل بقعة من بقاع لبنان ، وما كان يقترن بها من قصص البطولة والحوادث الجسام ، ونهر الكلب واسطورته الغريبة ، وأدونيس وخنزيره البرى [1] ، وسوى ذلك من القصص والأساطير الغريبة ، التى كانت تملك علينا مشاعرنا ، وتبعث فينا الشوق إلى المزيد منها ، وتنمو ذكرياتها فى نفوسنا بنمو أجسامنا إلى أن فرغت جعبة الخالة من الحكايات عن لبنان ، فراحت تحدثنا عن خاتم

(١) أساطير فينيقية تحت الطبع للمؤلف .

سيدنا سليمان العجيب ، وبساط الريح الغريب ، وكيف كان الجن يتنقل به من مكان إلى مكان ، بين طرفة عين وانتباهتها .

كانت مخيلتنا الساذجة تصور لنا إذ ذاك ، أن بساط الريح حلم من الأحلام ، لن تحققه الأيام ، غير أن ما كان بالأمس حلماً ، أصبح اليوم حقيقة واقعة .

ـ قالت الآنسة : أفى لبنان كل هذا الجمال ، ونحن منه على قيد ساعتين من الزمان ولا نراه ؟ فما رأيك ، لو شددنا الرحال فى هذا الصيف إلى ربوع لبنان الجميلة ، وأنت برفقتنا ؟

ـ قلت : الرأى ما ارتأيت يا آنسة ، ولكن هناك عقبات .

ـ قالت : نذللها .

ـ قلت : حسناً .

وفى اليوم التالى ، كنا نحن الثلاثة فى قلم الجوازات ، وبعد أسبوع اجتمعنا فى مطار القاهرة الدولى ، الذي يعدّ من أكبر مطارات العالم وافخمها ، بحسن تنسيقه ، وسعة ساحته ، وبديع نظامه ، ودقة العمل فيه وظُرف موظفيه وحسن استقبالهم للمسافرين .

القاهرة فى يناير سنة ١٩٥٥

ميشيل سليم يمين



لبنان : هذا الاسم الحبيب محفور فى قلب كل لبنانى مغترب

الفصل الأول

فى الطريق إلى لبنان

امتطيت لأول مرة فى حياتى متن الطائرة من مطار القاهرة الدولى بصحبة الآنسة سلوى الطالبة بكلية الآداب ، والدكتور خليل ، دكتور فى علم طبقات الأرض ، وولدى سعيد الذي لم تتجاوز سنه السابعة ، وفى داخلى حنين شديد إلى لبنان ، أرض الأحلام ، ومرتع الجمال والخيال .

كنت شديد التخوف من السفر جواً ، تمشياً مع القائل إن الأرض أثبت ظهراً من الفضاء ، غير أن الطائرة . ما كادت تعلن انعتاقها عن الأرض الرابضة عليها ، بأزيز محركاتها القوية ، وتصعد بنا فى أجواز الفضاء ، حتى شعرت بأن غمامة قد انكشفت عن صدرى ، وكابوساً كان جاثماً فوقى قد زال عنى ، فتحررت إلى حين من قيود هذه الأرض التى جئت إليها ، وأنا لا رأى لى فى هذا المجىء ولا خيار .

رحت أتخيلُ لبنان بعد غياب طال حتى جاوز ربع قرن من الزمان وأنا صامت منكمش فى مقعدى الوثير المريح ، وكان كل واحد من الركاب صامتاً مثلى ، يتأمل ويفكر ويتعبد فى برجه العاجى ، وهو معلق فى الفضاء ، بين الأرض والسماء .

وكان بين المسافرين طفلان مرحان غير ولدى ، لا يتجاوز سن

أكبرهما عشرة أعوام ، قد أبى الثلاثة إلا أن يعاونوا مضيفة الطائرة فى مهمتها التى تقوم على خدمة المسافرين ، وتوفير أسباب الراحة لهم .

وكانت هذه المضيفة – وهى آية فى الجمال واعتدال القد ورشاقة القوام ، شأنها شأن جميع المضيفات الأخريات اللواتى أسعدنى الحظ ووقع عليهن نظرى – صبوحة الوجه ، طلقة المحيا ، يفتر ثغرها عن ابتسامة حلوة ، طبعها الأمل الباسم عليه ، كانت توجهها من حين إلى حين ، إلى كل واحد من المسافرين ، حتى قطعنا المرحلة بين القاهرة ولبنان ، فى أقل من ساعتين ، ونحن فى الفضاء معلقون ، لم نشعر بما يشعر به المسافرون ، لولا أزيز محركات الطائرة .

مطار بيروت الدولى

أشرفت الساعة على الحادية عشرة عند ما بدت لنا جبال لبنان ، يتوج الثلج قممها العالية ، فإذا هى أشبه شىء بخط أبيض ، قد رصعته خضرة أشجار الغابات الكثيفة ، يتدرج فى الارتفاع ، حتى يخيل إلى الناظر أنه يتصل بزرقة السماء ، ثم ما لبثنا أن أطلت علينا مدينة بيروت الجميلة عروس لبنان ودرة الشرق ، وقد امتد لسانها فى البحر يعب الماء منه عباً ، دون أن يرتوى طيلة هذه الدهور التى مرت به .

أخذتنا لرؤية هذا المنظر الفاتن ، نشوة من السرور ملكت علينا مشاعرنا ، وهيمنت شدة جماله على جميع جوارحنا ، وما هى إلا دقائق

معدودات ، حتى أخذت الطائرة تهبط بنا فى مطار خلده الشهير ، الذى تبلغ مساحته بجميع ملحقاته ما يقرب من ثلاثة ملايين متر مربع ، ويبعد عن بيروت بمقدار عشرة كيلو مترات ، وقد استبدلت الحكومة اللبنانية باسمه اسم « مطار بيروت الدولى » لأهميته العالمية ، وللدور الهام الذى يلعبه فى محيط المواصلات الدولية .

وقد وصف هذا المطار كبار رجالات الطيران العالميين بقولهم عنه : إنه فخر مطارات الشرق العربى ، ومن أكبرها مساحة ، وأعظمها استعداداً ، يدير شؤونه نخبة من أصحاب العقول الجبارة ، الذين يضربون بسهم وافر فى شؤون الطيران ، وهذا يزيد فى مكانته العالمية ، ويشجع أكبر شركات الطيران على الإقبال عليه ، واتخاذه محطاً لمرور طائراتها فيه .

ولا شك فى أن هذا المطار ، هو عامل من العوامل الهامة التى تدعو إلى تقدم لبنان من جميع النواحى الاقتصادية والمالية والسياسية والاجتماعية ، لوجوده فى بقعة من الأرض فى الشرق ، ما فتئت منذ أقدم العصور حلقة اتصال تربطها بأوربا وبالشرقين الأوسط والأدنى ، فهو يستقبل فى ساحاته الرحبة طائرة كل خمس دقائق تقريباً .

ويحتوى هذا المطار على مدرجين كبيرين ، وساحة رحبة واسعة ، تقرب مساحتها من ثلاثة وثلاثين ألف متر مربع .

وقد شرعت السلطات اللبنانية فى بناء هذا المطار عقب الحرب الكبرى الثانية ، على سهل خصيب يمتد حتى شاطئ البحر ، كان يسقى فى الماضى بواسطة السواقى والنواعير ، وقد افتتحته الحكومة رسمياً سنة ١٩٥٠ .

حنين مغترب إلى لبنان

كان معنا فى الطائرة شيخ أحنت ظهره الأيام ، يبدو كأنه جاوز السبعين من عمره ، بيد أنه لم يبلغ الستين ، وقد لاحظت عليه طيلة الرحلة من القاهرة إلى لبنان ، أنه دامع العين ، قلق البال ، لا يستقر فى جلسته على حال ، وكانت كل حركة من حركاته ، تدل على أنه يتعجل الوقت ويستبطىء سرعة الطائرة ، وكانت تسابق الريح فى اندفاعها فى طبقات الجو العالية ، وما كادت تحط رحالها على أرض المطار ، حتى كان شيخنا أول من غادرها ، فوقف فى مكانه وهو مأخوذ بجماله ، وسعته ونظام العمل فيه ، وسماعه لأول مرة بعد قرابة ثلاثين عاماً لهجة أبناء لبنان ، فجثا على الأرض على مرأى من الناس ، وبعد أن قبل ترابها ثلاثاً ، انتصبَ على قدميه برشاقة ولسان حاله يقول :

« أطلق يا رب عبدك ، فإن عينىّ قد اكتحلتا بمرأى لبنان »

دفعنى فضولى إلى التقرب من هذا الشيخ والتودد إليه ، وسؤاله عن أمره وما عساه أن يكون ، فانتحى بى ناحية وقال :

– تركت لبنان يا ولدى وأنا فى مستهل شبابى ، وشددت رحالى إلى الولايات المتحدة الأمريكية مع نفر من شبان ضيعتنا منذ ثلاثين سنة تقريباً بعد أن رهنت كرم العنب ، وجلول التوت ، والبيت الذى بجوار العين ،

وهذا كل ما خلفه لى الآباء والأجداد ، لأجمع أجرة السفر .

ولما وطئت قدماى أرض الذهب ، انغمست فى التجارة ، فأصبتُ منها بمرور الأيام ثروة طائلة . وأنت تعلم يا ولدى أن اللبنانىّ مهما يشط به المزار ، أو تنأ به الدار يظل دائم الحنين إلى لبنان ، وإلى ينابيعه العذبة الباردة التى روته صغيراً ، ودروب قريته الوعرة التى دب وشب عليها ، وأشجار الغابة المحيطة بها . وكثيراً ما كان يتفيأ ظلها

فأنا يا ولدى لم أشذ عن هذا الميل ، فقد عاودنى الحنين إلى لبنان لرؤية من تبقّى لى من الأهل والخلان ، والتمتع بجو ضيعتى التى نشأت فيها ، وكنت قبل مغادرتى لها ، وأنا فى فجر الشباب ، وربيع الحياة ، أشتغل إسكافياً بعض الوقت من سحابة النهار ، كما كنت أعلم أطفال القرية مبادئ القراءة والكتابة تحت سنديانة الكنيسة الوارفة الظل ، وشجرة السرو التى تناطح السحاب فى علوها بعض الوقت الآخر .

وإنى اليوم قد اشتقت إلى لبنان فعدت إليه ، بعد أن مررت بالقاهرة حيث زرت بعض الأهل ، لأموت فيه وأكفن بثلجه الأبيض .

كان شيخنا وهو يحدثنى عن حنينه إلى لبنان ، ونحن فى عزلة عن الناس ، يترقرق دمع الفرح فى عينيه ، لأن الله مدّ فى أجله ، حتى عاد إلى وطنه قرير العين ، مطمئن البال .

ألحّ علىّ شيخنا الجليل فى النهاية أن أزوره فى قريته الواقعة فى جرود لبنان ، فوعدته بذلك ، ثم ودعته ودعوت له بطول العمر ، وطيب الإقامة فى ربوع ضيعته الفاتنة .

فى جمرك بيروت

دخلنا بعدئذ دائرة الجمرك ، فاستقبلنا موظفوه بوجوه باشّة ، وثغور مشرقة باسمة ، وكانت معاملتهم لجميع المسافرين على ما رأينا وسمعنا ، غاية ما تكون من الأدب والظرف واللطف ، تلك صفات متأصلة فى نفوس اللبنانيين ، اكتسبوها من جمال بلادهم ، وسحر مناظر جبالهم ، فلا إجراءات صحية معقدة ، ولا صعوبات جمركية مرهقة ، بل كان كل شىء يسير فى جمرك بيروت فى يسر وبساطة ، لاعتبار لبنان بلداً مفتوحة أبوابه لكل قادم .

مدخل بيروت من المطار

تركنا المطار وامتطينا سيارة أجرة دلفت بنا فى مدخل بيروت الجنوبى ، وهو طريق متسع عرضه أربعون متراً ، وينقسم إلى قسمين ، أحدهما للذهاب ، والآخر للإياب ، يتخللهما فى بعض المواضع مآوى منسقة تنسيقاً بديعاً ، غرست فى وسطها الأشجار والأزهار ، إلى أن وصلنا إلى حرش الصنوبر القديم الذى يرجع عهده إلى ما قبل القرن الثالث عشر ،

وقد جدد الأمير فخر الدين المعنى الشهير غرس بعض أشجاره منذ ثلاثمائة سنة تقريباً ، فاخترقته السيارة فى وسطه ، وكانت شمس الصباح تغمره بفيض من النور لا يقوى على التسلل من بين أغصان أشجاره الكثيفة ،

ولا تقتصر فائدة مدخل بيروت الجنوبى على وصلها بمطارها الحديث فحسب ، وإنما تتعداها إلى ما هو أبعد من ذلك ، إذ قد ساعد شق هذا الطريق على اتساع نطاق رقعة العمران ، وامتدادها إلى ضواحى بيروت المكتظة بالسكان ، كما شجع على إنشاء الحمامات البديعة على الشاطئ الجميل ، ليؤمها سكان بيروت فى أيام الحر الشديد ، للترويح عن النفس لأن هذه الحمامات والمتنزهات التى فى الضواحى ، هى المتنفس الوحيد لمدينة كبيروت ، تستوعب عدداً من السكان يفوق طاقتها ، إذا قيس هذا بمساحتها .

الفصل الثانى

بيروت الفينيقية

وصلنا إلى مدينة بيروت القديمة قدم الإنسان ، وهى قائمة على بقعة صخرية تتدرج فى الارتفاع حتى تتصل بجبال لبنان ، لها لسان يمتد إلى ما يقرب من تسعة كيلو مترات فى البحر الأبيض المتوسط منذ آلاف السنين فتغسل مياهه أطرافه .

ويرجح العلماء أن بيروت بنيت بعد الطوفان ، وأخذت اسمها من غابات شجر السرو التى كانت تحيط بها فى الماضى وتكسو رباها ، وترصع بلونها اللازوردى ذرى لبنان .

واسم هذه الأشجار باللغة الفينيقية « براتى » ، وكانت مكرسة للمعبودة عشتروت إلهة الجمال ، وما فتئ هذا الشجر الشامخ الارتفاع ، يشاهد حتى يومنا هذا فى بعض أنحاء مدينة بيروت أمام بعض المعابد والمدافن ، وهو دائم الاخضرار ، أغصانه ملتفة التفافاً مستديراً متلاصقاً ، ويعلو إلى أكثر من عشرين متراً ، ويرمز به إلى الخلود .

كانت بيروت فى عهد الفينيقيين مدينة زاهية زاهرة نامية ، وكان لها شأن عظيم فى العلوم والفنون والآداب والتجارة والصناعة بحكم موقعها الجغرافى . فكانت مراكبهم المصنوعة من خشب الأرز ، تجوب البحار

البعيدة ، وترتاد الأصقاع النائية ، فوصلوا بها إلى بلاد الهند المترامية الأطراف وأقاموا على شواطئها ، وتوغلوا فى داخلها حتى اقتربوا من جبال هملايا فتسلقوها ، ونزلوا منها إلى بلاد الصين الواسعة الرقعة فاختلطوا بأهلها ولما أغراهم حب الكسب ، تاجروا بخيراتها الوفيرة ، ونقلوا على سفنهم محصولاتها ، لأن الفينيقيين كانوا بحارة حاذقين ، وتجاراً ماهرين بارعين ، وأصحاب عقول جبارة جعلتهم بحق أسياد البحار فى العهد القديم .

بيروت فى عهد اليونان والرومان

واكتسبت بيروت فى عهد اليونان والرومان شهرة واسعة ، حتى إن جوليا ، ابنة يوليوس قيصر الإمبراطور الرومانى العظيم ، لما فتنها جمال بيروت ، أطلقت اسمها عليها « جوليا السعيدة » كما أقامت على ساحلها الحافل بآيات الجمال ، الحمامات الرائعة ، والملاعب الرومانية الفاتنة ، وكانت مدرسة الفقه التى أسسها الإمبراطور اسكندر سيفير سنة ٢٢٢ ميلادية تفوق بأهميتها مدارس الحقوق فى القسطنطينية والإسكندرية وأتينا ، كما كانت تضارع فى مقدرة أساتذتها وبراعتهم فى علم الفقه ، مدرسة روما العظيمة .

ولما تربع الإمبراطور يوستنيان على عرش القسطنطينية ، رغب فى تهذيب الشرائع والقوانين الرومانية وتنظيمها ، فاختار نخبة من فطاحل رجال القانون فى ذلك العهد ، ليقوموا بهذا العمل الجليل الخطير الشأن ، وكان بين هؤلاء العلماء الأعلام ، ثلاثة من كبار أساتذة مدرسة الفقه فى

بيروت وهم : اودكسيوس واناطوليوس ودوروثاوس ، فأنجزوا فى وقت وجيز تلك المهمة الشاقة التى أنيطت بهم ، وذلك العمل الجليل الهام الذى أسند إليهم ، وما فتئ هذا التهذيب فى القوانين ينسب حتى يومنا هذا إلى هذا الإمبراطور العظيم .

شاعر يتغنى بجمال بيروت

وقد تغنى الشاعر الرومانى نونوس دى باتوباس بجمال بيروت ، وأشاد بعظمة معهدها الزاهر الذى طبق ذكره الآفاق ، وأطنب فى وصف أحراجها الجميلة التى كانت تحيط بها إحاطة السوار بمعصم الحسناء ، وبساتينها اليانعة التى كانت مياه لبنان الهابطة من أعالى الجبال ترويها فقال :

هناك مدينة تشرف على البحر ، كالجزيرة الجميلة المتوجة بالخضرة ، اسمها بيرويه

هى منبع الحياة ، هى موطن الحب

تنتشر أمام لبنان ، تحت مرتفعاته ذات الأحراج ، فتقيها الاحتراق

هناك تدرك المرء نسائم معطرة محيية ، بين أشجار السرو ، الذى يئن فى مهب الرياح ، ويرتجف من هبوب العواصف

بيرويه هى نقطة ابتداء الحياة

هى الأم مغذية المدائن ، هى موضع اعتزاز الأمراء والنبلاء

هى بلد الحواضر ، أخت العصور ، قديمة قدم الكون



جانب من بيروت عاصمة لبنان

هى مهد آلهة العدل ، موطن الفقه ، مدينة الحكمة ، مرضعة الحياة
بيرويه هى مقام هرمس ، مرتع اللذات ، مسكن أفروديت
كرومها تكسو رباها بثوب سندسى ، وتعصر من ثمارها خمرة الإله
« باخوس »
بيرويه هى مركز السرو ، هى نجم لبنان .

إن هذا الوصف البديع ، الذى نسج بردته الشاعر الرومانى فى جمال بيروت ، وما خلع على البقاع الساحرة الفاتنة التى تحيط بها من صور الجمال المتعددة الأشكال والألوان ، يعطى فكرة رائعة عن بيروت

الخالدة ، التى كانت بجانب هذه العظمة الثقافية ، فخاً تتصيدفيه النفوس البارة لكثرة ما أقيم فيها من هياكل للأصنام ، نحتتها يد الإنسان ، فكانت ترتكب فيها جميع الموبقات ، لأن القائمين على خدمتها كانوا يقدسون النزوات البهيمية ، ويحضون على السير وراء الشهوات والملاذ البشرية ، ويؤلهون جميع المنكرات ، ويوحون إلى عبادة المحرمات .

معبد بعل فى بيت مرى

وقد كان لمعبد بعل بجوار بيت مرى المصيف الجميل ، الذى يبعد عن بيروت بمقدار ١٧ كيلو متراً ، حيث يقوم على أنقاضه اليوم دير القلعة لرهبان الموارنة ، شهرة واسعة ، فكان أهالى بيروت وما جاورها ، يحجون إليه كل عام فى فصل الصيف ، فيتخذون من موسمه وأعياده سبيلا للهوهم ، ومجالاً لقضاء شهواتهم ، يرقصون ويطربون ، وينشدون الأناشيد الخليعة فى أحضان الطبيعة ، فوق الربى والقنن ، وفى وسط الغابات الكثيفة ذات السحر والبهجة والجمال

خراب بيروت

غير أن العناية الإلهية شاءت أن تنتقم من بيروت ومن فجور الساكنين فيها ، وتفعل بها كما فعلت بصادوم وعامورة من قبل ، فأصابتها بزلزالين

شديدين دكا مبانيها دكاً ، وقوّضا أركان هياكل آلهتها الكاذبة ، وقد كان الوثنيون يجاهرون فيها بعبادة عشتروت إلهة الجمال ، وباخوس إله الخمر ، وغيرهما ، فباتت قاعاً صفصفاً ينعق البوم فوق أطلالها الدارسة ، وقد قدر المؤرخون عدد الذين ذاقوا كأس المنون بسبب هذين الزلزالين بعشرات الألوف ، كان بينهم نخبة من زهرة الشبان الذين وفدوا إليها من جميع الأقطار المجاورة ، لاغتراف العلم من منهل معهدها ، وقد كان تاجاً على مفرقها ، تباهى به أعظم معاهد العلم فى العهد القديم .

وما كادت بيروت تستيقظ من رقدتها ، وتفيق من سباتها العميق ، وتعود إلى صوابها من هول هاتين النكبتين المريعتين ، وتحاول أن تقف على قدميها الهزيلتين ، حتى رماها إله النار ، ورب الخراب والدمار بحريق مروع ، أحالها إلى كومة من الرماد ، كان فيه ختامها المؤلم .

بقيت بيروت تئن وتتوجع من هاتين الضربتين ، حتى عهد الصليبيين الذين وفدوا إليها ، وضربوا بجيوشهم الجرارة نطاقهم حولها ما يقرب من ثلاثة أشهر ، إلى أن استولوا عليها ، وضموها إلى مملكة أورشليم التى أسسوها فى فلسطين ، فاستعادت بعض مكانتها ، وعلا شأنها ، ولمع فى أفق المجد نجمها ، ولا سيما فى عهد الأمير فخر الدين المعنى الكبير ، الذى نهج فى سياسته على منوال الصليبيين ، غير أنه بعد انهيار مملكة هؤلاء الأخيرين ، وزوال نفوذهم من الشرق ومن لبنان ، وأفول نجم الأمير فخر الدين ، وقعت بيروت وما يجاورها فريسة للحروب الأهلية الدامية ، والمنازعات الشخصية ، نتيجة الدسائس التى كان يحيكها الولاة الذين تعاقبوا على

حكم لبنان ، من عرب وترك ومماليك ، ولم ينقذها من ورطتها ، ويعيد مقاليد الحكم فيها إلى أيدى أبنائها ، سوى الحرب الكبرى الأولى ١٩١٤ — ١٩١٨ على أثر انهيار الإمبراطورية العثمانية وأفول شمس مجدها ، وبغروب شمس تلك الإمبراطورية الهزيلة ، أشرقت شمس لبنان الساطعة وعادت بيروت مرة أخرى عاصمة لجمهوريتها الفتية .

تلك هى نبذة يسيرة عن تاريخ هذه المدينة الشهيرة ، التى لعبت دوراً هاماً فى تاريخ البشرية .

الفصل الثالث

بيروت اليوم

مكثنا فى بيروت ثلاثة أيام ، تجولنا فى شتى أنحائها ، فزرنا معالمها، وكثيراً من منشآتها فرأينا أن كل شىء فيها قد تغير وتبدل .

عرفت بيروت من ربع قرن من الزمان ضيقة الأزقة ، قذرة الشوارع ، مبانيها قديمة متداعية لا انسجام فيها ولا نظام ، وكانت الفوضى فى كل شىء ضاربة أطنابها فيها ، غير أن يد التجميل قد امتدت اليوم إلى كثير من أحيائها ، بفضل شبكة الطرق الحديثة التى شقت فيها حتى شملتها كلها ، وتعدتها إلى سواها من المدن الكبرى وقرى الاصطياف الهامة ، فأصبحت حركة المواصلات فيها سهلة هينة بفضل وجود السيارات الفخمة المريحة ، إلى جانب الترام الذى يمد له طريقاً إلى جميع أحيائها ، كما أقيمت فيها العمارات الشاهقة على الطراز الحديث ، وأكثرها مؤلف من ستة أو سبعة أدوار ، تصلها بعضها ببعض مصاعد كهربائية .

أما الحدائق العامة التى تعتبر المتنفس الوحيد لمدينة كبيروت مكتظة بالسكان ، فإنها تكاد تكون فى حكم العدم ، ولذلك يكتفى الفقراء منهم بالذهاب إلى شاطئ البحر حيث الحمامات البحرية منتشرة ومجهزة بجميع

وسائل الراحة ، أو بالتنزه فى شارع الكورنيش الذى يمتد على شاطىء البحر وقد تم إنشاؤه أخيراً ، وأقيمت فيه المقاهى والمطاعم ودور اللهو ، أو بالتنزه فى طريق المطار حيث غابة الصنوبر الشهيرة . أما الأغنياء، فينتقلون إلى ضواحى مدينتهم مثل عالية وبيت مرى وبرمانا وغيرها من المصايف القريبة لاستنشاق الهواء النقى ، والترويح عن النفس .

وينظم حركة المرور فى شوارع بيروت ، شرطة هم مثال رائع فى نظافة الهندام ، وأدب اللسان ، لا يتردد الواحد منهم عن إجابة السائل الغريب إلى كل ما يريد دون تأفف أو امتعاض

ومع أن بيروت اليوم هى مدينة تجارية هامة ، تحمل البواخر والسفن الكبيرة إلى مرفئها الحديث آلاف الأطنان من البضائع المختلفة ، فهى حاضرة الجمهورية اللبنانية الفتية ، ومقر رئيس جمهوريتها ، ومركز حكومتها ، ويقيم فيها أعضاء رجال السلك السياسى والقنصلى فى دور فخمة ، تحيط بها الحدائق الغناء .

دار الآثار اللبنانية

كانت الآثار اللبنانية إلى ثلاثين سنة خلت نهباً لمن يجدها ، ولما أنشئت دار الآثار سنة ١٩٢٠ أولتها الحكومة عنايتها ، فنقلت إليها ما عثر عليه المنقبون من آثار فى المناطق ذات الشهرة الأثرية .

قصدنا إلى هذه الدار ، وقد ارتسمت فى مخيلتنا صور شتى عن عظمة

الفينيقيين ، وما تركوه من آثار خالدة ، هى ذخيرة مجد لقوم حملوا مشعل الحضارة خلال العصور الغابرة ، ونقلوها إلى بلدان العالم القديم ، بعد أن كانت سراً مكتوماً فى طيات العصور ، وأول ما استرعى نظرنا فى هذه الدار من الخارج ، واجهتها الفخمة بأعمدتها الجبارة ، التى يرجع تاريخها إلى العهد الرومانى ، ففكرتنا رؤيتها بعظمة الهياكل الأثرية التى شاهدناها فى مصر .

وتضم هذه الدار التى تقع عند ملتقى شارع فؤاد الأول وطريق الشام بين أروقتها ، جميع الآثار التى اكتشفت فى جبيل ، وبعلبك ، وصور وصيدا والبترون ، وسواها من المدن ذات الأهمية التاريخية والشهرة الأثرية ، وقد رتبت فيها ترتيباً حسناً ، ونسقت تنسيقاً بديعاً ، يدل فى الحقيقة على ذوق القائمين بأمر هذا المتحف الناشىء ، وسعة أفق درايتهم بالشؤون الأثرية على قرب عهدهم به .

وبينما نحن نتجول فى أروقة الطابق الأسفل من المتحف ، شاهدنا ناووس الملك حيرام ، الذى اكتشف قبره سنة ١٩٢٤ العالم الأثرى الفرنسى بيير مونتيه ، وقد نقشت عليه أقدم كتابة أبجدية عرفها العالم ، ألا وهى الأبجدية الفينيقية ، التى يرجع تاريخها إلى القرن الثالث عشر قبل الميلاد ، فمن هذه الأبجدية قد اشتقت جميع أبجديات العالم الحديثة ، وكان لفينيقيا قصب السبق فى نشر الحروف الأبجدية فى العالم منذ فجر تاريخ الثقافة البشرية .

قال الكاتب الفرنسى جورج بيرو فى هذا الصدد ما يأتى :

« إذا حق لشخص أن تقام له التماثيل من البرنز والمرمر ، فليس لجوتنبرج الألمانى الذى ساعد على نشر العلوم باكتشافه الطباعة ، وإنما لذلك الفينيقى الأول ، الذى جمع الكتابة فى حروف قلائل تعبر عن نبرات الصوت » .

انتقلنا بعدئذ إلى مكان آخر من المتحف ، فرأينا فيه تصميما مصغراً لقلعة بعلبك من صنع الفنان الكبير المرحوم جان الدبس قائمة فيه بهيا كلها الجبارة ، تعطى كل من يشاهدها فكرة واضحة عما كانت عليه تلك الهياكل فى العهد القديم من روعة فى الفن ، لمسناها عند ما ذهبنا إلى بعلبك ، ورأينا على الطبيعة أطلال تلك القلعة التاريخية الخالدة التى ألبسها الرومان أجمل رداء من عبقرية فنهم الرفيع الذى يتطاول على الدهور وأبلى الأيام وما بلى فنهم الخالد.

وقد شاهدنا فى صالة المحادثات فى رواق هيجيا تماثيل بين صغيرة وكبيرة هي آية فى روعة الفن .

حقاً إن تلك المدة البسيطة التى قضيناها فى متحف بيروت الحديث العهد ، وسط آثار الفينيقيين العظام ، أعطتنا فكرة عن عظمة أولئك القوم ، وما كانوا عليه من علم وأدب وفن .

وما فتىء معول الحفار ، يخرج من الظلمة إلى النور كنوزهم الدفينة ، وآثارهم الثمينة ، وكلها تنطق بعظمتهم ، وتدل دلالة واضحة على مدنيتهم التى اندثرت وعفا عليها الزمان .

الجامعة الأمريكية ومتحفها

ويقوم بجانب المتحف الوطنى ، متحف آخر فى الجامعة الأمريكية التى تقع فى شارع بلس فى أول رأس بيروت ، ويرجع تاريخ إنشاء هذا المتحف إلى سنة ١٨٦٨ ، أى بعد أربع سنوات على تأسيس الجامعة

الأمريكية ذاتها ، فذهبنا لزيارته ، فراعنا ما رأينا فيه من الآثار القديمة من فينيقية ويونانية ورومانية ، وقد جمعت من شتى أنحاء لبنان ، بفضل نشاط أساتذة هذه الجامعة من أمريكيين وشرقيين واجتهادهم ، قبل أن يكون للبنان متحف خاص به يضم بين جدرانه شتات آثاره التى أبقت عليها الأيام .

وللجامعة الأمريكية فضل ثقافى كبير على الشرق العربى ، فيتقاطر إليها طلاب العلم من جميع الأقطار الشرقية للدراسة فيها ، بعد ما اتسعت مبانيها ، وتتألف اليوم من معاهد للطب والصيدلة والتمريض والهندسة والتجارة والموسيقى ، هذا إلى جانب كليتى الآداب والعلوم .

وتطل جميع هذه المعاهد على البحر تحيط بها حديقة واسعة منسقة ، تزينها الأشجار الباسقة والرياحين النضرة .

دار الكتب اللبنانية

عدنا قبيل الظهر من زيارتنا للجامعة الأمريكية ، إلى دار الكتب اللبنانية التابعة لوزارة التربية الوطنية ، وتقع فى مبنى مجلس النواب الفخم ، الكائن فى ساحة النجمة . انشئت هذه الدار فى سنة ١٩٢١ بفضل المؤرخ اللبنانى الكبير ، والكاتب الشهير فيليب دى طرازى ، وقد أخبرنا أحد أمنائها ، بأنها تحتوى اليوم على ما يقرب من خمسين ألف مجلد فى مختلف العلوم والفنون والآداب ، هذا عدا المخطوطات النفيسة ، والموسوعات القيمة والمستندات التاريخية ، والوثائق الهامة ، التى تمت بصلة وثيقة إلى شؤون

الشرق العربى ، حتى أصبحت هذه الدار اليوم على حداثة عهدها ، المرجع العلمى الكبير ، لكثير من الكتاب والأدباء والعلماء والمفكرين الذين يفدون إليها ، ويترددون عليها للبحث والاستقصاء ، ولاستخراج كنوزها القلمية الدفينة ، والاغتراف من منهل محتوياتها العذب ، وقد زينت قاعاتها الفسيحة بصور كثيرة لأعلام الرجال .

وقد نسقت الكتب فى هذه الدار تنسيقاً فنياً ، يتمشى مع نظام المكتبات الحديثة ، بحيث يسهل معه العثور على أى كتاب فى أى علم أو فن من الفنون فى دقائق معدودات .

وقد أعجبنا من قاعة المحاضرات الفسيحة ، التى يحاضر على منبرها كبار الكتاب والأدباء ورجال العلم ، من أجانب ووطنيين ، فى شتى المناسبات .

المكتبة الشرقية فى كلية الآباء اليسوعيين

لم نشأ أن نغادر بيروت ونصعد إلى الجبل ، قبل أن نستكمل مشاهداتنا فيها ، فتوجهنا إلى المكتبة الشرقية فى كلية القديس يوسف للآباء اليسوعيين الأفاضل ، المكملة لدار الكتب اللبنانية ، وقد نقلت من غزير مع انتقال مدرسة الآباء اليسوعيين إلى بيروت فى سنة ١٨٧٣ .

ولما عرف الأب المشرف على هذه المكتبة الثمينة غايتنا من الزيارة ، تكرم بمرافقتنا ، وأخذ يشرح لنا كل كبيرة وصغيرة عنها ، ولم يفته فى

معرض الحديث ، أن يشيد بفضل الذين ساهموا فى تأسيسها ، وقد خص بالذكر منهم العلامة المرحوم الأب لويس شيخو اليسوعى ، والمستشرق الشهير المرحوم الأب هنرى لامنس ، فإليهما يرجع الفضل فى إنماء هذه المكتبة التى نشأت صغيرة ، وأصبحت اليوم من أكبر وأحسن المكتبات الخاصة فى العالم ، من حيث جمال رونقها ، وبديع هندستها ، وتنسيق الكتب المحفوظة فيها وتبلغ على ما قاله لنا الأب الفاضل ، نحو مائة ألف مجلد فى مختلف العلوم والفنون والآداب .

وقد شاهدنا فيها أيضاً المخطوطات الثمينة النادرة ، محفوظة داخل خزائن محكمة القفل ، بعيدة عن متناول اليد خشية الإساءة إليها أو العبث بمحتوياتها

كلية القديس يوسف

تضم هذه الكلية اليوم بين جدرانها ، معاهد للطب والحقوق والهندسة والفلسفة واللاهوت وقد ساهمت فى إخراج عدد كبير من رجالات لبنان الذين يشار إليهم بالبنان .

ويقوم بجانب الجامعتين ، الأمريكية واليسوعية ، معاهد أخرى هامة مثل معهد الحكمة للموازنة ، وكلية المقاصد الإسلامية ، والكلية العاملية ، ومدارس الفرير ، وغيرها من المعاهد الأخرى المقصورة على تعليم اللغات التى تمت بصلة وثيقة للثقافة العامة .

المعهد اللبنانى للفنون الجميلة

أنشىء هذا المعهد سنة ١٩٤٢ ، وهو أول مؤسسة وطنية فى لبنان تعنى بشؤون التعليم العالى للفنون الجميلة . وتضم هذه المؤسسة إليها اليوم ، معاهد الموسيقى والنحت والتصوير وهندسة النجارة وغيرها ، وقد أخبرنا أحد الأساتذة ، بأن هذا المعهد كان فى أول عهده موزعاً على بعض المدارس الوطنية لا تربط بعضها ببعض صلة ، ثم رأى المشرفون على شؤون التربية والتعليم ، ضم هذه المعاهد فى معهد واحد ، أطلقوا عليه « الأكاديمية اللبنانية للفنون الجميلة » .

المدرسة الفندقية

سمعنا فى أثناء وجودنا فى بيروت عن المدرسة الفندقية ، التى أنشأتها وزارة التربية الوطنية مساهمة منها فى حقل الثقافة الفنية ، فتوجهنا لزيارتها ونحن نفكر فى أمرها ، ولما وصلنا إليها قابلنا أحد أساتذتها مقابلة حسنة ، ورافقنا إلى مكتب سكرتيرة المدرسة وهى آنسة صبوحة الوجه ، طلقة المحيا ، حلوة الحديث ، بحيث ما كادت تلمس الغرض من زيارتنا ، حتى أشرق وجهها سروراً ، واسترسلت فى الحديث معنا عن هذا المعهد فقالت :

— إن المدرسة الفندقية ، التى أنشأتها وزارة التربية الوطنية فى بيروت ،

هى الأولى من نوعها فى الشرق العربى ، وربما كانت المدرسة الرابعة فى العالم من هذا النوع .

وتشتمل برامج المدرسة على التعليم النظرى والعملى معاً ، وهى لا تقتصر على تعليم اللغات وأصول الطهى ، فحسب ، وإنما تتعداها إلى كل ما له صلة وثيقة بشؤون الفنادق وإدارتها من الناحيتين العملية والنظرية .

ثم إن الإقبال على هذه المدرسة الحديثة العهد فى ازدياد مستمر ، لأن بلداً كلبنان ، يعتمد فى موارده على السياحة والاصطياف ، فى مسيس الحاجة إلى مثل هذه المدرسة .

ويقضى طلبة هذه المدرسة فى فصل الصيف مدة التمرين فى فنادق الجبل الكبرى بمرتبات شهرية ، وجميع أساتذتها هم من اللبنانيين الذين درسوا هذا الضرب من التعليم فى أوربا . ويمنح المعهد الطلبة الناجحين دبلوماً باسم الحكومة اللبنانية له مكانته ، كباقى الدبلومات الأخرى ، كما أنه يعطى حامله حق الأولوية فى الالتحاق بالأعمال الفندقية .

سكتت الآنسة برهة وأردفت ما تقدم :

إن المفوضيات والسفارات والفنادق الكبرى فى الدول العربية ، تقبل على توظيف متخرجى هذه المدرسة بمرتبات مغرية ، ربما يحسدهم عليها حملة الدبلومات العالية الأخرى .

وبعد أن زودتنا الآنسة سكرتيرة المعهد بهذه المعلومات القيمة ، طفنا فى أرجائه ، فراعنا ما لمسناه من نظافة فى آنيته وأثاثه ، ومن النظام والترتيب فى كل شىء فيه .

وعلى الرغم من أن التعليم فى لبنان ليس إجبارياً ، فإن نسبة المتعلمين فيه تبلغ اليوم ٩٠ فى المائة تقريباً ، وما فتئت بيروت بما فيها من معاهد علمية وافرة ، تواصل رسالتها التقليدية فى حقل الثقافة العامة ، كما أنها تحتل مركز القيادة الفكرية فى هذه البقعة من الأرض ، بفضل إقبال اللبنانيين على هضم المؤلفات التى يخرجها الشرق العربى .

أسواق بيروت

رأينا فى النهاية أن نجوس خلال أسواق بيروت ، القديمة منها والحديثة قبل القيام بأول رحلاتنا إلى الجبل ، لنرى مدى ما طرأ على تلك الأسواق من تغيير ، وما اعتراها من تبديل خلال ربع قرن من الزمان ، فسرنا على أقدامنا مخترقين ساحة البرج التى هى قلب بيروت النابض ، وملتقى جميع الشوارع التى يتدفق منها إليها سيل السيارات الذى لا ينقطع ، ويطلقون عليها اليوم « ساحة الشهداء » لأن جمال باشا القائد التركى ، قد علق نخبة من رجال العرب الأحرار على أعواد المشانق ، التى رفعها لهم فيها فى الحرب الكبرى الأولى ١٩١٤ — ١٩١٨ .

ولما بلغنا هذه الأسواق ، وجدنا أن بعضها ما فتىء على حاله ، كما عرفناه منذ ربع قرن من الزمان ، ممراته ضيقة ، وعطفاته قذرة مظلمة ، وأزقته متعرجة ملتوية متداخلة بعضهابعض ، والحوانيت القائمة على الجانبين مثل خلايا النحل متلاصقة ، وعامرة بالبضائع المتنوعة على صغر مساحتها

والناس فى هذه الأسواق من الجنسين ، يروحون ويجيئون بدون نظام ، يلاطم بعضه بعضاً كأمواج البحر من شدة الزحام .

أما سوق النورية ، القائمة بجوار سوق سرسق ، التى كدست فوق أرصفتها الضيقة أنواع الأقمشة ، فرأينا فيها عجباً ، فقد احتل الباعة كل ركن من أركانها ، حتى إن بعضهم لم يكفه الزحام ، فراح يعرض بضاعته فى الطريق العام ، بدون ترتيب أو ذوق أو نظام ، وكانت أصوات الباعة المنبعثة من كل مكان تصك الأذان ، حتى كان يخيل إلينا أننا أمام برج بابل من تعدد اللهجات ، وتنوع المناداة ، بأساليب غريبة ، وطرق عجيبة ، للفت نظر رواد هذه الأسواق وإغرائهم على الشراء.

وقد صادفنا صعوبة بالغة ، فى شق طريقنا وسط الكتل البشرية المتراصة فى هذا السوق ، فلم نسلم من الصدام بمركبة من تلك المركبات التى تجر بالأيدى ، ولم نأمن من لطمة من لطمات سلال الحمالين ، ولا من التصادم بجسم من أجسام الجنس الخشن أو الناعم ، وأخيراً سلمنا بأن العود أحمد إلى الفندق النازلين فيه ، وكان الوقت غروباً لنستريح مما قد لاقيناه من تعب ومشقة ، فى التنقل فى تلك الأسواق الأثرية ، التى تتركز فيها ثروة مدينة بيروت التجارية.

زيادة دور الصحف والمجلات

وفى اليوم التالى بعد أن قمنا بزيارة بعض دور الصحف والمجلات ، ومنها مجلة « الأديب » لصاحبها رفيق التلمذة الأستاذ البير أديب ، الذى

رحب بنا وأكرمنا ، توجهنا إلى إدارة مجلة « الدبور » لزيارة صاحبها رفيق الصبا الأستاذ الصديق ميشيل توفيق مكرزل . وأخيه الأستاذ فؤاد الخفيف الروح ، فقابلانا بما هو معهود عنهما من اللطف والظرف ، ورحبا بنا أجمل ترحيب ، وقد تشرفنا عندهما بمعرفة شخصية طريفة ، لطيفة المعشر ، حاضرة النكتة ، وهى ذلك الأديب الكريم ، الذى تفضل مشكوراً ، فصحبنا فى رحلتنا ، وأمدنا بمعلومات شائقة ، وقد أبى كرمه ألا يذكر اسمه فنزولا على إرادته ، أجدنى مكرهاً على ألا أذكر اسمه صريحاً ، وإن لم أستطع أن أخفى فضله ، أو أنسى ذكريات جميلة تركها فى نفسى ونفس زملائى ، وأن أعنى به « بالعم أبى طنوس » وهو الاسم الذى أطلقته مجلة « الدبور » اللبنانية على شخصية خيالية ، تتمثل فيها روح اللبنانى ، كما تتمثل روح المصرى فى الشخصية الخيالية التى أطلق عليها اسم « المصرى أفندى » وكما يطلق على الإنجليزى « جون بول » والأمريكى « العم سام » .

وقد آلينا على أنفسنا قبل القيام برحلاتنا إلى ربوع لبنان الجميلة ، أن نطلق للنفس سجيتها ، ونتحرر من قيود الرسميات البالية التى تفقدها بهجتها ، وأن نعيش معيشة سهلة هينة ، لا كلفة فيها ، وأن نصف بإسهاب كل مشهد جميل تقع عليه العين ، ونستنطق كل أثر قديم عن ماضيه ، وما اقترن به من أحداث ، ونكتب عن كل ما يسترقه السمع .

الفصل الرابع

فى الطريق إلى لبنان الشمالى

ركبنا سيارة كنا قد استأجرناها طول مدة الرحلة ، بعد أن ودعنا صديقنا الأستاذ مكرزل ، فاحتلت الآنسة سلوى مع ولدى سعيد المقعد الأمامى بجوار السائق ، أما نحن الثلاثة فجلسنا فى المقعد الخلفى يتوسطنا العم أبو طنوس ، فسارت بنا السيارة ونحن صامتون نستمع إلى الأغانى اللبنانية من مذياعها ، وهى تقطع شوارع بيروت الضيقة بالقرب من الشاطىء ، فى طريقها إلى الجبل .

وفى أثناء الطريق ، قطعت علينا سلوى صمتنا ، فالتفتت إلى السائق السادر فى سكوته ، المنعزل فى أفق تفكيره عن أمرنا ومن نكون ، وسألته والابتسامة على شفتيها :

ــ ما الاسم الكريم ؟

أجاب السائق مداعباً : إن اسمى على وجهك يا آنسة .

ففهمنا جميعاً ما يعنى ، وقلنا : مداعبة لطيفة منك يا حسن .

قال السائق : لو عرفت اسمك يا آنسة ، لقلت إنك سلوتنا فى رحلتنا

فأجابت : إن اسمى لفظته شفتاك ، من حيث لا تدرى .

قال السائق : اسم على مسمى يا آنسة سلوى .

فضحكنا جميعاً من هذه المداعبة اللطيفة التى قطعت علينا صمتنا ، وأزاحت موجة السأم التى كادت تطغى على نفوسنا ، فكانت فاتحة التعارف بيننا وبين السائق حسن ، عملا بالقول المأثور : « اسأل عن الرفيق قبل الطريق » .

كانت السيارة إذ ذاك قد بلغت نهر بيروت ، الذى أطلق عليه القدماء نهر « ماغوراس » وأقام الأمير فخر الدين المعني الثانى فوقه جسره الحجرى وطوله ٩٧ متراً ، وعرضه أربعون متراً ، وهو مكون من سبع فتحات لمرور المياه منها فى وقت الشتاء .

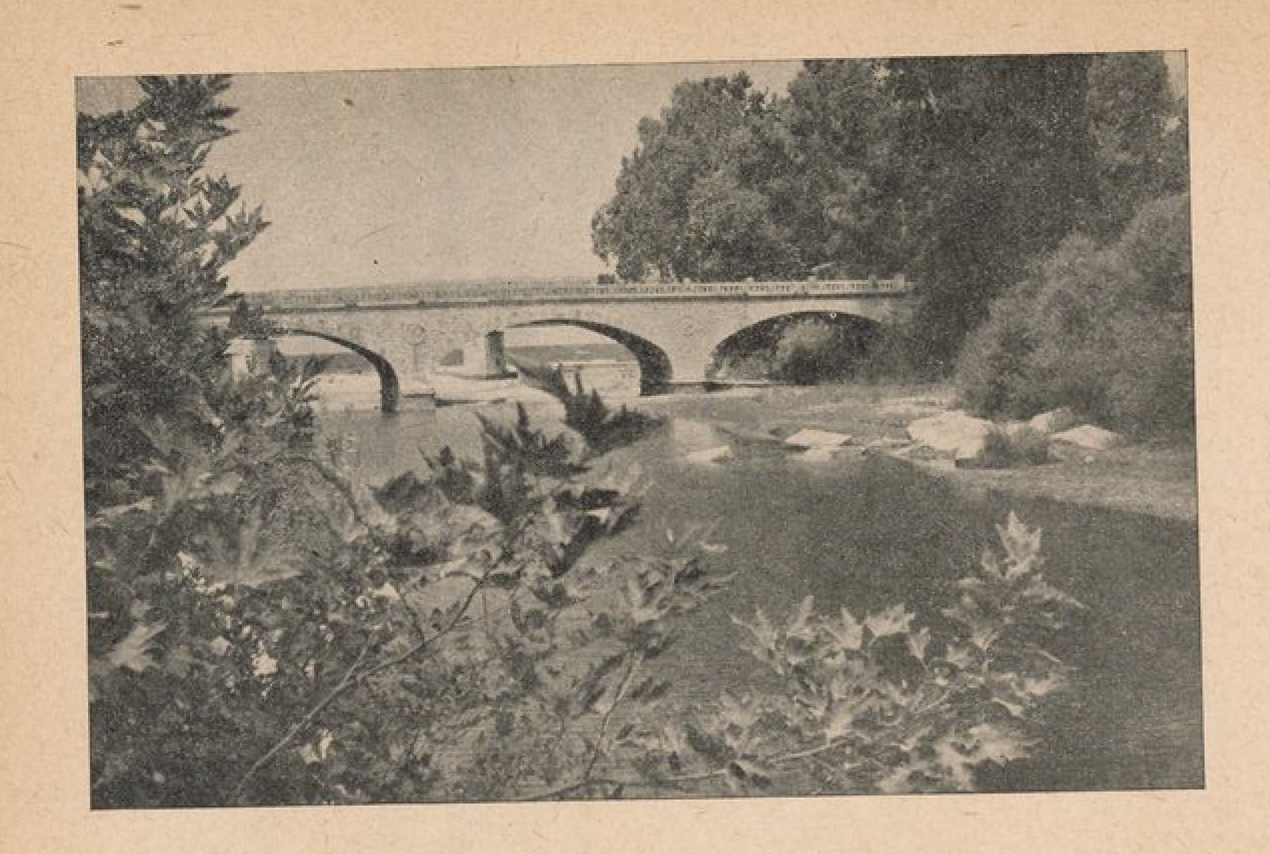
ويتصل هذا الجسر اليوم ، الذى تناولته يد الإصلاح مرات عدة بطريق عرضها أربعون متراً ، وطولها نحو ستة كيلو مترات ، أقيمت فى وسطها المآوى فقسمتها إلى قسمين ، واحد للذهاب ، والآخر للإياب وفى وسط هذه المآوى أشجار باسقات ، قد أشفق عليها فأس الحطاب ، فتركها فى مكانها ولم يعدمها عند ما شقت هذه الطريق من زمن ليس ببعيد ، تمشياً مع سياسة لبنان العمرانية ، وهى « ازرع لا تقطع » فبقيت تزين الشارع بأغصانها المتدليات ، وفروعها المتعانقات ، تبسطها فوق المارة فتقيهم وهج الشمس وكان الرومان فى الماضى ، قد أجروا قسما من مياه هذا النهر الذى يتلقى مياهه من أعالى الجبال إلى بيروت ، فى قناة أقيمت فوق قناطر تعرف بقناطر زبيدة ، ولكنها تهدمت بمرور الأيام وقد شاهدنا آثارها بالقرب من بيروت .

السهول الساحلية

وبعد أن تركنا جسر بيروت ، واجتازت السيارة الشارع المستقيم الذى يتصل به مررنا فى طريق وسط السهل الساحلى الخصيب ، تحف به البساتين اليانعة ، والحدائق الغناء ، حتى وصلنا إلى انطلياس ، وهى ملتقى عدة طرق هامة ، بعضها يذهب إلى طرابلس ومصايف كسروان وشمال لبنان ، والبعض الآخر إلى قرى المتن والقاطع وسهل البقاع .

وقفت بنا السيارة فى ساحتها الفسيحة أمام دير النبى الياس ، فتزودت بحاجتها من البنزين والماء ، كما تزودنا نحن بحاجتنا من الطعام والفاكهة الشهية ، ثم زايلناها إلى قرية ضُبَيّة ، وهى متنزه بيروت وتقع على شاطىء البحر ، يقصدها عشاق الهدوء فى الليالى القمرية الساحرة ، فيقضون فيها وقتاً ممتعاً بين أحضان الطبيعة ، ينصتون إلى حفيف أشجار بساتينها الذى ينقل همسات قلوبهم ، وإلى صوت هدير الأمواج ، الذى يخفى عن الناس بين طياته سر أحاديثهم .

زرنا فى ضُبَيّة مقر شركة المياه ، وتقع على رابية قد غرست فى جميع أرجائها الأشجار ، فرأينا الآلات البخارية وهى تدفع مياه نهر الكلب ، الذى ينبع من مغارة جعيتا فى الجبل ، بمضخات قوية ، فى مواسير ضخمة لتغذى مدينة بيروت بالماء العذب .



جسر نهر الكلب المعبر الحربي القديم وخلف هذه الأشجار النقوش التاريخية
التي حفرها الغزاة على صخوره الصلدة

النقوش التاريخية على صخور نهر الكلب

ولماوصلنا إلى نهر الكلب ، ويبعد عن بيروت بمقدار ٩ كيلو مترات ، وقفنا نجيل الطرف فى صخور ذلك المعبر الحربى القديم، الذى اتخذ شهرته من صدر التاريخ ، نستوحى منها ذكريات ماضيات ، ذكريات الفاتحين الغزاة ، الذين اجتازوه بجحافلهم ، ذلك الممر الذى تنتصب عن يمينه الجبال الشاهقة، وينبسط عن يساره البحر الخضم ، ونستنطقها عما تُخبؤه فى ثنايا وهادها من الأسرار ، لكن تلك الصخور الصماء كانت فى صمتها المطبق ، وما حوته من رموز ونقوش ، أبلغ خطيب وقف على منبر هذه الحياة . أجل ! لقد وقفنا منها على أسرار تلك الأمم التى دالت دولها ، مما تركته من آثار تنطق بأهمية هذا الممر الحربى الخطير .

حدقنا النظر بالأمواج المتلاطمة التى كانت تتكسر على أقدام الصخور المنتثرة على الشاطىء الجميل ، الذى تغنى بذكره الشعراء ، وأطنب فى وصفه الكتاب ، لعلنا نصيب منها حديثاً عن الماضى البعيد ، لكنها أشفقت على عقليتنا الساذجة ، ورمتنا بجهل الحقائق الواضحة ، وأخذت ترغى وتزبد أكثر من ذى قبل ، وهى تندفع بقوة فى مجرى النهر ، مرحبة بعودة المياه المنحدرة إليها من أعالى الجبال ، فكانت تحتضنها بلهف وتغمسها معها بشوق فى زرقة مياه البحر ، لأنها ردت إليه ، بعد ما أخذتها الطبيعة منه قهراً وقسراً .

فى هذا الطريق الساحلى ، مرت جحافل الفراعنة وجيوش اليونان والفرس والرومان والصليبيين والعرب والأتراك وغيرهم ، فكان كل واحد من هؤلاء يخلد ذكرى مروره بما ينقشه من كتابة على تلك الصخور ، كما نقش الحلفاء عليها ذكرى انتصارهم فى الحرب الكبرى الأولى ١٩١٤–١٩١٨ .

وأخيراً تعلق بصرنا بصخرة ، قرأنا فيها العبارة الآتية :

« فى ٣١ كانون الأول سنة ١٩٤٦ تم جلاء جميع الجيوش الأجنبية عن لبنان فى عهد فخامة الشيخ بشاره خليل الخورى رئيس الجمهورية » .

تلك كانت خاتمة النقوش التاريخية التى خلدت ذكرى الفاتحين الغزاة ، الذين اجتازوا هذا الممر التاريخى .

نهر الكلب وأسطورته التاريخية

قبل أن نغادر المكان ، جلسنا تحت ظلال الأشجار ، فى مقهى يطل على النهر ، فأخذ العم أبو طنوس يسرد على مسامعنا ، بأسلوبه الشائق حديثاً طليـاً عن تاريخه فقال :

— كان اليونان يسمونه « نهر الكلب » ، لأنه وضع على أحد صخوره العالية التى تشرف على البحر ، تمثال كلب ضخم ، مجوف ، لوضع الطعام فى داخله ، وقيد هذا الكلب بسلاسل من حديد ، ربطت أطرافها بقاعدة الصخر ، وكان هذا الكلب ينبح كلما لاحت فى البحر مراكب العدو ، ويقال إن بعضاً من تجار مدينة البندقية ، الذين وفدوا إلى لبنان

للاتجار بمراكبهم فى مستهل القرن السادس عشر ، قد أعجبوا به ، فقطعوا رأسه ، وحملوه معهم إلى مدينتهم ، غير أن الحقيقة هى أنه عند ما كانت الرياح تعصف فى قلب الوادى ، وتدخل فى جوف الكلب ، كانت تحدث أصواتاً تشبه العواء ولذا أطلق على النهر « نهر الكلب » .

وتقول أسطورة أخرى ، إن هذا الكلب كان فصيح اللسان ، يعرف كثيراً من الأحاجى والألغاز ، فكان يطلب من المارة حلها ، فمن وفق منهم إلى ذلك ، أذن له بالمرور ، ومن عجز افترسه .

وقد أطلق الرومان عليه فيما بعد « نهر ليجا » ومعناه باللاتينية الارتباط لأنه يربط جبال لبنان ووديانه ووهاده ، ببيروت بواسطة جسر حجرى أقامه عليه الملك الرومانى انطونيوس بيوس الذى حكم روما من سنة ١٣٨ إلى ١٦١ ميلادية ، وشيد بجانبه برجاً للمراقبة ، وثكنات للحرس ، كما نقش على صخر من صخوره المطلة على النهر ، أثراً يستدل منه على أنه هو الذى خطط الطريق الممتدة من هذا الجسر ، حتى بيروت ، ودعيت بالطريق الأنطونيونى ، غير أن العامة قد حرفتها إلى طريق أنطلياس .

نزهة فى وادى نهر الكلب

قمنا فى الصباح الباكر بنزهة رائعة فى قلب هذا الوادى ، الذى يحمل على منكبيه كثيراً من الأطواد والآكام ، التى تعانق أغصان الأشجار السندسية المغروسة فوق رباها عناقاً أبديا ، فسلكنا طريقاً قد عبدتها الأقدام

من قديم الزمان ، تناثرت فوقها أوراق الأشجار ، وكنا نستعين بالتصعيد فيها وفى دروبها الوعرة المملوءة بالأشواك والقندول العطر النامى بين الأدغال، على هراوات غليظة، كنا قد قطعناها من شجر السنديان فى الطريق ، وهذبناها بعض التهذيب .

وصادفنا فى مستهل رحلتنا كثيراً من العقبات ، منها أننا لم نعتد المشى فى الجبال، ولم نمارس السير وسط الغابات والأحراش ، وإنما حب الطبيعة قد أغرانا على القيام بمثل هذه النزهة ، أجلنا الطرف فى قلب الوادى بعد مسير ساعة من الزمان ، فوجدناه يمتد فى البعد ، ويتغلغل فى الارتفاع فى قلب الصخور والأدغال ، حتى يبلغ مكاناً يضيق فيه مجراه ، ويتلوى ذات اليمين وذات الشمال ، وهو محصور بين سلسلتين من الجبال ، يكسوها باسق الشجر ، وتنبت فوق رباها الأزهار ، ذات الأشكال والألوان ، يفوح منها رائحة ذكية ، أجل إن فى الشجرة جمال لبنان !

ولم نر طيلة سيرنا فى قلب الوادى قرى آهلة بالسكان، ولم نكن نسمع سوى وقع أقدامنا ، وتقلقل الحصى تحتها وصوت هراوتنا الغليظة ، وكان الوادى يردد صداها ونحن نضرب بها الأرض من حين إلى حين وصوت خرير الماء المنساب فى مجراه فى قلب الوادى .

رأتنا الطيور فخرجت من عشاشها فرحة بنا فأقبلت علينا ، وأخذت تتنقل على الأرض أمامنا ولا تخشانا ، ثم كانت تستوى فوق الأغصان مغردة ، وقد هزها الطرب لرؤيتنا نسير فى دروب قد أهملها الناس اليوم ، بعد أن استسهلوا فى تنقلاتهم ركوب السيارات الأمريكية الأنيقة المريحة ، التى غزت جميع قرى لبنان.

دير سيدة طاميش

وبينما نحن نغذ السير ، إذ بنا نسمع رنين جرس يطن فى بطن الوادى فقال العم أبو طنوس :

إنه جرس سيدة طاميش للموارنة ، القائم فى الجهة الجنوبية من الهضبة المطلة على الوادى .

قالت سلوى : وما معنى كلمة طاميش يا عم أبو طنوس ؟

ــ أجاب العم أبو طنوس قائلاً : إن هذا الدير يحمل اسم العذراء مريم عليها السلام ، وقد شيد على أنقاض هيكل وثنى قديم . كان مكرساً للآلهة أرطاميس ، إحدى معبودات اليونان ، لكن العامة قد حرفت الأسم بمضى الأيام ، وصاروا يطلقون عليه دير سيدة طاميش ، نسبة إلى البقعة الموجود فيها .

أبدينا للعم أبى طنوس رغبة فى زيارة هذا الدير الأثرى ، فسرنا إليه ونحن نتوكأ على هراواتنا فى دروب متصاعدة ملتوية وسط الأدغال والأشجار التى كانت فروعها تبسط ظلها علينا إلى أن بلغناه بعد تعب ، فلمحنا من بعيد راهباً قد ابيض مفرقاه ، يلبس جلباباً خشناً أسود اللون ، وينتعل فى قدميه حذاءاً يكاد يكون بدائيًّا فى صناعته ، ويشد حقويه بحزام من الجلد الأسود اللون ، قال العم أبو طنوس :

ــ تأملوا هذا الراهب ، إنه مثال رهبان الموارنة فى غابر الأيام .

وقفنا برهة نتفرس فيه من بعيد ، وهو يعمل بجد ونشاط فى أراضى

الدير ، ونتأمل منظره الملائكى الذى يشع منه نور القداسة والطهارة . أما هو فلم يلتفت إلينا ، ولم يعرنا أى اهتمام ، بل كان منصرفاً عنا إلى تقليم الأشجار وجمع حطبها حزماً حزماً ، وهو يترنم بأناشيد عذبة أغلق علينا فهمها إلى أن قال لنا العم أبو طنوس ، إنها أناشيد دينية باللغة السريانية التى يجيدها جميع رهبان الموارنة .

قال خليل : عجباً ! ! كيف إن هذا الراهب وهو فى مثل هذه السن المتقدمة يستطيع أن يتسلق الأشجار ويتنقل فوقها بخفة الطير ، ويصعد فى الجلول برشاقة الظبى ، ونحن فى مقتبل العمر وميعة الصبا ، قد أنهكنا سير يسير وبهنا تسلق مرتفع بسيط ؟ ابتسمت سلوى ابتسامة السخرية وأجابت :

– متى عرفت السبب يا أخى ، بطل العجب ، إن هذا الراهب الفاضل يستمد قواه من العمل اليومى الذى يؤديه ، لأن الجسد يمرض متى ابطرته الراحة ، ويتألم متى هيمنت عليه عوامل الرفاهية ، وقلة الحركة ، فالمثل يقول : فى الحركة بركة ، فبقدر ما يستعمل الإنسان أعضاء جسمه يزداد نشاطاً ويكتسب قوة وحيوية .

حيينا هذا الراهب الفاضل من بعيد ، فتنبه إلينا وأخذ يحدق فينا النظر ثم ما لبث أن هرول مسرعاً نحونا ، حتى إذا اقترب منا ، رد لنا تحيتنا

شعرنا فى قرارة نفوسنا باحترام غريب لهذا الراهب الفاضل ، كان مصدره جلال شيبه ، وبهاء طلعته ، فأخذنا يده التى اخشوشنت من العمل الشاق ، وكانت فى نظرنا أنعم من الحرير ملمساً بقداستها وقبلناها ، وبعد أن لمس من لهجتنا أننا غرباء راح يبالغ فى إكرامنا ، ودعانا لزيارة

الدير ، فلبينا الدعوة شاكرين ، وشرعنا نتجول فى أروقته ، فلم نر فيه أحداً من الرهبان برغم كبره وتعدد غرفه .

وأخيراً جلسنا أمامه تحت شجرة سنديان وارفة الظل متفرعة الأفنان ، نتجاذب أطراف الحديث مع هذا الراهب الفاضل عن أحوال لبنان ، ولما مال الحديث بنا ميله ، سأله الدكتور خليل عن عدد رهبان هذا الدير .

أجاب الراهب قائلاً :

– كان عددنا كثيراً فى الماضى يا ولدى ، أما اليوم فلا يشاركنى فى عزلتى سوى راهب شاب أتعاون معه على خدمة ممتلكات الدير ، والعناية بها ، وبعد أن سكت الراهب برهة أردف ما تقدم :

– إن الدعوة إلى الترهب قد قلت اليوم كثيراً ، لأن نظام الرهبنة قاس صارم ، لاقبل لشبان اليوم باحتماله ، فحين يلج الواحد منا أبواب الدير ، ينسى نفسه ، وتفنى إرادته فى إرادة رؤسائه ، بعد أن ينذر الطاعة العمياء ، والفقر الاختيارى ، والعفة ، وهذه النذور الثلاثة ليست فى مقدور شباب اليوم الذى تستهويه المدنية ، وتسلب لبه مباهج الحياة ومسراتها . والذى زاد الطينة بلة وقتل لبنان فى الصميم ، الهجرة .

الغربة والمغتربون

قال العم أبو طنوس :

– حقاً ان وباء الهجرة الذى استشرى بلبنان ، ما فتئ يشجع

الكثيرين على النزوح عنه إلى شتى الأقطار طلباً للعيش ، بيد أن ما يجنيه لبنان اليوم من فوائد الهجرة ، لا يقاس بما يصيبه من الضرر ، واظنكم قد لمستم ذلك بأنفسكم ، لأن السواد الأعظم من المغتربين يقطعون صلتهم بوطنهم الأصلى لبنان ، وإن عاد بعضهم إليه بحفنة من المال ، يأنف أن يزاول حرفة آبائه وأجداده التى كان قد تعلمها فى صغره ، ومارسها قبل مغادرته البلاد ، فعندئذ يأخذ فى إنفاق ما جمعه السنين الطوال « والذى لا ينبع يفرغ » كما يقول المثل ، إلى أن يصبح صفر اليدين ، فيعود ثانية إلى الجهة التى كان قد هاجر إليها ، وجمع ثروته فيها ، وفى نيته العودة إلى لبنان متى ابتسم له الحظ ، وأصاب ثروة أخرى ، ولكن هيهات أن يبتسم له الحظ مرة ثانية فتمر الأيام ، ، والأجل يلاحق ذلك المغترب المسكين بعيداً عن الأهل والخلان ، وهو يهجس بذكر لبنان .

نحن لا ننكر أن المغتربين يفيدون وطنهم لبنان ، بما يرسلونه إلى ذويهم من المال ، ولكن هذا كان فى الماضى ، أما اليوم فإذا ارسلوا شيئاً ، أرسلوه بقدر ، وقدر قليل جداً ، نظراً للقيود المالية التى تفرضها الدول على نقدها اليوم ، حتى لا يتسرب إلى الخارج .

قال الدكتور خليل :

— هذا صحيح ،، فقد لاحظنا يا عم أبو طنوس مدة إقامتنا القصيرة فى لبنان ، نقصاً كبيراً فى الأيدى العاملة ، ولعل هذا النقص يرجع إلى المهاجرة التى يشكو منها لبنان .

— أجاب الراهب هذا بلا شك يا ولدى ، لأن المهاجرة قتلت لبنان ،

فهى تفقدنا زهرة شبابنا ، ثم إن طريق النجاح فى الغربة بات غير مؤكد فى هذه الأيام السود التى استحكم فيها الضيق فى جميع البلدان .

لم يرق فى نظر الآنسة سلوى حديث الغربة ، فقطعته علينا وقالت والابتسامة على شفتيها كعادتها :

ـ كم من الزمن مضى على دخولك الرهبنة يا أبت الجليل ؟

ـ أجاب الراهب ضاحكاً ، انظرى إلى شكلى يا ابنتى ، ومنه تحكمين على عدد السنين التى قضيتها فى الدير .

أعجبنا جميعاً من سرعة خاطر هذا الراهب ، الذى يعيش بين الأحراش والأدغال ، ولباقته ، وحسن تخلصه من الإجابة .

قال الدكتور خليل : هل أنت سعيد بمعيشتك فى عزلتك يا أبت ؟

ـ ولمَ لا ، فنحن يا ولدى بعيدون عن العالم وأخطاره ، ولا عمل لنا فى عزلتنا سوى عبادة الخالق عز وجل فى شتى الأشكال . أعنى أن عبادة الخالق يا ولدى لا تقوم بالصلاة فحسب ، وإنما بكل عمل يأتيه الإنسان ، مثل مساعدة القريب ، ومد يد المعونة للضعيف ، حتى إن أكلنا وشربنا وترويض أجسامنا ، فيه تمجيد للخالق عز وجل .

قالت سلوى : ـ صدقت يا أبت الجليل ، ولكن ألم يكن لك فضل أكبر فيما لو خرجت إلى العالم وخدمته بمثلك الصالح ؟

ـ إنك على حق يا ابنتى فيما تقولين ، وهذا ما نفعله أيضاً ، فإننا نذهب إلى القرى المجاورة من حين إلى حين ، ونسمع الشكاوى ، ونصلح المتخاصمين ، ونمد يد المعونة للمعوزين .

– قالت سلوى : وهل تعرف لغات أجنبية يا أبت ؟

– أجاب الراهب : أنا لم أتعلم فى صباى سوى العربية التى أجيدها إجادة تامة ، واللغة السريانية التى نصلى بها ، لأن اللغات فى الماضى لم يكن جميع الرهبان فى حاجة إليها .

أكبرنا قدر هذا الراهب الفاضل ، وأعجبنا بفلسفته العميقة التى أملاها عليه جمال الطبيعة فى لبنان . انه ترك العالم وانطوى على نفسه فى هذا المكان اعتقاداً منه أن العالم بحر من الأحزان والآلام ، وإن الدير ميناء الخلاص الوحيد الأمين ، يتلقن فيه أسرار الحياة ، وعبادة الإله الواحد .

اكتفينا بهذا القدر من الحديث مع هذا الراهب التقى ، ثم وقفنا وسلمنا عليه مستأذنين بالانصراف ، أما هو فقد أمسك بنا ، وألحف فى الدعوة لتناول الغذاء على مائدة الدير ، تلك هى العادة التى يتبعها هؤلاء الرهبان مع الزائرين الذين يهبطون عليهم ، ولكننا اعتذرنا بأدب ، وقبلنا منه بعض الفواكه التى تنتجها حديقة الدير ، وودعناه وسرنا فى طريقنا إلى جعيتا القرية القابعة بين الجبال الجرداء والغياض ، لمشاهدة مغارتها العجيبة وتقع فى أسفلها ، وكنا قد قرأنا نبذة شائقة عنها ، فمررنا بطرف هذه القرية بحقل من أشجار الزيتون ، يقدر القوم هناك عمر بعضها بأكثر من ألف سنة .

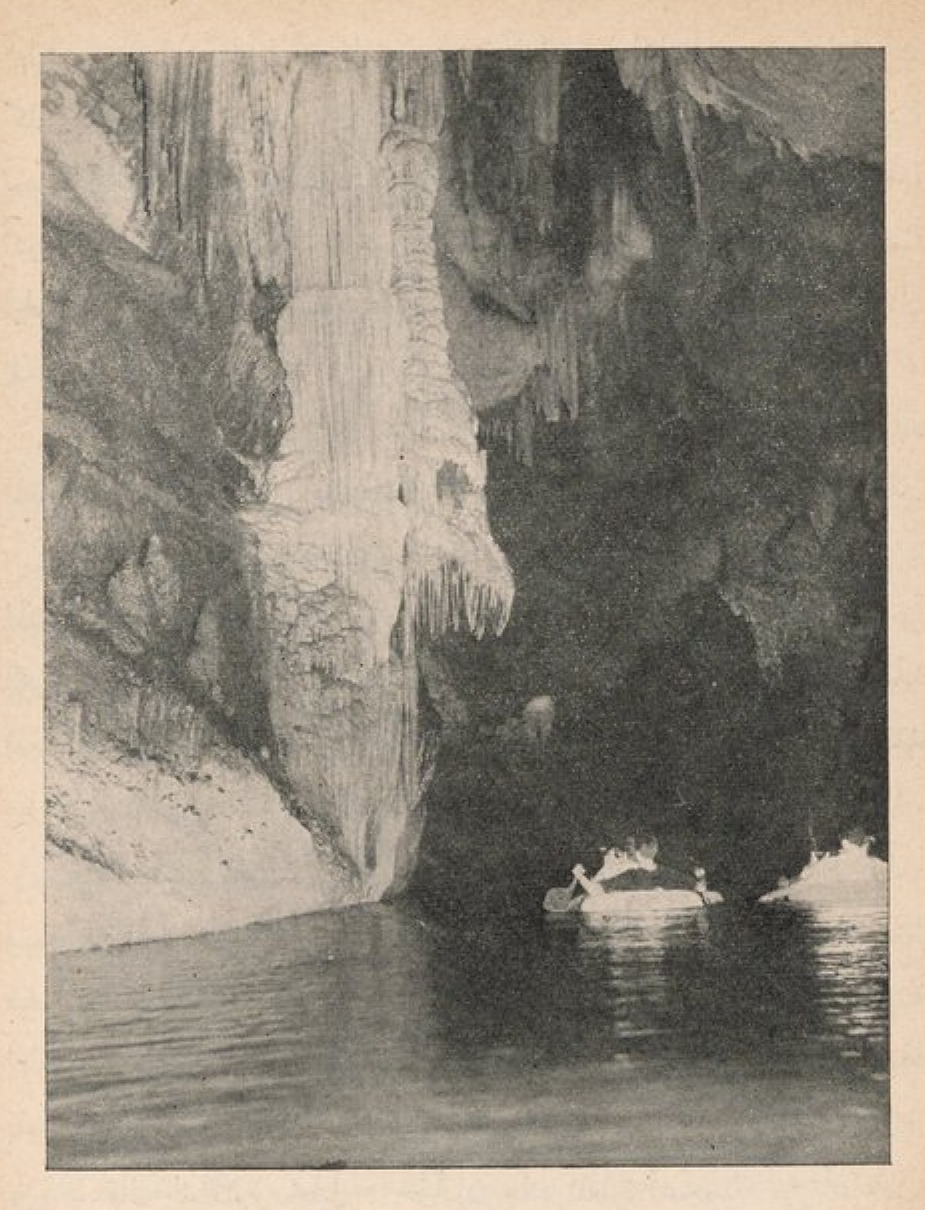
وقفنا نجيل الطرف بهذه الأشجار الهرمة ، التى تلبس ثوباً من الروعة والجلال ، وهى جالسة فى ذلك المكان السحيق ، تحف بها أطياف الماضى الملىء بالذكريات لتستقبل الحاضر بمظاهر البهجة والسرور .

مغارة جعيتا

بلغنا مغارة جعيتا التى تقع شمالى بيروت بمقدار ١٦ كيلو متراً والشمس فى أوج السماء ، فسمعنا دوياً يصم الآذان ، يصدر من حين إلى حين من داخلها ، ولما اقتربنا منها ، رأينا الماء يتدفق بغزارة من جوفها ، وقد علل الدكتور خليل هذا الدوى باحتمال وجود مضخات ماصة فيها ، تمتلىء من تلقاء نفسها ، أو بوجود شلالات بعيدة الغور يهوى الماء فيها من علو شاهق .

قالت سلوى : ما معنى كلمة جعيتا يا عم أبو طنوس ؟

– أجاب العم أبو طنوس قائلا : إن جعيتا لفظة أرامية ، معناها الدوى وهذه المغارة هى أكبر مغارة فى العالم ، ومعروفة فى لبنان منذ القديم ، وأول من ارتادها المهندسان الإنجليزيان مكسويل وهكسلى ، اللذان عهد إليهما بفحص مياه نهر الكلب سنة ١٨٧٣ بعد أن حلت الشركة الإنجليزية محل الشركة الفرنسية فى استغلال مرافق الشركة ، التى تغذى مدينة بيروت بالمياه العذبة ، فصنع هذان المهندسان لهما زورقاً يتناسب واتساع هذه المغارة ، وأخذا حبلا متيناً طويلا ، وربطا أحد طرفيه فى شق فى الصخور المجاورة ، وربطا القارب فى الطرف الآخر ، وارتادا على ضوء بطارية أول حوض منها طوله عشرون متراً بصعوبة بالغة ، لكثرة ما اعترض خط سيرهما من صخور بارزة فوق سطح الماء ، ثم توغلا فى سيرهما حتى بلغا بحيرة واسعة تذهب فى العمق إلى حد كبير ، وكانا إذ ذاك قد قطعا نحو ١٢٠٠ متر ، فأجالا



مغارة جعيتا هى عبارة عن نهر يمتد مئات الأمتار تحت الجبال

الطرف حولهما ، فرأيا أن المغارة متسعة مظلمة من الداخل ، وأن صخرها كلسى سريع التآكل ، وأن النظر لا يحدها ، لفرط امتدادها إلى مسافات تحت الجبال ، فلم تسعفهما الجرأة على التوغل فيها أكثر من ذلك ، فعادا أدراجهما من حيث أتيا ، بعد ما أثبتا أنها عبارة عن نهر طويل يمتد تحت الجبال ، فيه شلالات يضيق جانباها حيناً ، ويتسعان حيناً آخر ، ويقال إن بحيرة اليمونة تصب فيها .

قالت سلوى : أظن أن هذا كل ما تعرفه يا عم أبو طنوس عن هذه المغارة ؟ دعنى ، أكمل معلوماتك عنها فقد تفيدك فى حياتك الصحفية .

قرأت فى كتيب إنجليزى عنوانه « المغاور » أن الدكتور لامارش ، المشهور بارتياد المغاور الكبيرة فى أوربا ، عند ما حضر إلى لبنان فى أواخر القرن الماضى ، وزار مغارة جعيتا ، أثبت فى طيات رحلته أن طول هذه المغارة عشرة كيلو مترات تقريباً ، وأنها تمتد تحت سلسلة من الجبال ، وتستمد مياهها من الثلوج المتساقطة فوق قمم الجبال عند ذوبانها وتسربها فى شقوقها .

وهذه المغارة مقسمة إلى أحواض ، تسمح بسير الزوارق الكبيرة فيها ، ويبلغ طول أول حوض منها ٥٠ متراً ، يليه حوض آخر تياره سريع ، تتجمع فيه المياه المتدفقة من الداخل ، ولا يمكن خوض عباب هذا الحوض ، إلا بزوارق كبيرة ، وحبال متينة طويلة ، وقد ختم الدكتور لامارش وصفه بقوله إنها أجمل ، وأكبر مغارة ارتادها فى حياته .

ـ قال الدكتور خليل : حقاً إن هذه المغارة أعجوبة من أعاجيب الطبيعة ، ويا حبذا لو عنى ولاة الأمور فى لبنان باكتشافها من الداخل ،

والانتفاع بالمياه المتدفقة منها بغزارة فى توليد القوى الكهربائية ، وأعمال الرى التى يفتقر إليها لبنان أشد الافتقار .

فأجاب العم أبو طنوس ، هذا ما يعنى به ولاة الأمور فى لبنان اليوم ، للانتفاع بكل قطرة ماء ، سواء أكان فى جروده أو فى سهوله .

طواحين من القديم

كانت الساعة قد أشرفت على الثالثة عند ما انتهينا من جولتنا فى ضواحى مغارة جعيتا ، وكان التعب قد استبد بنا ، فجلسنا تحت شجر الصنوبر المتفرع الأغصان، الوارف الظل ، نستريح بعض الوقت من عناء الطريق ، فبسطنا على أديم الأرض ما معنا من زاد ، وأكلنا بشهية، تحف بنا المناظر الطبيعية، ويهب علينا نسيم الصنوبر العليل الذى كان يملأ بنقاوته صدورنا ، فنستروح منه نسمات الحياة المنعشة فى ذلك الجو الهادئ الذى يحيط بنا ، ولما انتهينا من الأكل، غادرنا المكان فى طريق منحدرة، عرة ، فمررنا بطواحين قديمة العهد ، تسير رحاها بقوة الماء المتساقط عليها من علو شاهق ، فوجدناها خالية خاوية ، وكل شىء حولها يشعر بالوحشة غير أننا سمعنا خرير الماء، وهو يترنح ساقطاً من برجه العالى ليندفع فى قناة تنتهى فى مجرى الوادى قد امتلأت بالأعشاب التى طالت حتى انحنت ، وكأنما انحنت غماً وحزناً على مصير هذه الطواحين ، التى عضها الجوع بنابه ، وكانت فى الماضى تتغذى بالقمح الذى كانت تنتجه حقول ومزارع

القرى المجاورة ، وقد هجرها فلاحوها اليوم .

كان الليل قد تهافت علينا ، عند ما بلغنا جسر نهر الكلب القديم ، فارتمينا فى سيارتنا ونحن على أشد ما يكون من التعب ، وكانت فى انتظارنا أمام المقهى المطل على البحر الهادئ ، فدلفت بنا إلى جونيه ، حيث التمسنا فندقاً نقضى فيه بقية ليلنا ، لعلنا نصيب فى النوم راحة لأبداننا ، تعوضنا بعض ما أخذت النزهة الرائعة فى وادى نهر الكلب الفاتن منا .

جونيه وخليجها الساحر

ولما كان الصباح قمنا من النوم أوفر نشاطاً ، فتجولنا فى أنحاء جونية المدينة الساحلية الفاتنة ، فشاهدنا مرفأها الجميل ، وخليجها الهادئ الساحر الرابضة عليه منذ الأزل لا تقوى على فراقه ، لأنه من أجمل خلجان العالم منظراً ، وأشدها تأثيراً فى النفس ، تشرف عليه قرى معلقة فوق هضاب وعرة تنوء بما تحمله من أشجار . وقد رأينا فى الجهة الشرقية منها غابة صغيرة يسودها الهدوء ، فيها الكثير من أشجار الصنوبر والشربين والسنديان والخرنوب . ولم يفتنا أن نقوم بزيارة خاطفة لمدرسة الفرير الشهيرة التى ساهمت فى إعداد عدد كبير من رجالات لبنان العظام .

وجونية من أجمل مشاتى العالم ، وهى مركز تجارى هام ، يهبط إليها كثير من سكان الجبال فيقضون فيها فصل الشتاء القاسى ، ولكن الحكومة مع الأسف الشديد — كما لاحظنا لم تولها العناية الكافية باعتبارها مشتى جميلا شأنها شأن جميع المدن الواقعة على ساحل لبنان الفاتن .

برج هيلانة

تركنا جونيه وخليجها الفاتن ، واستأنفنا رحلتنا فى الطريق الساحلية ، وقبيل وصولنا إلى المعاملتين برز أمامنا برج عال قائم فى البحر ، تتكسر الأمواج حول جدرانه ، ولا تقوى على هدمه .

قال لنا العم أبو طنوس : إن هذا « برج هيلانة » وينسب إلى الملكة هيلانة والدة الإمبراطور قسطنطين الكبير ، وكانت فى الماضى ، تضاء نار فى أعلاه عند حدوث أمر جلل ، تتناقلها الأبراج الأخرى ، التى كانت مقامة على طول الشاطئ حتى القسطنطينية . وقد تهدمت اليوم أجزاء كثيرة من هذا البرج الذى تبدو عليه آثار الفناء ، والبقية منه تنطق بما كان عليه من شأن فى الماضى فى نقل الأخبار عبر البحار .

ميناء طبرجه وبولس الرسول

كانت الشمس قد أوغلت فى بزوغها عند ما وصلنا إلى طبرجه ، وتقع فى الجهة الشمالية من جونيه ، فوقفنا نجيل الطرف فى مينائها القديمة ، ويخيم عليها اليوم السكون الشامل والهدوء التام ، فلم نكن نسمع إلا أصوات الأمواج تتكسر على أقدام الصخور المحيطة بها ، فذكرنا ما كانت عليه هذه الميناء من الأهمية فى الماضى ، يوم كانت سفن الفينيقيين تجوب

موانئ البحر الأبيض وتغزو شواطئ العالم القديم .

وبينما نحن مستغرقون فى تفكيرنا ، ارتفع صوت العم أبو طنوس فجأة وهو يشير بيده إلى صخرة من تلك الصخور التى لم تستطع أمواج البحر التى تحاربها أن تنال من صلابتها وتذيبها فى نفسها ، وقال :

— من هذه الميناء ، ومن أعلى هذه الصخرة التى تعتز بقوتها أمام جبروت البحر ، وتتيه فخراً على أمواجه العاتية ، وهى فى صراع دائم معها قفز بولس الرسول ، معلم الأمم والشعوب ، وتلميذ السيد المسيح له المجد ، إلى مركب شراعى بدائى ، وأبحر به نحو الغرب ، ليكرز بتعاليم الناصرى ، التى قوامها المحبة والإخاء والسلام .

هذا ما يتناقله الناس هناك من أمر هذه الصخرة .

وكأنى بالبحر قد أدرك الغاية من زيارتنا لشاطئه الجميل ، فقذفنا بموجة عالية ، لطمت تلك الصخرة لطمة قوية ، لم نسلم من رشاشها ، فآمنا عندئذ بأن البحر هو كل شىء ، ونحن بالنسبة اليه لا نساوى شيئاً .

نهر إبراهيم

تركنا طبرجه ، فتابعت سيارتنا سيرها فى طريق الساحل الفينيقى الممتد على طول البحر ، المنبسط تحت أقدام جبال لبنان ، وكانت أمواجه الهادئة المنسابة فوق رماله الناعمة البيضاء ، تنقل إلى آذاننا أعذب الالحان ، ونسيمه العليل الذى يهب علينا ينعش بصفائه نفوسنا ، ورؤية مياهه الزرقاء

المتموجة فوق سطحه تبعث فينا هدوء النفس ، وراحة الأعصاب ، ونحن نرافق الشاطئ الساحر .

أجل : كان الجمال مجسما فى كل شىء يحيط بنا ، ويصادفنا فى كل خطوة من خطواتنا ، وقد استولت روعة تلك المناظر على نفوسنا ، عند ما وصلنا إلى نهر إبراهيم ، وقد سمى بهذا الأسم ، نسبة إلى الأمير إبراهيم ، ابن أخت القديس يوحنامارون ، أحد أمراء الموارنة المردة ، الذين حكموا لبنان ، وذلك لأنه بنى جسراً فوق مصبه بالقرب من البحر الأبيض المتوسط ، ما فتئ يشاهد حتى يومنا هذا .

وليس نهر إبراهيم من الأنهار ذات الشهرة الملاحية ، التى تتهادى فوق صفحته الزوارق ، وتدوى فى مياهه أصوات المجاذيف وهى تتحسس الماء برفق ولين ، كأنها لهثات العاشقين الوالهين ، ولا هو من الأنهار التى تنبسط حول مجراها السهول الفيحاء ، والحقول والبساتين الباسمة الغناء ، وإنما هو جدول صغير ، إذا قيس بنهر كبير ، ملىء بالذكريات التاريخية ، ينبع من مغارة أفقا ، بالقرب من العاقورة ، ومن الصخور التى تجاورها ، ويتدفق ماؤه فى مجرى صخرى عميق ، يضيق فى أعلاه ، تكتنفه الجبال العالية ، وتصطف حول حافتيه أشجار السنديان ، والصفصاف ، والدفلى وغيرها من الأشجار والنباتات ، التى تملأ الجو عبيراً ذكياً منعشاً ، وتهز مناظره الخلابة القلوب روعة . وعند ما يقرب مجرى هذا النهر من الشاطئ تحبو مياهه ببطء وهدوء ، وتروى الأراضى التى تحيط به ، قبل أن تقذف بالفائض منها فى البحر .

وقد امتدت يد الإنسان إلى هذا النهر ، من زمن ليس ببعيد ، عند ما فكر جماعة من رجال المال والأعمال اللبنانيين ، فى الاستفادة من مساقط المياه ، التى يكثر وجودها فى لبنان ، واستغلالها اقتصادياً ، فأقاموا عليه محطة لتوليد الكهرباء ، تغذى اليوم شمال لبنان بالتيار الكهربائى .

اسطورة أدونيس

لم يشأ العم أبو طنوس أن نغادر المكان ، بدون أن يتحفنا كعادته بقصة هذا النهر وتاريخه القديم ، وما دفنت فيه من ذكريات ماضيات ، ونحن جلوس تحت شجرة صنوبر لم تحجب أغصانها عنا صفاء السماء فقال : كان للزهرة « فنيس » هيكل يقع عند منبع نهر إبراهيم ، الذى كان يطلق عليه فى الماضى نهر أدونيس ، بقرب مغارة أفقا ، فى أعالى الجبال بالقرب من الناقورة ، وقد هدمه الملك قسطنطين الكبير وكان أدونيس الملقب بتموز ، ابن الإلهة عشتروت ، جميل الصورة ، فهام فى حب أفروديت واتخذها معشوقة له ، غير أن عقارب الحسد قد دبت فى نفس مارس إله الحرب ، ولكى ينتقم من أدونيس الذى ينافسه فى حب أفروديت ، أرسل إليه وهو يصطاد فى غابات الشمال الكثيفة الملأى بالوحوش الكاسرة ، خنزيراً برياً كبير الحجم ، فهجم عليه ، وأنشب أنيابه فيه ، فجرحه جرحاً بليغاً ، حال بينه وبين مواصلة السير ، فقلقت عليه أفروديت لما طال غيابه ، وخرجت تطلبه فى الغابات الكثيفة ، والجبال

الوعرة ، والوديان السحيقة ، التى كانت أصوات الريح تعوى فيها كالذئاب الكاسرة ، لأن الوقت كان شتاء ، وهى تبكى معشوقها وتندبه بكلام مؤثر ، إلى أن عثرت عليه ملقى عند مدخل مغارة أفقا الضيق المنقورة بفعل العوامل الطبيعية فى صخر ارتفاعه ٢٠٠ متر ، وهو يجود بالنفس الأخير ،

فلما رآها آتية إليه ، دبت الحياة فيه ، وأخذت أفروديت تغنى به ، ولكن الجرح كان مميتاً ، فقضى نحبه بين ذراعيها ، ولم تعمر أفروديت طويلا فماتت غماً وحزناً على أدونيس .

وتقول الأسطورة إنه فى آخر شهر شباط (فبراير) من كل سنة ، وهو الوقت الموافق لموت أدونيس ، يتحول لون ماء النهر إلى أحمر قان يشبه لون الدم ، والحقيقة هو لون تربة الأرض التى تجرفها مياه الأمطار أثناء انحدارها من أعالى الجبال ، وتقذف بها فى النهر .

وقد امتدت عبادة أدونيس إلى مصر وغيرها من البلدان ، التى كانت على اتصال وثيق بالفينيقيين ، فكان من عادة المصريين القدامى ، أن يلقوا كل سنة فى عيد أدونيس ، علبة فى البحر ، مصنوعة من خشب على شكل هيئة رأس ، ويضعون فى داخلها رسالة إلى سكان جبيل تنطوى على الود والإخاء .

جبيل المدينة المقدسة

كانت جبيل وقد سماها اليونانيون « بيبلوس » فى عصور التاريخ الأولى عاصمة مملكة عظيمة ، ومدينة حصينة ومقدسة عند الفينيقيين ، ومركزاً

لدينهم الوثني ، يقيمون في هياكلها التي كانت مستودع الأسرار والرموز القديمة ، الاحتفالات الدينية لإكرام الإله بعل وقرينته عشتروت ، كما أن المصريين القدماء كانوا يحجون إليها في المواسم والأعياد ، ويكثرون من القرابين والنذور لآلهتها .

وكان الكهنة يحتفلون بأعياد آلهتهم في تلك الهياكل احتفالا منقطع النظير ، وكان أهمها ، عيد أدونيس (تموز) الذي قتله خنزير بري كما مر ، فكانوا يقيمون لهذا الإله عيدين ، الأول في الخريف يمثلون فيه جنازة أدونيس ، ترتدي فيه النساء ثياب الحداد ، ويبكين على موت أدونيس ، كما أن كهنتهم كانوا يخدشون وجوههم ، ويدمون صدورهم إلى أن تصطبغ أجسامهم بدمائهم حزناً على موت الهتهم ، والثاني في الربيع ، كانوايقيمون فيه الأفراح ، ويرتكبون جميع أنواع الموبقات ابتهاجاً ببعث أدونيس.

واليوم ، لا يدل مظهر هذه المدينة التاريخية ، التي هي مهد الجنس اللبناني ، ومن أقدم المدن الساحلية وأغناها بالآثار ، على أنها كانت على مبلغ عظيم من العظمة بكثرة مبانيها الشامخة ، ومسارحها المشهورة ، وأعمدتها الضخمة ، وقد رأينا فيها بقايا سور حجري متين قيل لنا إنه كان يحول بينها وبين طغيان ماء البحر عليها .

كان أهل جبيل من أمهر الملاحين ، يخوضون غمار البحر من مرفأ مدينتهم الشهير ، ويطوفون في البلاد بمراكبهم بهمة لا تعرف الملل .

وقد أخبرنا أحدهم بأنه قد اكتشف في جبيل ، كثير من الآثار ، ومن أهمها المعبد الفينيقي الأكبر ، والنواويس العديدة ، وعلى جوانبها

نقشت صور حيوانات وبشر ، كما وجدوا فى هذه النواويس قلائد وعقوداً وحلياً وتماثيل ومسكوكات ، وزجاجات لحفظ الدموع ، دلالة على حزن أصحابها ، وسوى ذلك من أدوات الزينة النسائية .

ويضم المتحف الوطنى فى بيروت، كثيراً من آثار هذه المدينة الأثرية الخالدة التى أبقت عليها الأيام ، ونجت من أيدى المنقبين وعبث اللصوص فى غابر الأزمان .

وقد شاهدنا فيها قلعة جبيل التاريخية بأكثر أقسامها الموجودة فى البحر ، وهى من بقايا الصليبيين فى هذه المدينة .

تين عمشيت

بعد أن خلفنا جبيل وراءنا ، رأينا فى الطريق جموعاً من البنين والبنات ، صغار السن بملابسهم النظيفة الزاهية ، واقفين على جانبى الطريق وفى أيديهم سلال صغيرة ، ملؤها بالتين الأبيض الصغير الحجم ، اللذيذ الطعم ، يعرضونها على المارة بلهجتهم اللبنانية الطريفة ، فأوقفنا سيارتنا وابتعنا منهم سلتين بليرتين لبنانيتين ، وبينما نحن نفرغ ما فيهما فى جوفنا ، التفت إلينا العم أبو طنوس وقال : —

— هذا تين عمشيت ، وهو ألذ تين فى العالم ، وعمشيت مشهورة بتينها ، وقد أقام فيها رينان الفيلسوف الفرنسى زمناً طويلاً ، حيث فقد ابنته ، وما فتىء قبرها يشاهد فيها حتى اليوم بجوار الكنيسة وتحت ظلال

شجرة السنديان ، وكذلك البيت الذى أقام فيه هذا الفيلسوف الشهير ، حيث بدأ يفكر وهو جالس على سطحه فى ضوء القمر فى كتابة كتابه « حياة يسوع » .

البترون

ولما بلغنا البترون، كان البحر عن شمالنا ، وجبال لبنان عن يميننا ، وقد انتصبت كالتماثيل الجبارة تنهض فوق رباها الأشجار الباسقات .

والبترون مدينة قديمة ، كانت ذات شأن عظيم فى الماضى ، بناها إيتو بعل فى القرن العاشر قبل الميلاد ، وكانت أيام الفينيقيين مرفأ هاماً للتجارة ، ومكاناً مشهوراً لصناعة سفنهم ، وقد اكتشفت فيها نواويس وآثار فينيقية ويونانية ورومانية هامة ، أما اليوم فيشملها الهدوء ، ويبسط عليها السكون ظله . شاهدنا فيها آثار قلعة المسيلمة القائمة فى وسط وادى نهر الجوز ، وسور الحجر الطبيعى القائم على شاطىء البحر ولعله مكمل لسور جبيل ، ويقال إن الفنيقيين قد حاولوا لأول مرة النزول فى البحر من هذه الميناء ، لغزو البلدان القائمة على شواطئه ، والتعرف بأهلها وتبادل السلع معهم .

الإسفنج اللبنانى

طفنا بشاطىء هذا المرفأ الهادئ ، وكان الوقت قبيل الغروب ، فرأينا هناك شيخاً قد قاربت شمس حياته على الغروب ، جالساً على صخرة فوق

سطح الماء، يجيل الطرف بالبحر المترامى الأطراف ، كأنه ينتظر منه شيئاً، أو يريد أن يودعه سراً يوصله إلى حبيب، وما أكثر ما فى البحر من أسرار يكشف عنها طنين الأمواج ! ! فحييناه فرد لنا تحيتنا بأحسن منها ثم دعانا للجلوس، فجلسنا بجواره على تلك الصخرة وأخذنا نتداول معه الحديث ، ولما مال بنا الكلام إلى الغربة والمغتربين اللبنانيين ، تأوه شيخنا من أعماق قلبه وقال : قاتل الله الغربة ، فقد انتزعت منى أولادى الثلاثة منذ ثلاثين سنة تقريباً ، فتراني اليوم فى أشد الشوق إلى لقائهم .

سكت شيخنا برهة وأردف ما تقدم قائلاً :

ـ إنى آتى كل يوم إلى هذا المكان فى مثل هذا الوقت ، وأجلس فوق هذه الصخرة ، وألعن الساعة التى سمحت فيها لأولادى بترك لبنان .

قال العم أبو طنوس : بمَ كان يشتغل أولادك قبل سفرهم ؟

ـ أجاب الشيخ كان اثنان منهم يعملان معى فى صيد الإسفنج من شواطىء بلدتنا البترون ، والثالث وهو أصغرهم كان يتلقى علومه فى مدرسة الفرير بجونيه .

قالت سلوى : عجباً وهل يوجد إسفنج فى شواطىء بلدتكم ؟

فقال الشيخ : كيف لا ، فنحن أهالى البترون وجبيل من أبرع الناس فى صيد الإسفنج ، لأن الشاطىء اللبنانى الممتد من طرابلس حتى جبيل ، كان مركزاً هاماً لاستخراجه فى موسم الصيد الذى يبتدىء فى أوائل شهر آيار (مايو) ، ويستمر حتى شهر إيلول (سبتمبر) . غير أن هذه الصناعة اليوم فى طريق الزوال لقلة الأيدى التى تعمل فيها ، نتيجة

المهاجرة ، وعدم الاعتناء بالشواطىء ، وتوفير بيض الإسفنج فيها .

قال الدكتور خليل : يا حبذا لو اهتم ولاة الأمور عندكم يا عم أبو طنوس ، وأولوا هذه الصناعة عنايتهم ، وقد كانت إلى عهد قريب مصدراً من مصادر الثروة فى لبنان . فقد قرأت عن الإسفنج اللبنانى أنه من أجود أنواع الإسفنج فى العالم ، لنعومة ملمسه ، وشدة ليونته ، وجمال لونه الذى يضرب إلى الشقرة .

قال الشيخ : نعم يا ولدى ، إن صناعة الإسفنج كانت قبل الحرب الكبرى الأولى تلاقى رواجاً عظيما ، وكان يعمل فيها كثير من الأيدى ، أما اليوم فقد أشرفت على الزوال ، لأن الجيل القديم الذى كان يعمل فيها قد انقرض أو كاد ، ومن بقى منهم ، لا يستطيع القيام بهذا العمل الذى يتطلب مجهوداً خاصاً ، أما الشبان ، فقد ترك بعضهم لبنان ، كما انصرف البعض الآخر عن هذه المهنة إلى سواها . قاتل الله الغربة فقد قتلت لبنان ، وشلت حركة العمل فى كثير من مرافقه الحيوية .

لم نشأ أن نثقل على شيخنا أكثر من ذلك ، فتركناه على صخرته وحدته يتأمل ، ويفكر وينتظر مجىء أولاده الثلاثة . إنه الأمل الجميل الذى يداعبه ! ! . بل الأمل الذى يداعب كل لبنانى ينتظر عودة من له فى دار الغربة . هكذا يعيش اللبنانيون اليوم . فليس فى لبنان قرية مهما يقل شأنها ، إلا ويوجد مغتربون من أبنائها . أجل حياة بلاأمل هى موت ، ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل ! !

نفق المسيطبة

قضينا الليل فى البترون الهادئة ، وفى صباح اليوم التالى بارحناها إلى شكا ، فاجتازت السيارة أثناء الطريق نفق المسيطبة الشهير ، وقد نقر فى جوف الصخور التى تعلو سطح البحر بمقدار ٢٠٠ متر منذ زمن ليس ببعيد ، وذلك عند إتمام الطريق بين البترون وطرابلس ، تفادياً من حوادث المركبات التى كان يكثر وقوعها فى تلك الجهات ، ويبلغ طول هذا النفق نحو سبعين متراً ، ويعلوه رأس الشقعة الشامخ الارتفاع ، وصخوره الهابطة عمودياً ، فتدخل فى البحر على شكل رأس يكثر حوله السمك الكبير الحجم اللذيذ الطعم ، وقد خيل إلينا منظره من بعيد كأنه بارجة راسية فى المرفأ فى انتظار الخروج إلى عرض البحر لتمخر عبابه .

شكا وشركة الترابة اللبنانية

ولما أشرفنا على شكا ، بدا لنا خليجها الجميل الصغير ، الذى يزينه رأس الشقعة بصخوره العالية ومن ورائه مصنع شركة الترابة اللبنانية (الأسمنت) ، الذى يقع بأكثر أجزائه على شاطىء البحر ، وهو يقذف من مداخنه العالية الدخان فى الفضاء .

توجهنا لزيارته ، فإذا هو مكون من أربعة أفران كبيرة مجهزة بأحدث

الآلات والعدد ، ويعمل فيه عدد كبير من الشبان اللبنانيين تحت إرشاد مهندسين سويسريين ولبنانيين .

وقد أخبرنا أحد المهندسين ، بأن الأسمنت الذى ينتجه هذا المصنع هو من أجود الأسمنت فى العالم ، نظراً لطبيعة الجبال المحيطة بشكا التى يؤخذ منها .

تأسست شركة الترابة اللبنانية منذ ربع قرن تقريباً ، برأس مال قدره ٢٤ ألف ليرة ذهبية ، وكان إنتاجها فى بادىء الأمر ضعيفاً جداً ، لا يتجاوز فى مجموعه ٥٠ ألف طن فى السنة ، نظراً لعدم الإقبال على استعمال الأسمنت فى لبنان ، أما اليوم فقد أصبح رأس مالها يقدر بثلاثين مليون ليرة لبنانية بعد ما زاد إنتاجها إلى ٥٠٠ ألف طن فى السنة ، حتى أصبحت تسد حاجة لبنان من الأسمنت فى أوج نهضته العمرانية ، التى شملت جميع قراه ، ويصدر الفائض من إنتاجها إلى الخارج .

وقد علمنا أن أكثر أسهم هذه الشركة الناجحة هى فى أيدى السويسريين ، الذين كان لهم الفضل فى إنشائها ، بيد أن فيها كثيراً من المساهمين اللبنانيين ، ومن أكبرهم غبطة البطريرك المارونى ، مار أنطون بطرس عريضة ، إذ يملك فيها ألفى سهم إيرادها السنوى ٦٠ ألف ليرة لبنانية ، أوقفها جميعها على مساعدة فقراء كهنة الرعايا الموارنة وغيرهم من فقراء لبنان .

الفصل السادس

التصعيد فى الجبال

خلفنا وراءنا بعد أن تركنا شكا ، الشواطىء اللبنانية ، وهى من أجمل شواطىء العالم منظراً ، وألطفها مناخاً ، وأرقها نسيما ، لأنها تجمع بين متعة السواحل ، وجلال الجبال ، تزينها روعة الغابات الكثيفة التى تشرف من عل عليها ، وقد أخذت السيارة ترتقى بنا سفوحاً نضرة ، وهضاباً وعرة توشيها الخضرة ، شقت فيها طرق معبدة تتدرج فى الارتفاع ، وكلما أزددنا توغلا فيها ، أزداد البحر بعداً عنا ، إلى أن استولى علينا الرعب من منظر الوديان السحيقة ، التى كان النظر يقع عليها ، وكان يزيل ما يساور قلوبنا من الخوف ، ظهور بعض القرى من حين إلى حين أمام عيوننا ، قرى أوجدتها الطبيعة فى بقع معينة بالذات فى ذلك الجبل الأشم ، ومن حولها تقوم الغابات وكروم العنب ، وحدائق الفاكهة ، فكانت كأنها صور فنية ، فيها سحر ، وفيها جمال ، رسمتها يد فنان حاذق على لوحة الطبيعة فى أرض لبنان .

مهارة سائقى السيارات

أخذ علينا العم أبو طنوس خوفنا من انكماشنا فى أماكننا فى السيارة وصمتنا ، والاكتفاء بسماع مذياعها ونحن لا نشعر بجمال ما يحيط بنا ،

ولا نطرب لعذوبة صوت المغنى ، وكى يبدد مخاوفنا قال :

ــ لا تخافوا أيها الأخوان ، إن الطرق فى لبنان كلها أمان واطمئنان ونحن ما زلنا فى أول الدرب ، فستجتاز بنا السيارة عما قريب ، مرتفعات عالية رهيبة قائمة فوق الهضاب ، وتسير فى طرقات متعرجة ملتوية شقت فوق هامات الأودية وقنن الجبال ، بشكل يسهل معه اجتياز السيارات بدون خطر أو خوف ، لأن سائقى السيارات فى لبنان ، من أمهر سائقى العالم وتقاس مهارتهم بتعرج الطرقات وصعوبة التّصعيد فيها ، على أنهم يقودونها بسرعة جنونية لا هوادة فيها ، فقلما نسمع بحدوث حوادث . فالسائق اللبنانى يتحكم فى عجلة القيادة ، كما يتحكم الطفل فى لعبته .

راق هذا الحديث فى نظر السائق حسن فقال :

ــ هل أنتم خائفون ؟ نحن ما زلنا فى مستهل التصعيد فى الجبال ، فعند ما نبلغ رأس الشقعة ، وهو أرهب مرتفع فى لبنان ، ماذا تقولون ؟

أجابت سلوى : نقول بأننا تحت رحمة ربنا ، ورحمة قيادة سيارتك

فضحكنا بعد وجوم من روح حسن المرحة ، الروح التى يتصف بها جميع أهل لبنان ، فأوقف مذياع السيارة وطاب له الغناء ، وأخذ يطربنا بصوته الرخيم بالأغانى اللبنانية ، من عتابا ومواويل والسيارة ترتقى بنا الجبال ، وكانت الوديان تردد صدى صوته العذب .

وقد مررنا بكثير من القرى والدساكر ، وكان أهلها يقابلوننا بالترحيب ، لأن روح المدنية الزائفة وما فيها من كذب ورياء لم تتسرب إليها بعد .

أميون

ولما أشرفنا على أميون القائمة على أكمة عالية تطل على مناظر غاية ما يكون من الروعة والجمال ، أوقفنا سيارتنا وقمنا بجولة فيها ، فرأينا فى سفح الجهة الشرقية منها كهوفاً عديدة ، كانت فى الماضى منازل للنساك ، وحقولا تغص بأشجار الزيتون ، يرجع تاريخ غرس بعضها إلى مئات السنين

وزرنا كنيسة القديس جرجس عليه السلام ، وهى قديمة جداً ، بنيت على أنقاض هيكل وثنى قديم ، يقوم بالقرب منها مدفن ، قيل لنا إنه لموريق أحد القائدين ، اللذين أرسلهما الملك يوستنيانوس لمحاربة المردة حكام جبل لبنان ، فلاقى حتفه ودفن هناك .

انتقلنا من كنيسة القديس جرجس إلى كنيسة القديس يوحنا ، وقد بنيت على صخرة نحتت فيها عدة قبور أثرية ، يرجع تاريخها إلى العهدين الفينيقى والرومانى ، ومن هذا يستدل على قدم هذه القرية القابعة فى عقر الجبل .

وتشرف أميون على سهول خصبة ، وهى تعد من أكبر قرى الكورة العليا ، مناخها صحى ، وهواؤها عليل ، وماؤها عذب بارد غزير ، وبعد أن اجتزناها فى طريقنا إلى كوسبا ، وتقع فى جنوبها الشرقى ، رأينا غربيها فى المكان المعروف بقصر الناووس آثار خرائب قديمة ، استدلينا منها على وجود مدينة قديمة ذات أبنية ضخمة ، كان لها شأنها عظيم فى الماضى .

البرباره وقصتها

استمرت السيارة فى صعودها حتى بلغت قرية البرباره ، وفيها مقام متواضع لهذه الشهيدة العظيمة التى ولدت من أبوين وثنيين ، وحكايتها ، أن والدها حبسها فى برج لشدة جمالها ، وحسن أخلاقها ، ورقة شمائلها ، لئلا يهيم قلبها بشخص لا يريده هو زوجاً لها . أما هى ، فشرعت من أعلى برجها ترفع عينيها إلى السماء ، وتتأمل بجمال الكون ، وترقب بهاء القمر ، وتفتتن بروعة وجلال الشمس والكواكب الأخرى ، فاستنتجت من كل ذلك وجود خالق عظيم ، وإن الآلهة التى يعبدها والدها ما هى إلا آلهة كذبة ، لا حول لها ولا قوة .

وبقى الأمر كذلك ، إلى أن سمعت هذه الفتاة الشريفة الحسب والنسب بالعلامة المسيحى أوريجانوس ، الذى علمها حقائق النصرانية فآمنت بالإله الواحد ، ونذرت عفتها له .

ولما عزم أبوها على أن يزوجها بأمير من أمراء بلدتها ، اعتذرت بأدب ولطف ، بحجة أنها تريد أن تخدمه بعد أن بلغ من العمر عتياً ، ثم بنى لها والدها حماماً فحولته بيتاً للصلاة . بعد أن فتحت فيه ثلاث كوات على اسم الثالوث الأقدس ، وأخيراً علم والدها بسر تنصرها ، فأخذ يذيقها من صنوف العذاب أشكالاً وألواناً لعلها ترتد عن النصرانية ، ولكن بدون جدوى ، وأخيراً فرت إلى الجبال فلحق بها ، ولما أدركها قتلها بحد سيفه ،

وعند عودته إلى البيت ، وكان الجو جميلاً ، انقضت عليه صاعقة أماتته لساعته ، وما فتىء المسيحيون يحتفلون بعيد هذه الشهيدة القديسة فى الرابع من كانون الأول (ديسمبر) من كل سنة .

وقرية البرباره هى مسقط رأس الشاعر القروى – رشيد الخورى – نزيل البرازيل اليوم الذى يفيض شعره شوقاً وحنيناً إلى لبنان .

حدث الجبة

وبعد أن زرنا مقام هذه الشهيدة العظيمة ، استأنفنا رحلتنا إلى حدث الجبة ، القرية العريقة فى القدم ، وتقع على رابية تعلو سطح البحر بمقدار ١٤٥٠ متراً ، بها غابات الشربين والصنوبر والأرز ، وقد أخبرنا العم أبو طنوس بأن الملك الظاهر بيبرس قد هدمها ، ونكل بأهلها ، وأعمل السيف فى رقابهم ، عند ما زحف بجيش جرار لمحاربه الروم لأنهم ناصروهم عليه .

ومناخ هذه القرية صحى ، وهواؤها جاف ، ينابيعها عذبة باردة ، ومناظرها الطبيعية التى تكتنفها لا تمل العين من النظر إليها . حقاً ان كل بقعة من بقاع الشمال يتمثل فيها الجمال .

حصرون

كانت الشمس على وشك المغيب عند ما بلغنا حصرون ، وهى من أجمل مصايف لبنان الشمالى وأشهرها ، وتقع على كتف وادى قاديشا

مناخها صحى ، وماؤها بارد عذب ، ترتفع عن سطح البحر بمقدار ١٤٠٠ متر ، وتبعد عن بيروت بمقدار ١٢٠ كيلو متراً ، تحيط بها حدائق الفاكهة ، وكروم العنب والتين والغابات ذات الأشجار الكثيفة ، وهى البقية الباقية من تلك الغابات التى كانت تكسو بقاع الشمال .

قضينا ليلتنا فى أحد فنادقها ، فسرنا ما لقينا من حسن المعاملة ، وكرم الضيافة ، التى يتصف بها أهل الشمال . وفى صباح اليوم التالى وكان يوم أحد ، بعد أن تناولنا طعام الإفطار ، أزجى ركابنا إلى الديمان وسط القرية ، فرأينا جماً غفيراً من الناس يسير فى الطريق العام ، يتقدمهم أسقف بملابسه الأرجوانية الزاهية ، يزين صدره صليب ذهبي ، وكانت غاية الجميع كنيسة القرية لسماع صلاة القداس ، فراق هذا المشهد فى عيوننا ، وأكبرنا تدين القوم والتفافهم حول زعيمهم الروحى . فذكرنا هذا المشهد بما كان عليه لبنان فى الماضى ، يوم أن كان الرئيس الدينى فى القرية هو بمثابة الزعيم فيها .

الديمان والقصر البطريركى

ولما وصلنا إلى الديمان المقر الصيفى لغبطة البطريرك المارونى فى طريق بطيئة الانحدار تتفرع من الطريق العام ، شاهدنا جمعاً حاشداً من الناس فى فناء القصر الذى يتوسطه فسقية ماء ، قد تدلت فوقها أغصان الأشجار اتخذ بطاركة الطائفة المارونية الديمان مصيفاً لهم منذ ستين سنة خلت

بعد انتقالهم من دير قنوبين القائم على شفير فى بطن وادى قاديشا ، وقد قابلنا كهنة الديمان استقبالاً حسناً ، حتى إن أحدهم ، لما عرف أننا غرباء تفضل بمرافقتنا فى ردهات القصر ، وأخذ يشرح لنا كل ما تقع عليه عيوننا ، ولما بلغنا البهو الكبير ، لفت نظرنا وجود صورة زيتية كبيرة للمغفور له الملك عبد الله ، ملك شرق الأردن ، معلقة فى صدر البهو ، فسألت الآنسة سلوى الكاهن عن معنى وجود صورة ملك أرضى زمنى مع صور أشخاص تجردوا لخدمة ملك أزلى .

ابتسم الكاهن من هذه الملاحظة الدقيقة وقال :

- كان المغفور له الملك عبد الله صديقاً حميماً لغبطة البطريرك ، فأهداه صورته عربوناً لهذه الصداقة ، فأمر غبطته بأن تعلق فى صدر هذا البهو ، وهو المكان الأكثر لياقة لها ؛ ولست أنت يا آنسة أول من سأل هذا السؤال .

شكرنا للكاهن الفاضل لطفه وكرم أخلاقه ، وبينما نحن نهم بوداعه ، لمحنا غبطة البطريرك بملابسه الأرجوانية الزاهية يذرع سطح الدير الذى يشرف على الوادى المقدس ، فأبدت الآنسة سلوى رغبة ملحة فى مقابلته لالتماس البركة ، ولاسيما بعد أن عرفنا أنه قد باع صليبه الذهبى فى الحرب الكبرى الأولى ليطعم بثمنه فقراء أبرشيته ، غير أن الكاهن الفاضل ، الذى لم يشأ أن يزعجه ويعكر عليه صفو وحدته واختلائه بربه فى مثل هذا الوقت من النهار ، اعتذر لنا بلطف ، فاكتفينا عندئذ بأن تزودنا منه بنظرة خاطفة . وقفنا على رابية نجيل الطرف بالوادى المقدس فإذا منظره رهيب لشدة عمقه

الذى يبلغ نحو ٥٠٠ متر ، ولانحداره السريع ، حتى ليخال للمرء أنه واقف على جرف هار بعيد الغور ، وقد انتصبت على جانبيه جبال عالية كستها الأشجار الباسقة ، كما رأينا تحت القصر ، حديقة ملأى بأشجار الفاكهة والتين ودوالى العنب، فذكرتنا رؤية هذا الوادى من بعيد ما قاله عنه الراهب الفرنسيسكانى جان بوشيه الذى زار دير قنوبين سنة ١٦١٢ .

«هبطنا إلى الدير فى وهاد صخورها صلدة ، سريعة الانحدار ، يكفى النظر إليها لإلقاء الرعب فى النفوس . وكان نزولنا محفوفاً بالخطر والخوف ، ولما وصلنا إلى مقر البطريرك ، كانت قلوبنا تخفق من شدة التعب والخوف وقد لاحظ غبطته علينا ذلك ، من وجوم وجوهنا ، والصمت الذى عقد ألسنتنا ، فأمر بأن يقدم لنا فى الحال نبيذاً . بحيث ما كدنا نتناول أول جرعة منه ، حتى عاودنا نشاطنا ،ودبت الحياة من جديد فى نفوسنا .»

قرية بشرى

كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة بقليل عند ما انطلقت السيارة بنا صعوداً إلى قرية بشرى، ومعناها بالفينيقية بيت الشرى ، وهى من أكبر قرى لبنان الشمالى ، وتشرف كباقى القرى الأخرى على الوادى المقدس غربى غابة الأرز الواقعة عند سفح جبل المَكْمَل .

ويبلغ ارتفاع بشرى عن سطح البحر بمقدار ١٤٥٠ متراً ، وتبعد عن بيروت بمقدار ١٢٥ كيلو متراً جوها جاف ، وماؤها عذب بارد ، ومناخها

جبلى صحى ، فيها كثير من البساتين اليانعة ، والحدائق التى يرويها الماء المتدفق من مغارة قاديشا . وبشرى هى مسقط رأس فقيد العروبة الكاتب الكبير جبران خليل جبران ، فكان مولده فيها فى السادس من شهر ديسمبر سنة ١٨٨٩ وقد ترك له فيها ذكريات خلدها فيما نظم ورسم وكتب .

على ضريح جبران

وبينما كانت السيارة تدلف بنا فى طريقها إلى الأرز ، لمحنا لافتة كتب عليها عبارة اهتدينا بها إلى الطريق الموصل إلى متحف وضريح جبران ، فتركنا سيارتنا فى الطريق جانباً ، وسرنا فى دروب ضيقة وعرة وسط الأشجار الباسقة ، ينبجس الماء من صخورها القائمة على الجانبين ، فيسيل إلى غير غاية . ولما وصلنا إلى ربوة عالية شقت فى وسطها طريق ضيقة ، اجتزناها بخوف وحذر ، إلى دير مار سركيس وهو عبارة عن كنيسة صغيرة قديمة منقورة فى قلب صخر تطل على وادى قاديشا المهيب ، وتكتنفها الأشجار من جميع نواحيها ، فدخلناها بخشوع فإذا فى ركن منها تابوت غاية فى البساطة ، يحتوى على جثمان جبران ، وقد علقت فوقه صورة مكبرة له ، بدت على محياه فيها علامات الحزن والتفكير العميق .

فى أى شىء كان يفكر جبران يا ترى ؟ إنه كان يفكر بلا شك فى هذه الحياة ، وفيما وراء الحياة .

أجل ، إن الحياة تتدفق من هذه الصورة ، التى يحدق صاحبها بعينيه الواسعتين فى الزائرين ، وكأنى به يرحب بهم ، ويرجو لهم طيب الإقامة فى

ربوع الشمال ، التى نزح عنها ومات وهو يهجس بذكرها ، إن جبران مات ، ولكنه حى بمؤلفاته العديدة ، ورسوماته الكثيرة التى أودع فيها أفكاره الفلسفية العميقة ، وبعد أن وقفنا مدة أمام تابوته مترحمين عليه ، وقد عقد المنظر الرهيب ألسنتنا ، سألنا حارسة القبر وهى سيدة لطيفة متوسطة العمر ، مليحة الشكل ، قوية البنية ، لماذا دفن جبران فى هذه البقعة بالذات ؟ فأجابت قائلة : تلك كانت وصيته قبل وفاته .

ولكن سلوى التى شغفت بأدب جبران ، تداركت الموقف وقالت :

— قرأت عن جبران ، رحمه الله ، أنه كثيراً ما كان يترك مدرسة القرية فى صغره ، ويأتى إلى هذه البقعة الهادئة الجميلة ، وكان يلذ له الجلوس على صخورها الصماء التى تشرف على قرية بشرى ووادى قاديشا ، فيخلو إلى نفسه ، ويتأمل فى عظمة الطبيعة وما فيها من قوى كامنة ، وفى جمال هذا الوادى وما يحويه من روعة وفتنة ، فتركت تلك المناظر الخلابة فى نفس جبران الصبى آثاراً من كل ما رأى ، كما سجل خرير الماء المنساب من أعالى الجبال فى قلب الوادى ألحاناً شجية ، كان يصغى إليها جبران وهو يستمع إلى همسات قلبه ، وخلجات فؤاده ، حتى إذا اكتملت له تلك الأنغام ونضجت فى مخيلته تلك التصورات راح ينشرها على الملأ بقلمه السيال بشكل فلسفى ، وأسلوب أخاذ ، قد انفرد به دون غيره من الكتاب يشعر كل من يقرأه بجمال ما اغترف من مؤونة ، كفته عمره فى غربته ، وكان كعمر الورود فى قصره .

أجل فى هذه البقعة الهادئة من لبنان ، شاءت الأقدار أن يرقد جبران .

حدشيت وأسطورتها

مررنا فى طريقنا بحدشيت الضيعة الصغيرة ، المعلقة ببيوتها المتواضعة فوق صخور وادى قاديشا ، يحيط بها الأشجار ، والصخور ذات الأشكال الجميلة ، وتقع غربى قرية بشرى . فشاهدنا فيها كثيراً من المغاور المنقورة فى قلب الصخور ، كان النساك قديماً يتخذونها مأوى لهم .

وبينما كانت سيارتنا تتابع سيرها نحو الأرز ، راح العم أبو طنوس يحدثنا عن منشأ هذه القرية فقال :

ـ إن حدشيت لفظة سريانية معناها ، إحدى الستة ، وسبب تسميتها بهذا الاسم يرجع إلى الأسطورة التاريخية الآتية :

كان الملك بطليموس الخامس مشهوراً من صغر سنه بسوء سلوكه وقبح سيرته وظلمه لرعيته ، وكان لا يتورع عن ارتكاب أى محرم فى سبيل قضاء شهواته واتباع رغباته الجامحة ، إلى أن كرهته رعيته .

فظهرت له الإلهة أفروديت فى الحلم ثلاث مرات متتالية ، كانت تقول له فى كل مرة ، إذا رغبت فى أن تكفر عن خطاياك ، وتقلع عن سيرتك وترضينى وترضى الآلهة ، فعليك أن تبنى لى هيكلا فى جبل لبنان العظيم ، وكذا لأولادى الستة .

طلب بطليموس فى المرة الثالثة من الإلهة أفروديت ، أن تبين له المكان الذى ترغب فى أن يبنى لها هيكلا فيه .

فقالت له: ضع تمثالى على ظهر ناقة ، وأرسل وراءها أحد وزرائك الذين تضع فيهم ثقتك ، وفى المكان الذى تبرك فيه الناقة من تلقاء ذاتها ، ابن لى هيكلا ، وافعل هكذا مع أولادى الستة .

استدعى بطليموس فى صباح ذلك اليوم أحد وزرائه ، وقص عليه الحلم ، وعهد إليه القيام بهذه المهمة ، فوضع الوزير تمثال أفروديت فوق ظهر ناقة ، بعد أن زينها بالجواهر النفيسة ، والحلى الغالية الثمينة ، فأخذت تطوى فى سيرها الصحارى والقفار ، حتى وصلت إلى جبل لبنان ، فبركت من تلقاء نفسها فى فقرا الواقعة بجوار نبع اللبن ، فوق مزرعة كفر دبيان ، فعندئذ شرع الوزير فى بناء هيكل عظيم عجيب فى بنائه ، تعلوه قبة من النحاس الأصفر الموشى بالذهب ، كان ظلها يمتد حتى يصل إلى عجلتون ، وقد ضاعت اليوم معالم هذا الهيكل ، وبقيت آثاره تشاهد فى هذه البقعة حتى يومنا هذا ، ثم بنى بعد ذلك هيكلاً للإلهة أرطاميس الذى يقوم اليوم على أنقاضه دير سيدة طاميش للموارنة ، وقد مر ذكره ، ثم بنى هيكلا ثانياً للإله بللون فضاعت معالمه وأقيمت على أنقاضه قرية بللونه ، ثم هيكلا ثالثاً للإله عجلون ، وتقوم اليوم على أنقاضه قرية عجلتون وهيكلا رابعاً لرافان وتقوم على أنقاضه قرية ريفون ، ثم هيكلا خامساً فى جبة المنيطرة قرب قرية أفقا بجانب نهر إبراهيم ، فاندثرت آثاره وضاعت معالمه ، وكان هذا المعبد مركزا لارتكاب المنكرات وإتيان المحرمات ، وقد هدم الملك قسطنطين الكبير هذا الهيكل ، وبنى مكانه كنيسة على اسم العذراء ، والسادس فى قرية حدشيت ، وقد تقوضت أركانه اليوم ، وأقيم مكانه

كنيسة تحمل اسم القديس رومانوس ، أخبرنا أحدهم ، عند زيارتنا لها بأنهم وجدوا عند ترميمها تمثالا من الرخام جميل الصنع ، فكسروا رأسه ووضعوا جسمه فى أساس الحائط .

تلك هى قصة الأسطورة الشائقة ، التى أتحفنا بها العم أبو طنوس عن قرية حدشيت ، التى يمتاز نساؤها بجمال شكلهم ، وقوة بنيتهم ، ولطفهم ولا يضارعهم فى الجمال إلا نساء حصرون وبقية نساء جميع قرى شمال لبنان .

الفصل السابع

أرز لبنان

وقفت بنا السيارة أمام غابة الأرز التاريخية المعروفة « بأرز الرب » التى تغنى بجمالها الكتاب المقدس ، وترنم بذكرها أنبياء العهد القديم ، وكثير من الكتاب والشعراء الملهمين ، القدامى منهم والمحدثين ، فقد كنا فى أشد الشوق إلى رؤيتها لكثرة ما سمعنا عنها ، وما قرأنا بشأنها من أنها قطب الجاذبية لكثير من السائحين ، الذين يفدون إلى لبنان ، للتنزه والاستجمام.

وتقع هذه الغابة الفاتنة التى تعلو سطح البحر بمقدار ١٩٥٠ متراً وتبعد عن بيروت بمقدار ١٢٥ كيلو متراً على رابية فى جبل المكمل عند سفح قمة ظهر القضيب ، التى هى مع قمتى قرنة السوداء وفم الميزاب ، من أعلى قمم جبال لبنان ، فيبلغ ارتفاع الواحدة منها ٣٤٠٠ متر ، فرأيناها محاطة بسياج من الأسلاك الشائكة ، قد رفعته الحكومة اللبنانية فوق سور حجرى ، كان قد أقامه رستم باشا أحد متصرفى جبل لبنان السابقين ، ويقوم على حراسة هذه الغابة ، حراس معينون من الحكومة للضرب على أيدى أولئك الذين تحدثهم نفوسهم بالعبث بها ، أو الإساءة إليها ، بقطع أغصان من أشجارها الباقيات ، وعددها اليوم نحو ٤٥٠ شجرة ، ما بين كبيرة وصغيرة .

كان الفينيقيون فى الماضى ، يصنعون من خشب الأرز الذى كان يكسو جبال لبنان ، سفنهم التى حملت من شواطئهم مجدهم ، ونقلت إلى جميع أقطار العالم حضاراتهم ، وعلمهم وفنهم ، ويخبرنا الكتاب المقدس بأن سليمان الحكيم الملك ، قد شغل ألوفا من الأيدى العاملة فى قطع شجر الأرز من أحراش لبنان ، لبناء هيكله العظيم فى أورشليم ، كما أن البابليين والأشوريين والمصريين القدماء قد استخدموا هذا الشجر فى صنع سفنهم ، وعمل أثاث بيوتهم ، وإعداد توابيت موتاهم ، وبناء هياكل آلهتهم ، اعتقاداً منهم أن الفساد لا يتطرق إليه ، ولا يجرؤ السوس على أن يتخذ له مأوى فيه ، ولذا اعتبره القدماء إلهاً اتخذ له شكل الشجر .

ويعتبر الأرز ملك أشجار الفصيلة الصنوبرية ، وأشرف أشجار الدنيا أصلا ، وأكرمها نوعاً ، وفروعه الدائمة الاخضرار ، وأغصانه الغبياء الظل قوية غليظة ، تمتد امتداداً أفقياً على جانبيها ، تقصر كلما طالت الشجرة وعلت أصولها ، وقربت الفروع من قمتها ، فيكون للشجرة شكل مخروطى ذات منظر رائع فاتن ، يأخذ بمجامع القلوب . وقد قسنا محيط ساق شجرة على سبيل الاختبار ، فوجدناه ١٦ متراً تقريباً وارتفاعها أربعين متراً

ويطرح شجر الأرز ثمراً بيضاوياً يشبه كوز الصنوبر فى شكله ، إنما لا يؤكل ، ويبقى عالقاً فى أمه الشجرة إلى أن يجف وييبس وتتفتح مسامه ، فينثر على الأرض ما فيه من بذور تدفنها الثلوج فى جوفها ، ثم لا تلبث أن تنمو رويداً رويداً حتى تصبح شجرة ذات أصول ، وقد رأينا كثيراً من هذه الشجيرات النامية ، ويبلغ عمر بعضها عشرات السنين ، ومع ذلك ما فتئت أغصانها الصغيرة تلامس الأرض ، لبطء نمو هذا الشجر .

أرزة لامارتين

دخلنا الغابة التاريخية برفقة أحد الحراس ، فأحسسنا بداخلنا برهبة وخشوع عند ما ولجنا بوابة من خشب حقيرة ، لا تتناسب مع عظمة الأرز ، ولا تليق بأن تكون مدخلا لذلك الهيكل المقدس ، الذى هبطنا إليه فى سلم حجرى قد تآكلت بعض أجزائه ، وكان النسيم العليل يهدهد أغصان الأشجار الجبارة برفق ولين ، ويسوس لها بأحاديث يذكرها فيها بالقوم الغابرين ، ويحدثها عن القادمين ، فكانت تلك الأغصان تعلو وتهبط ببطء كأنها فلك تؤرجحه الأمواج فوق صفحات بحر تعبث بمائه الرياح ، ولما أوغلنا فى الغابة بعد صعود ، أخذ الحارس يشرح لنا تاريخ كل شجرة من تلك الأشجار ، وما اقترنت به من أحداث ، ولما بلغنا أرزة ضخمة الساق ، شامخة الارتفاع ، وقف الحارس أمامها وقال :

ـ هذه أرزة لامارتين ، الشاعر الفرنسى الشهير ، الذى زار هذه الغابة سنة ١٨٣٢ فانظروا إلى اسمه فقد نقشه على جذعها ، كما نقش اسم ابنته جوليا التى كانت ترافقه فى رحلته تخليداً لهذه الزيارة .

أرزة الناسك

وسار بنا الحارس قليلا إلى أن وقفنا أمام شجرة أرز مجوفة فقال :

ـ وهذه أرزة الناسك ، ويبدأ تاريخها من اليوم الذى دب فيه الخلاف

بين أمير من أمراء العرب ، وبين ذويه فترك الإمارة وأبهتها ، وقصر والده وعظمته ، وزهد فى العالم ومسراته ، وأخذ يضرب فى مناكب الأرض ، ويطوف فى بلاد الله الواسعة ، إلى أن حط رحاله فى هذه البقعة المباركة من لبنان الشمالى ، وذلك منذ مئات الأعوام .

كان الوقت صيفاً ، والجو جميلا ، والهواء عليلا ، فطابت له الإقامة فى رحاب هذه الغابة ، ولكى يتقى هذا الأمير خطر الوحوش الضارية ، التى كانت تملأ غابات لبنان فى ذلك الزمان ، نقر له مأوى فى جذع هذه الشجرة كما تشاهدون ، وأقام فيها يأكل من المنّ الذى كان يهبط عليه من السماء ، ويشرب من ينبوع انبثق من جذع الأرزة المجاورة .

اقتربنا من الأرزة الأخيرة وتلمسنا الماء فى جوفها ، فإذا هو حقيقة واقعة ، غير أن الدكتور خليل قد علل وجود الماء فى تلك الأرزة اليابسة ، إلى ذوبان الثلج وتسرب مائه فى الأرض وامتصاص جذع تلك الشجرة له .

كنيسة فى غابة

سرنا مسافة أخرى ، فرأينا فى الجهة الشمالية من الغابة المقدسة كنيسة صغيرة ، تقوم على رابية فيها ، هى مزار لجميع رواد غابة الأرز على اختلاف أديانهم ومذاهبهم ، بناها الطيب الذكر البطريرك يوحنا الحاج منذ سبعين سنة تقريباً ، وقد صنعت جميع نجارتها وهيا كلها من خشب الأرز .

ويغمر هذه الكنيسة الثلج فى أيام الشتاء ، كما يلبس أشجار الأرز



كنيسة فى غابة الأرز يحج إليها الناس من جميع المذاهب

وفروعه وشاحاً ناصع البياض ، فتظهر كأنها تماثيل جبارة ، ذات سواعد قوية قائمة فى سفح ذلك الجبل الأشم ، تهزأ بعاديات الدهر ، وتسخر بالعواصف التى لم تقو على تقويض أغصانها الشامخة ، فتصبح تلك البقعة وما يجاورها كصفحة ملساء بيضاء ، كتبت يد الطبيعة سطورها بمداد خفى هو خليط من بكاء الشتاء وزفرات الخريف لا تلبث أن تمحوها شيئاً فشيئاً شمس آيار الدافئة ، فتبتسم لها الحقول بعد عبوسها ، وتترنم الوديان بعد جمودها ، ويغرد الطير فوق الأفنان ، كما يهرع الإنسان بدوره بعد غياب طويل إلى بقعة الأرز الخالدة الرابضة كالأسد فى سفح أعلى قمم جبال

لبنان ، يعمل فيها فأسه ، ويزرع الحب ويرجو الثمار من الرب .

يا لجمال الأرز ويا لعظمته ! ! إن روح لبنان تتمثل فيه ، فلذا اتخذه اللبنانيون شعاراً لهم وزينوا به وجه رايتهم المحبوبة التي هي آية مجدهم وعنوان عظمتهم .

فهذه الأشجار الخالدات ، بل التماثيل الحية ، كما قال عنها لامارتين هي رمز القوة ، وعنوان العظمة ، يرنو الكتاب والشعراء دوماً بأبصارهم إليها ليستلهموها ما ينشدون ، وهي الصامتة في علياء مجدها ، وفي صمتها الفصاحة والبلاغة والبيان ، وليستوحوا منها الهدوء والصبر على الشدائد ، وفي هدوئها الحركة الدائمة ، وفي صبرها الثبات على محن الدهر ، ما استقبلت أغصانها شمس الصباح .

شهد الأرز غزوات الفراعنة واليونان والفرس والرومان والعرب والترك ، رحل عنه جميع هؤلاء ، أما الأرز فباق في مكانه ، خالد خلود الدهر ، يحرس من أعلى قمة ظهر القضيب لبنان أكثر من أربعة آلاف عام .

وبينما تغمرنا موجة من ذكريات الماضي البعيد ، أعادت إلى أذهاننا أمجاد الأرز الخالد ، يوم كان يملأ تلك البقاع ، ويتوج بلونه السندسي قمم جبال لبنان ، قبل أن يكون صفحة من صفحات التاريخ ، وإذا بصوت النبي حزقيال يرن في آذاننا ، فيتجاوب رنينه في أودية الزمن السحيق .

«هوذا أرزة بلبنان ، أرزة بهيجة الأفنان ، غبياء الظل ، شامخة القوام ، قد عظمتها المياه ، وجرت الأنهار من حول مغرسها ، فأرسلت مجاريها إلى جميع أشجار الصحراء ، فارتفع قوامها فوق جميع الأشجار ، وكثرت

أغصانها وامتدت فروعها من كثرة المياه .

في أغصانها عششت جميع طيور السماء ، وتحت فروعها ولدت جميع وحوش الصحراء ، وفى ظلها سكنت الأمم الكثيرة ، فصارت بهيجة فى عظمتها وفى طول عذباتها ، فغارت منها جميع أشجار عدن التى فى جنة الله . »

فسلام عليك وألف سلام يا أرز لبنان ، أرز الأجداد البهيج الأفنان

المصعد الكهربائى

استرعى نظرنا فى غابة الأرز المصعد الكهربائى المعلق ، وهو عبارة عن كرسى مربوط ربطاً محكماً فى أسلاك ، ينقل الراكب فيه إلى قمة جبل المكمل التى يكلل الثلج هامتها ، لقاء بضعة قروش فى دقائق معدودات .

ارتقينا هذا المصعد ، فسار بنا معلقاً فى الفضاء ، بين الأرض والسماء ، ماراً فوق الأشجار الباسقة الأغصان ، والوديان العميقة ، والجبال الشامخة الارتفاع ، حتى خيل إلينا أننا فى الطائرة بين القاهرة ولبنان ، ولما بلغ المصعد غايته ، هبطنا منه فرحين ، فرأينا لأول مرة فى حياتنا الثلج على الطبيعة الحافلة بآى السحر والجمال ، وبعد أن مكثنا مدة طويلة ، وتزودنا بنظرات من فيض بهاء الثلج الناصع البياض ، عدنا أدراجنا إلى الفندق ، وجمال منظر الثلج لا يبرح من خيالنا .

وفى جلسة مع أحد مهندسى الحكومة المشرفين على أعمال الطرق قال :

— إن الحكومة اللبنانية قد أنشأت أخيراً طريقاً جديداً ، يربط الأرز

ومنطقة لبنان الشمالى و بعلبك وسهل البقاع وزحلة ، وقد شق هذا الطريق الذى يعتبر من أروع الأعمال الهندسية ، فوق قمم الجبال العالية ، وعلى حواشى الوديان العميقة .

جولة فى وادى قاديشا

تركناغابة الأرز بعد أن قضينا فيها زهاء أربع ساعات ، ونحن نتنقل فى أرجائها بين هبوط وصعود ، لم نكن نقوى على مفارقتها مسحورين بجمالها ، مأخوذين بروعتها ، وذهبنا إلى الفندق الذى يطل عليها حيث استرحنا ، وقضينا فيه ليلة كانت غرة فى جبين الدهر ، فشاهدنا القمر يطلع من وراء الجبال التى يتوج قممها الثلج ، حتى إذا استقر فى الرقعة الزرقاء ، أرسل أشعته الفضية على الغابة التاريخية ، فتسللت خلسة من بين أفنان الأشجار ، فبانت لها نقوشاً على الأرض من أبدع ما خطته يد إنسان .

أعجبت الآنسة سلوى بهذه النقوش ، وهى الأديبة الفنانة ، فتناولت ورقة وقلماً وأخذت ترسم بعضها كى تستخدمه فى أعمال التطريز ، وهكذا قضينا ليلتنا فى ذلك الجو الساحر ، الذى أحسسنا فيه أننا ندنو من الخالق عز وجل بقلوبنا ، التى تلقنت من الأرز الخالد درساً فى الجمال حدا بنا إلى أن نتساءل ، هل نحن فى حلم أم فى يقظة ؟

وفى هدأة الفجر غادرنا الفندق بصحبة شاب من شباب الشمال الأشداء ، تكرم بمرافقتنا مشكوراً إلى وادى قاديشا الفاتن ، فتقدمنا وتبعناه

بحذر مترسمين خطاه فى طريق سريعة الانحدار ، كثيرة المهاوى والوهاد السحيقة ، يكفى النظر إليها لإلقاء الرعب فى نفس أشجع الشجعان .

دير سيدة قنوبين

وقد لعنت الأديبة سلوى فى أثناء انحدارنا إلى الوادى ، الساعة التى ألحت علينا فيها بالمجىء معنا ، وبعد سير يقرب من ثلاث ساعات ونحن نستريح مرة ونتابع سيرنا أخرى فى دروب وعرة ، ومسالك ضيقة ، ونهبط فى سلالم من الحجارة قد نحتها النساك فى الصخور من قديم الزمان ، فيها جمال وفيها روعة ، تحف بنا الكهوف والمغاور المنقورة فى الصخور على الجانبين ، وكانت فى الماضى مأوى للنساك والحبساء ، وصلنا إلى دير سيدة قنوبين الشهير ، وهو دير قديم يقع أكثره فى داخل مغارة ، نبتت الأعشاب حول جدرانه ، فلم نر فيه أثراً للحياة ، بعد ما كان فى الماضى حافلا برجال الدين الذين كانوا يضفون عليه ألواناً بهيجة من الحياة .

وقد أخبرنا الشاب المرافق لنا ، بأن بانى هذا الدير هو الملك ڤلاڤيوس تاوذوتيوس الكبير سنة ٣٩٥ فى القرن الرابع الميلادى ، وقد اتخذه بطاركة الطائفة المارونية مقراً لهم ، ومركزاً حيوياً لطائفتهم حقبة طويلة من الزمن ، انتهت بانتقالهم إلى مقرهم الحالى فى الديمان ، منذ ستين سنة خلت تقريباً .

وقد شاهدنا فى معبد صغير يبعد قليلا عن المغارة التى عاشت فيها

القديسة مارينا البتول ، توابيتا بوضع عمودى ، تحوى رفات ثمانية عشر بطريركاً من بطاركة الطائفة المارونية ، الذين قضوا نحبهم من زمن بعيد، كما شاهدنا صومعة منقورة فى صخر ، سقفها واطىء ، ومدخلها ضيق ، فيها كوة تطل على الكنيسة ، حيث كان البطاركة والمطارنة والقسوس ، يقضون الليل فى الصلاة على ضوء مصباح ما فتئت آثاره موجودة حتى يومنا هذا فى كوة فى تلك الصومعة .

ويقوم على حراسة دير سيدة قنوبين ، الذى يخيم عليه اليوم السكون والهدوء ، كاهن شيخ جليل قال لنا :

— إن الأساقفة والنساك ، الذين كانت تطيب لهم الإقامة فى هذه البقاع ، بين الصخور والأدغال ، كانوا يفلحون الأرض ، ويزرعونها بأيديهم ، لكسب قوتهم ، ويرتدون الملابس الخشنة ، وينتعلون الأحذية البدائية فى صنعها ، ويزينون صدورهم بصلبان صنعوها من خشب الأرز ، فكانت الصلبان التى تتدلى على صدورهم ، أثمن بكثير ببساطتها من الذهب الإبريز . نعم كانت صلبان أولئك الأساقفة من خشب ، وإنما قلوبهم كانت من ذهب .

دير مار أنطونيوس قزحيا

وبعد أن طفنا فى جميع أرجاء دير سيدة قنوبين ، زايلناه إلى دير مار أنطونيوس قزحيا ، ومعنى قزحيا ، كنز الحياة ، لكثرة ما يجرى فيه

من المعجزات والخوارق على يد صاحب المقام القديس أنطونيوس الكبير الذى قضى حياته فى قفار مصر .

ويقع هذا الدير فى الجهة الشمالية فى سفح وادى قاديشا . وقد رأينا أن أكثر مبانيه الأثرية التى يرجع تاريخها إلى ألف سنة تقريباً ، فى داخل صخور ومغاور . أما كنيسته ، فهى عبارة عن مغارة منقورة فى الصخر ، يقيم فيها المجانين ، الذين يرسلون إليه طلبا للشفاء فيتلو رهبان هذا الدير صلوات على رأس المريض ، حتى يتم له الشفاء .

وقد بالغ هؤلاء الرهبان الذين لمسنا فيهم طيبة القلب ، والزهد فى أمجاد هذه الحياة ، ومعيشة التقشف ، فى إكرامنا ، والترحيب بنا ، وقدموا لنا نبيذاً طيب المذاق . من العنب الخالص ، كما أهدانا رئيسهم تذكارات دينية من الدير ، اتخذناها أحجبة تقينا خطورة الطريق فى عودتنا .

ويعتبر وادى قاديشا مهد الطائفة المارونية ، فإليه لجأ المسيحيون الذين التفوا حول القديس مارون فى وادى نهر العاصى فى سوريا ، تخلصاً من اضطهاد اليعاقبة لهم ، وقد كان شمال لبنان وقتئذ غير آهل بالسكان ، بل كانت الغابات الكثيفة ، تكسو جميع بقاعه .

مغار قاديشا

عدنا من وادى قاديشا إلى حصرون بعد الظهر ، وكان التعب قد أنهك قوانا ، فلم نتمكن من متابعة رحلتنا ، فقصدنا فندقاً أثرنا أن نقضى

فيه بقية يومنا ، حتى إذا أصبحنا ، نهضنا أوفر نشاطاً ، فغادرناه إلى مغارة قاديشا رأساً ، وتقع فى لحف جبل الأرز حتى إذا بلغنا الطريق المؤدية إليها قبيل الظهر ، تركنا سيارتنا جانبا ، وترجلنا فى طريق ضيقة وعرة محفورة على حواشى الجبال ، لا يسلم من يسلكها من التعرض للأخطار ، وكانت هذه الطريق تضيق أحياناً ، حتى يكاد الجبل المنتصب فوقنا يلامس رؤوسنا ، وتتعرج حيناً آخر ، لنقف فيها ونشاهد الوادى العميق تحت أقدامنا .

ولما أشرفنا على المغارة ، وهى إحدى عجائب الطبيعة ، سمعنا هديراً قوياً ، ثم رأينا جموعاً حاشدة من الناس تملأ الساحة التى أمامها ، وقد استهوى الجميع جمال الحديث عنها ، فأتوا لزيارتها . ولما مثلنا أمام مدخلها ، ورأينا الماء الغزير الذى يتدفق منها ، وقفنا برهة ونحن نحدق النظر فى داخلها ، وقد عقد الدهش ألسنتنا من فرط روعتها وجمال ما نرى .

قصة اكتشافها من الداخل

وقف العم أبو طنوس فى وسطنا كعادته ، وما كاد يتدفق فى الحديث عن هذه المغارة العظيمة ، حتى التف حوله جميع الزائرين ينصتون إليه فقال :

ـ إن اكتشاف ما فى داخل هذه المغارة المعروفة منذ القديم ، يرجع إلى زمن ليس ببعيد ، وذلك عندما فكر الشيخ شبيعه أحد أعيان قرية

بشري ، والمنسنيور خوري ، في أن يكتشفا داخلها ويبلغا إلى قرارة منبع الماء المتدفق منها ، فسمعا هديراً من الداخل يصم الآذان ، فنقرا الصخر بمعاونة بعض العمال من ناحية مصدر الصوت فأحدثوا فيه فجوة تتسع لدخول رجل واحد . ما كاد يدخل فيها حتى عاد أدراجه جزعاً ، وقد تملكه الفزع من شدة الأصوات المنبعثة منها ، ثم دخل عامل آخر بعد ما استعان بحبل متين أمسك رفاقه بطرفه ، وأمسك هو بالطرف الآخر ، وحمل مصباحاً ينير له ظلمات المغارة ، فما كاد يدخل ويجيل الطرف فيما حوله ، حتى رأى نفسه كأنه في معرض يحوى تماثيل من المرمر تدلت من سقف المغارة ، فخرج وهو مأخوذ بجمال ما رأى ، ولسان حاله يقول : إن ما في داخل اهذه المغارة لم تره عين ولم تسمع به أذن ، ذلك كان أول اكتشاف لها من الداخل منذ ربع قرن من الزمان تقريباً .

ثم وسعت المغارة بعدئذ ، وأضيئت جنباتها بالأنوار الكهربائية الساطعة ، بعد أن تم مشروع توليد الكهرباء من المياه المتدفقة منها في قناة حفرت في لحف الجبل بطول ٩٥٠ متراً ثم هوت بأنبوب ضخم إلى قاع الوادي حيث بنت شركة قاديشا الوطنية للإنارة والكهرباء ، مصنعاً لتوليد التيار الكهربائي وهو يغذي اليوم مدينة طرابلس وجميع قرى الشمال

المتحف الرباني

دخلنا المغارة بعد هذا الحديث الشائق عنها في طريق صخري كلسي يملأ قلوبنا الخشوع ، كأننا في معبد مقدس له حرمته وجلاله ، ولما أوغلنا

داخلها وشعرنا ببرودة الجو الذى يكتنفنا ، رأينا فيها عجباً ، رأينا جميع المناظر التى تعيها ذاكرتنا مثل الأهرامات ، وأبى الهول بأنفه المبتور رابضاً فى مشارف صحراء الجيزة ، كما شاهدنا منظراً يشبه توت عنخ آمون مسجى فى تابوته بالحالة التى رأيناه فيها فى دار الآثار المصرية منذ سنوات ، وسوى ذلك من المناظر التى كنا نتخيلها ، فكانت تظهر أمامنا بوضوح .

وقد لفت نظرنا الدكتور خليل ، إلى منظر يشبه جامع آيا صوفيا فى استانبول ، ومآذن الجامع الأموى فى دمشق ، وهى كالعرائس تنجلى فى شكلها ، هذا عدا الشموع المتدليات من السقف ، التى لا يحصرها عد ، كأنها معروضة فى سوق من أسواق الشماعين .

إن مغارة قاديشا هى حقيقة متحف ربانى ، قد نحتتها يد الطبيعة فى جوف الصخور ، من أقدم العصور ، فأجادت النحت وأبدعت فيه . وقد علل الدكتور خليل ، أستاذ علم طبقات الأرض ، وجود هذه المغارة ومثيلاتها فى لبنان بأن الثلج الذى يكلل جبل المكمل عندما يذوب ، يشق له طريقاً فى الصخور الكلسية ، فيحدث فيها فجوات ، تسيل فى أقنية جوفية ، تتسرب فى الصخور ، إلى أن تنتهى بها خاتمة المطاف إلى مكان واحد ، هو الذى تكونت فيه هذه المغارة العجيبة .

أما وجود الرواسب المتدليات من سقف المغارة ، والنتوء التى تشاهد على جانبيها ، فتحدث من ترشيح المياه من السقف ، وتجمده من شدة البرودة ، وهو يحوى غاز الكربونيك ، فترسب مذوباته وتتكون من هذه الرواسب المناظر الطبيعية ، التى تظهر على شكل تماثيل حية .

طربوش سيدنا نوح

تابعنا سيرنا إلى الداخل ، ونحن نعتمد تارة على الجدران التى تنضح بالماء ، وطوراً على الحاجز الذى يفصلنا عن مجرى المغارة العميق ، يتقدمنا دائماً العم أبو طنوس ، إلى أن انتهينا إلى مكان فى جوفها وقف فيه وقال بأسلوبه الفكاهى وروحه المرحة :

– انظروا إلى الفجوة الغائرة فى السقف ، وتأملوها جيداً . ماذا تشبه يا ترى ؟ أمانحن فحدقنا النظر فيها وتأملناها ، ولكن الله لم يفتح علينا أن نعرف أكثر من أنها فجوة كبيرة فى داخل المغارة .

وأخيراً قال العم أبو طنوس : إن هذه الفجوة هى طربوش سيدنا نوح أبى البشرية ، عليه السلام ، وقد نسيه فى هذا المكان ، يوم أن كان يقيم فى لبنان ، قبل أن يصنع فلكه استعداداً لاستقبال الطوفان ، ولكنه تحجر وأخذ يكبر بمرور الأيام ، وصار كما تشاهدون ، مغارة فى قلب مغارة.

ضحك جميع الحاضرين من خفة روح العم أبى طنوس ، ومن مقدرته على سرد الوقائع ، التى كان يلبسها لباس الجد ، ومن تعليله الظريف لهذا التجويف .

اجتزنا بعد ذلك ممرات أخرى كانت تضيق حيناً وتتسع حيناً آخر ، إلى أن بلغنا مكاناً ، ينتهى بباب حديدى كانت فيه نهاية تطوافنا فى داخل هـذه المغارة ، فعدنا من حيث أتينا ، وصوت هدير الماء يصم آذاننا

ولما وصلنا إلى باب المغارة ، ملأنا إناءاً كان معنا من حوض الماء الواسع فيها ، وأفرغناه فى جوفنا ، فإذا هو مثلج عذب .

وتمتد مغارة قاديشا إلى مسافات بعيدة تحت الجبال لم تكتشف بعد ، وتعنى الحكومة اللبنانية اليوم عناية خاصة بمثل هذه المغاور ، والإفادة من مائها ، فائدة لا تقتصر على رى الأراضى فحسب ، وإنما تتعداها إلى الانتفاع بها فى الأغراض الصناعية الأخرى ، على ضوء النظريات العلمية الحديثة ، التى يدرسها فنياً جماعة من المهندسين بمعاونة بعض رجال المال والأعمال .

إهدن

ودعنا الأرز ووادى قاديشا ومغارته الفاتنة العجيبة ، والعين لم تشبع مما رأت ، فانطلقت السيارة فى طريق ممهدة إلى إهدن ، فرحنا نسائل أنفسنا فى أثناء الطريق ، هل يتاح لنا ياترى أن نعود مرة أخرى إلى هذه البقعة المباركة من لبنان ، فنملأ عيوننا من جمال أرضها ، ونشبع رئاتنا من النسيم العليل الذى يهب عليها ، ونطفىء ظمأنا من الماء البارد العذب الجارى فى واديها ؟

حقاً إن مثل هذه التصورات قد جالت فى خاطرنا ، وتركتنا أسرى تلك المناظر الخلابة ، ولما أشرفنا على أهدن جارة الأرز الرابضة على سفح جبل المكمل ، بميل إلى الجنوب بين البقية الباقية من أشجار الجوز التى كانت تكسوها فى الماضى ، وأشجار الشربين ، والصفصاف والسنديان

بدت لنا منازلها الجميلة ، يتوج بعضها القرميد الأحمر ، وحدائقها اليانعة التى تزينها ، وكرومها التى تتلألأ فيها عناقيد العنب ، ورأينا فى الجهة الشمالية من إهدن ، آثار قلعة أثرية ، قيل إن سيف الدين قلاوون سلطان مصر قد هدمها عند محاصرته لها ، عقاباً لأهلها على مقاومتهم له ، كما ظهر لنا فى الجهة الشمالية الغربية قمة شاهقة تكاد تكون عمودية فى ارتفاعها ، بدت لنا منها عند ما تسلقناها المدن الساحلية الفاتنة ، والبحر الفنيقى الرائع ، ووادى قاديشا الرهيب ، والغابات الكثيفة النضرة التى تحيط به والقرى الصغيرة المتناثرة حوله .

ليس هناك أمتع من منظر البحر بساحله المتعرج الطويل ، والجبل بألوان صخوره ، وهى بين بيضاء وصفراء ورمادية وبرتقالية يكلل بعضها الغابات.

كنيسة فى حصن

ويقوم على هذه القمة السامقة حصن قديم ، يرجع تاريخه إلى العهد الرومانى . حوله الإهدنيون إلى كنيسة صغيرة ، تعرف « بسيدة الحصن » .

كانت إهدن فى الماضى تلقب بإهدن الجوز ، لوفرة ما كان فيها من هذا الشجر المعمر ، غير أن القوم قطعوا أكثره ، وزرعوا مكانه أشجار الفاكهة على اختلاف أنواعها ، وأشهرها التفاح المعروف بطيب رائحته ، ولذة طعمه ، وحسن منظره .

وقد وصف أحد الأدباء تفاح إهدن فقال : بياضه لبنى ، وحمرته

ياقوتية ، وخضرته زمردية ، ورائحته مسكية .

لقد صدق هذا الأديب فى وصفه لتفاح لبنان .

متنزهات إهدن

وتحيط بإهدن المتنزهات الجميلة ، والغابات الكثيفة ، وأشهرها الغابة الواقعة فى الجهة الشرقية الشمالية منها وهى متنزه رائع ، يقصدها المصطافون ، للتمتع بمنظر الأشجار الباسقة من سرو وشربين وصنوبر وسنديان وبلوط وأرز . وتنساب فى هذه المتنزهات المياه العذبة الباردة .

تجولنا فى المساء فى هذا المصيف الفاتن ، وقد أحالت الأنوار الكهربائية المنبعثة من كل مكان فيه ليله الدامس ، إلى نهار واضح باهر ، فلمسنا روح المرح والسرور تطفح على وجوه القوم ، الذين اكتظت بهم الطرقات ، وضاقت بهم المقاهى والمحال العمومية على رحبها .

ولما تقدم بنا الليل ، وكادت الشوارع والطرقات تقفر من السابلة ، عدنا إلى الفندق النازلين فيه حيث قضينا ليلتنا .

الإهدنيات الفاتنات

ولما كان الصباح غادرنا الفندق ، فطفنا فى أسواق إهدن وساحاتها الرحبة ، وكانت تموج فى مثل هذا الوقت بأسراب الغيد الحسان من

الإهدنيات الفاتنات ، المياسات القد ، الرشيقات القوام ، وقد حبتهن الطبيعة بوجوه تحاكى البدر فى استدارته ليلة التمام ، ووجنات يغار الورد من رؤيتها ، وعيون كأنها عيون المها ،

كان إعجابنا بأولئك الإهدنيات الجميلات وما يتصفن به من الظرف واللطف المقترنين بالحشمة والوقار ، ليس بأقل من إعجاب الآنسة سلوى بهن ، فهن زينة بلدتهن ، يفتحن صدورهن للغريب ، لأن كرم الضيافة من شيمتهن .

دخلنا حانوتاً تملكه فتاة رمت الطبيعة على وجنتيها وردتين ، فابتعنا منها تفاحاً أحمر الخدين ، ثم دلفنا إلى حانوت آخر ، بعد أن انتقينا منه بعض تذكارات مصنوعة من خشب الأرز رضينا من الغنيمة بالإياب .

نبع مار سركيس

امتطينا سيارتنا إلى نبع مار سركيس ، الواقع فى لحف جبل يتفجر ماؤه البارد العذب الصافى بقوة من أحشاء صخور صماء نبتغى الراحة ، فإذا هو من الروعة والجلال بمكان ، يعلوه شجر الشربين الذكى الرائحة وقد أقيمت على امتداد مجراه المقاهى والمطاعم ، وكانت تكتظ بالذين احتلوا كل بقعة حوله . وبعد بحث شديد ، عثرنا على ركن خال منعزل تظلله شجرة شربين تعانق أغصانها شجرة صنوبر متفرعة الأغصان ، فجلسنا نتناول طعامنا من « الكبة النية » التى قدمها لنا المطعم ، على نغمات

خرير الماء ، ورقة همس الهواء ، ونمتع العين بجمال المناظر التى تحف بنا ، ونشنف آذاننا بسماع تغريد الحساسين الجميلة الشكل تتنقل فوق الأفنان .

وقد أحضر لنا خادم المطعم فى نهاية الطعام ، بطيخة كبيرة على طبق ، انتشلها من مجرى النبع ، وقد فلقها ماؤه إلى فلقتين ، لشدة برودته فأكلناها بشهية . إن « الكبة النية » هى أكلة لبنان الوطنية .

يوسف بك كرم بطل لبنان

بعد أن أخذنا بحظنا من الراحة فى ظل أشجار نبع مار سركيس غادرناه إلى كنيسة القديس جرجس ، لزيارة ضريح بطل الشمال ، يوسف بك كرم ، فلما وصلنا إلى الساحة التى تحيط بالكنيسة ، ظهر لنا تمثاله ، وقد أقيم على نصب مرتفع ، وهو بزيه العربي الأنيق ، وطربوشه المغربى الطريف ، ممتطياً صهوة جواد عربى أصيل ، ومتمنطقاً بحزام من الكشمير ، وقد جرد سيفه من غمده ، كأنه يتأهب للطعان .

وقفنا أمام هذا التمثال برهة مبهوتين نتأمله ، فأعادت إلينا رؤيته ذكرى صاحبه العظيم ، وما اقترن به تاريخ حياته من أحداث جسام ، سجلت له بطولته بحروف من نور .

دخلنا الكنيسة وكانت غاصة بالزائرين ، فاقتربنا من ضريحه فشاهدنا جسمانه الطاهر مسجى فى داخل تابوت له غطاء من زجاج ، وهو بزيه العربى ، وقد بدت على ملامح وجهه بعض التغيرات الطفيفة ، وبعد أن

صلينا على روحه الطاهرة ، عدنا إلى الساحة ووقفنا أمام تمثاله لنستمع إلى حديث العم أبى طنوس عن تاريخ هذا البطل العظيم فقال :

— فى أواسط القرن الماضى ، هبَّ أسد الشمال من عرينه ، وشن على الدولة العثمانية حرباً عوانا ، ظلت مستعرة الأوار زهاء سنة ، عجزت الجيوش العثمانية فى خلالها عن الفتك به ، أو النيل من رجاله الصناديد الأبطال ، لما كانوا يأتونه من ضروب البسالة والبراعة فى فنون القتال .

ومن أعماله الباهرة أنه انتصر بجيشه الذى لم يزد عدده عن أربعمائة مقاتل فى قرية بنشعى ، على عشرين ألف مقاتل من الأتراك ، فهزمهم ونكل بهم ففروا مذعورين فى تلك الجبال لا يلوون على شىء .

وفى الوقت الذى كان فيه بطل الشمال ورجاله سائرين إلى قاطع بيت شباب لخوض آخر معركة مع الأتراك ، وهم فى طريقهم إلى بيت الدين للاستيلاء عليها ، توقف عن القتال فجأة ، بناء على دعوة تلقاها من نابليون الثالث إمبراطور فرنسا ، يرجوه فيها الكف عن القتال والسفر إلى فرنسا ، فأعد كرم العدة ، وبعد أن ودع رجاله ، شد رحاله إلى باريس فى ٣١ كانون الثانى (يناير) سنة ١٨٦٧ على ظهر الباخرة « له فوربان » تاركاً جبال لبنان الجميلة ، ومسقط رأسه إهدن ، ولما وصل إلى باريس قابل نابليون الثالث ، وتفاوض معه فى مسألة تحقيق استقلال لبنان ، وظل هذا البطل الهمام يتنقل فى عواصم أوربا ، يدافع بجميع الطرق السلمية عن قضية لبنان العادلة ، وهى استقلاله التام ، إلى أن وافته منيته فى السابع من شهر نيسان (أبريل) سنة ١٨٨٩ فى مدينة نابلى ، وهو

يلفظ اسم لبنان الحبيب وكان له من العمر سبعة وستون سنة .

ولما وصل خبر وفاته إلى لبنان ، بكاه اللبنانيون قاطبة ، وقد نقل جثمانه الطاهر من نابلى إلى مسقط رأسه إهدن فى تلك السنة فبلغ طرابلس فى ١٣ سبتمبر ، فقابلتها الجماهير التى احتشدت على طول الطريق بالبكاء والنحيب ، حتى قرية زغرتا ، ومنها استأنف الموكب سيره إلى إهدن مسقط رأس الفقيد ، فأقيم له مأتم حافل ، شهده جميع أحبار الطائفة المارونية الكريمة ، وآلاف من اللبنانيين على اختلاف مذاهبهم ونحلهم ، وكانوا قد أتوا من كل حدب وصوب .

وأودع بعدئذ جثمان البطل الكبير فى كنيسة القديس جرجس الكبرى بإهدن ، وفى سنة ١٩٢٢ نقلت فى تابوت له غطاء من زجاج يتسنى اليوم لجميع الزائرين رؤيته .

وقد اشتهر أهل إهدن بالبسالة والشجاعة وعزة النفس وكرم الخلق ، كما عرفوا باللطف والظرف والوداعة وحسن معاملتهم للغريب .

مكثنا فى إهدن يومين كاملين ، اختلطنا فيهما بشيبها وشبابها ، فلمسنا فيهم جميعاً روح الوطنية الصادقة ، وحبهم للبنان ، وغيرتهم على مصالحه ، وقد صرح لنا غير واحد من شبانهم الذين تحدثنا معهم ، أنهم على استعداد فى أى وقت لبذل الأرواح فى سبيل إعلاء كلمة لبنان والعرب ، وهذا ليس بغريب عليهم وهم من موطن بطل الشمال المغوار .

إن شبان الشمال هم عدة لبنان وحماته من كل عدوان ، ويحافظ أهالى الشمال على أراضيهم محافظة البخيل على درهمه ، ولا يفرط الواحد منهم

بشبر منها ولو دفعت له مال قارون .

أن الأيام القلائل التى قضيناها فى أهدن جنة لبنان ،وعروس الشمال ، ويطلقون عليها « جنة الفردوس » لا تقاس ببهجتها مع عمر الزمان .

فى الطريق إلى زغرتا

انطلقت بنا السيارة فى الصباح الباكر من إهدن ، ونحن نحمل لها ذكريات عاطرات ، لما لاقيناه من لطف أهلها ، وظرفهم ، وترحيبهم بالغريب ، فأخذت تطوى الطرق مارة بقرى مغمورة بالأشجار الباسقة ، التى ترويها مياه الثلوج المتسربة فى جوف الأرض ، إلى أن حطت رحالها فى زغرتا الغارقة بين حقول الزيتون ، فهالنا أن نراها تكاد تكون مقفرة من سكانها ، برغم كبر مساحتها ، وجمال دورها ، وانتشار رقعة العمران فيها ، فسألنا عن السر فى ذلك ، فقيل لنا إن السواد الأعظم من سكانها يتركونها فى الصيف ويعتلون هضاب إهدن ويعودون إليها بعودة الشتاء ، فعجبنا من هذا التعليل الغريب ، لأن مناخ زغرتا لطيف ، وجوها جميل ، تحيط بها الغابات الكثيفة التى تلطف من درجة الحرارة فيها كما تجرى فيها ينابيع المياه الباردة العذبة التى تتسرب من أعالى الجبال ، وتروى جميع منطقة الشمال .

سهل الكورة الخصيب

وبينما نحن نعبر قرى آهلة بالسكان ، علقت على هوامش الجبال ، سارت سيارتنا فى طريق تتوسطه حقول أشجار الزيتون الرصاصية الشامخة الأغصان ، الرابضة فى مكانها منذ مئات السنين ، ترقب القادمين وتودع الراحلين ، يرصع أوراقها الرصاصية اللون الغبار الذى تثيره الرياح من الصخور الرمادية اللون المحيطة بها ، فتستقر عليها ، وتبقى عالقة فيها إلى أن يأتى الشتاء ، وتبكى عين السماء ، فتغسلها وتبدو للعين بلونها الرمادى اللامع وقد خلعت عليها مياه الأمطار مسحة من الجمال .

أحراش القموعة

بدا لنا عن بعد سهل عكار الخصيب ، حيث تقع حراج القموعة الفاتنة ، وتبعد عن بيروت بمقدار ١٤٠ كيلو متراً ، فدلفت بنا السيارة إليها وإذا هى تشرف على مناظر طبيعية على جانب عظيم من الروعة والجمال ، تمتلىء بأشجار السنديان التى يبلغ عمر بعضها مئات السنين . وتحيط بها جبال جرداء صخورها متعددة الألوان غريبة الشكل رائعة المنظر .

سير الضنية

ولما عدنا من حراج القموعة ، أزجى ركابنا إلى سير الضنية مصيف طرابلس ، فى طريق معبد كثير الالتواء . وتعلو سير عن سطح البحر بمقدار ٩٠٠ متر . وتبعد عن بيروت بمقدار ١١٤ كيلومتراً . مناخها صحى وهواؤها عليل . وماؤها عذب بارد . وهى مشهورة بحدائقها اليانعة ، التى تنتج التفاح والخوخ والكمثرى ، وغاباتها الكثيفة ، وينابيعها المعدنية ، التى فيها شفاء للأجسام وطواحينها البدائية التى تدير رحاها مياه الأمطار التى تنحدر إليها من جبال الشمال .

قضينا بقية يومنا فى سير ، زرنا فيها قلعة سفيرى الشهيرة ، وهى من بقايا الصليبيين وسواها من الأماكن الأثرية الأخرى ، كما نعمنا بليلة هادئة أمضيناها فى فندق كنا فيه موضع الحفاوة والإكرام من المشرفين عليه .

طرابلس

رحلنا عن سير الضنية مع الصباح إلى طرابلس ، ويرجع تاريخ تسميتها بهذا الاسم ، إلى نظام الحكم القديم ، الذى كان قائماً فيها ، يوم أن كانت بلاد فينيقية تابعة لبلاد فارس ، فاجتمع مندوبو المدن الثلاث — صور وصيدا وجزيرة أرواد — للتشاور فى شؤون حكم هذه البلدان الثلاث

فى نفس المكان الذى توجد فيه مدينة طرابلس الحالية ، ولذا سميت باسم «ترى بوليس» أى المدينة المثلثة ، وقدحرفت العامة هذاالاسم بمرور الأيام ، كما حرفت أسماء غيرها من البلدان ، وأطلقوا عليها اسم طرابلس المعروفة به اليوم .

وتبعد طرابلس عن بيروت بمقدار ٩٠ كيلومتراً تقريباً فى طريق يمتد على طول الشاطئ الفينيقى الرائع ، يربطها بها خط حديدى . وتعتبر طرابلس من أهم موانى لبنان بعد بيروت ، كما أنها مركز صناعى وتجارى هام ، تكثر فيها مصانع دبغ الجلود ، ومصانع الصابون الحديثة الآلات ، لوفرة الزيت التى تنتجه حقول الكورة القريبة منها وسهل عكار الخصيب ، ومصانع تقطير الروائح العطرية ، وماء الزهر ، الذى فيه شفاء للأجسام لكثرة حدائق الأزهار فيها .

وقد زاد فى شهرة هذا الثغر فى السنوات الأخيرة ، إنشاء معامل تكرير البترول الذى يصلها من كركوك فى العراق ، بواسطة أنابيب خاصة ، ويصب فى مرفئها الذى أنشىء حديثاً لهذا الغرض .

أحياء طرابلس الداخلية

قمنا بجولة فى هذه المدينة القديمة ، وزرنا كثيراً من أحيائها ، فرأينا بعضها ما فتىء يحمل طابعه القديم برغم أعمال التجديد التى مست أرجاء هذا الميناء الهام ، حتى امتدت إلى ضواحيها النائية ، حيث البساتين

العامرة بأشجار الفاكهة ، من برتقال ، وتفاح ، وليمون ، وموز ، هذا عدا حدائق الأزهار المختلفة الأشكال والألوان .

أما مساجد طرابلس ، فيرجع تاريخ إنشاء بعضها ، إلى العصور الأولى ، ولكن ليس لها روعة مساجد القاهرة ودمشق ، وما تتسم به من جمال فى هندسة مبانيها ، ومآذنها السامقة ، وإنما قدمها خلع عليها رداء القداسة والمهابة والجلال . .

وقد أقيمت على جانبى شوارع طرابلس المفروشة بالاسفلت والمضاءة بالكهرباء ، الحوانيت الفخمة ، ومكاتب الصيارفة ، والفنادق ، والمقاهى التى تغص بروادها .

طرابلس والصليبيين

أعادت إلى مخيلتنا زيارة طرابلس ، ذكرى الصليبيين ، وما تركوا فيها من آثار ، وما خلفوه وراءهم من قلاع خالدة ، وأهمها قلعة كونت طولوز ريمون دى سان جيل ، التى تشرف بروعتها على وادى طرابلس الجميل ، وشاطىء البحر الذى دفنت فيه ذكريات الصليبيين ، الذين مكثوا فى هذه البقاع ردحاً طويلا من الزمن ، إلى أن أرغموا فى النهاية على الرحيل عنها ، ولسان حالهم يقول :

إن حبنا لشواطىء لبنان ، المنبسطة تحت أقدام صخور جباله الشامخة ، وما يحيط بها من بقاع ، قد ألبستها يد الطبيعة حلل الروعة والجمال ،

يعذب أفئدتنا ، وذكر اسمها يهمى الدمع من عيوننا ، فمتى نعود إليك أيتها البقاع الجميلة ، التى رسم القدر مصيرنا المؤلم على كل شبر من أراضيك. ولكن هيهات ما يحلمون به ، فإن طرابلس عادت إلى لبنان وإلى اللبنانيين .

تكية المولوية

سمعنا عن تكية الدراويش الراقصين ، المعروفة بالمولوية فى أثناء إقامتنا القصيرة فى طرابلس . فتوجهنا إليها فى الصباح ، فإذا هى تقع عند سفح مصب نهر أبى على ، الذى هو فرع من نهر قاديشا ، تحيط بها الحدائق الغناء ، فتخلع عليها جمالا لا تمله العين . فرأينا القباب العديدة التى على طراز القباب التركية ، تبرز من سقوف مبانيها ، وفى داخل التكية غرفة واسعة للرقص ، فرشت بالطنافس الوثيرة ، يقيمون فيها حفلاتهم على نقر الدف ونفخ المزمار .

وينساب خلال شجر الصفصاف الشامخ الارتفاع ، الوارف الظل ، وهو زينة المكان ، الماء العذب فى مجارى نبتت الأعشاب على حافتيها ، فترويها . ذكرتنا رؤية هذه التكية ، وما حوته من ضروب المتعة ، بتكية البكتاشية فى جبل المغاورى فى مصر . وهى قطعة من الجنة بما حوته من حدائق غناء ، كست أرضها الخضرة النضرة ، التى يستريح إليها النظر وتهدأ لرؤيتها الأعصاب المكدودة .

وقد علمنا من شيخ هذه التكية أن مؤسسها ، هو جلال الدين الرومى ،

فى قونية فى تركيا ، غير أن الغريب فى أمر هذه التكايا ، أنها قد زالت فى أماكن إنشائها ، ولكنها ما فتئت قائمة فى بعض بلدان الشرق .

وطرابلس عامرة بالمدارس ، من أجنبية ووطنية ، وجميعها تساهم مساهمة فعالة فى تقدم لبنان ، من الوجهة الثقافية .

مكتبة آل عمار الشهيرة

اختلطنا فى أثناء إقامتنا فى طرابلس ببعض الأدباء ، فعلمنا من أحدهم أنه كان فى طرابلس مكتبة قيمة ثمينة لآل عمار ، صاحبها القاضى الفاضل أبو الحسن طالب ، أسسها فى القرن العاشر الميلادى ، وكانت هذه المكتبة تحتوى على كثير من الكتب العلمية ، والفلسفية ، والفقهية والدينية ، كما كان فيها كثير من كتب اليونان والفرس . ويؤخذ من رواية طى المؤرخ العربى ، أن هذه المكتبة كان فيها أكثر من ثلاثة ملايين مجلد ، كان صاحبها القاضى أبو حسن طالب المتولى على طرابلس فى ذلك الوقت ، يبعث الرسل إلى الأقطار ، ويدفع أبهظ الأثمان فى سبيل الحصول على على الكتب القيمة النادرة .

أبو العلاء المعرى ومكتبة آل عمار

وكانت هذه المكتبة كعبة للعلوم ، يحج إليها العلماء ، والمشتغلين بالأدب ، من جميع الأقطار ، فيطلعون على ما يريدون من الكتب والمصنفات

والمخطوطات ، فكانوا بعملهم هذا ، يستفيدون ويفيدون وكان أبو العلاء المعرى شيخ الفلاسفة القدماء ، من ضمن الذين كانوا يترددون ، عليها فاستفاد منها ما شاء له ذكاؤه ونبوغه ، ولكن مع الأسف الشديد لم يدم الفيض العلمى طويلا ، لأن جهلاء الصليبيين عند استيلائهم على طرابلس ، قد أحرقوا هذه المكتبة القيمة الحافلة بأندر الكتب ، وبإحراقها ضاع أكبر كنز أدبى فى طرابلس. غير أن رواية إحراق الصليبيين لهذه المكتبة ، تحتاج إلى ما يؤيدها ، لأن بعض الكتبة حسب ما قيل لنا ينكرون ذلك ، والله أعلم.

دير البلمند

قمنا قبيل الظهر بنزهة إلى دير البلمند ، الرابض على رابية تشرف على طرابلس ، وعلى الشاطىء، ويقال إن منشىء هذا الدير ، هم رهبان القديس برنردس سنة ١١٥٧ ووضعوه تحت حماية سيدة « بل مونت » ، وهى لفظة فرنسية ، معناها الجبل الجميل ، غير أن العامة قد حرفت هذا الاسم بتوالى الأيام وصار يعرف بدير البلمند ، كما أن بعضهم يقول إن بانيه بيد مونت صاحب طرابلس.

شاهدنا فى هذا الدير ، الذى هو اليوم فى حوزة رهبان الروم الأرثوذكس ، مكتبة حافلة بالكتب التى أبقت عليها يد الأيام من العبث أو الضياع ، فلم يتسع لنا الوقت لنطلع على كنوزها الأدبية الدفينة، غير

أننا ونحن نجيل الطرف فى بعض المطبوعات ، عثرنا مصادفة على مجلة المنارة الأرثوذكسية الصادرة فى (ديسمبر) سنة ١٩٠١ وفيها مقال طريف فى وصف هذا الدير نقتطف منه ما يلى :

« إن البلمند من أعظم أديرة الشرق فخراً ، وأضخمها بناء ، وأظرفها موقعاً ، وأبعدها شهرة ، . . . إلخ » أجل إن الكاتب قد أصاب فى وصفه لهذا الدير ، الذى يمتاز بحسن موقعه ، وطيب مناخه ، وهدوء جوه ، وما يحيط به من غابات ينبسط البحر بشاطئه الطويل تحتها ، وكم تمنينا أن نطيل إقامتنا فى تلك البقعة الهادئة ، بين الربى والصخور المعلقة ، لنسمع همس النسيم العليل ، الذى كان يسرى بخفة ، فيحرك برقته أغصان الأشجار الباسقة ، فيتجاوب حفيفها بنغمات شجية وألحان خفيفة كانت تسرى إلى آذاننا فتطربنا .

وبينما نحن مأخوذون بجمال المناظر التى تحف بنا ، عبرت سحابة شفافة فوقنا ، فظللتنا ، بكت على أثرها عين السماء ، وتساقطت دموعها على أوراق الأشجار ، فأحالتها إلى أوتار وقعت عليها الطبيعة أرق الألحان .

أجل ؛ إن لغة الطبيعة السحرية ، التى تتفاهم فيها عناصرها بعضها مع بعض ، يتجاوب ما فيها من سحر وجمال ، لا يدرك كنهه الإنسان ، ذلك هو سر الكون ، وتلك هى روعة الحياة ، وما فيها من جمال ، إنها الطبيعة دائماً فى لبنان .

وبعد وقت وجيز أمسكت السماء ماءها ، فبرزت الشمس مرة أخرى وألقت أشعتها علينا ، لتبعث الدفء والحرارة فينا ، فعدنا إلى سيارتنا

وركبناها ، وأخذت تهبط بنا إلى الشاطئ مرة ثانية وكان يزيد فى جماله منظر الملاحات الممتدة على طوله ، وبجوارها تلال من الملح الناصع البياض حتى كان يخيل إلينا أن ثلج قمة ظهر القضيب ، قد انتقل إلى الشاطىء الجميل ، برمله الناعم كالحرير .

الفصل الثامن

فى الطريق إلى كسروان

يصعب على الكاتب أن يميز بقعة عن بقعة فى لبنان ، أو أن يخص قرية دون أخرى بالجمال ، فجمال المناظر فى مقاطعة كسروان ، يتسم بطابع خاص ، تتجلى فيه العظمة والروعة والجلال ، لحسن موقع تلك البقاع ، وطيب مناخها ، ورقة هوائها ، وعذوبة مائها وبرودته ، ولا يرى هذا الجمال إلا غريب الدار .

واسم كسروان مأخوذ من اسم الأمير كسرى ، أحد أمراء المردة ، الذين حكموا لبنان ، وصاحب القصر المنيف الذى ما فتئت آثاره تشاهد فى بسكنتا عند سفح جبل صنين .

ثم إنها فى القديم كانت تسمى العاصية لشجاعة أهلها ، وعظم شوكتهم ولصعوبة مسالكها وجبالها الوعرة .

أتحفنا العم أبو طنوس بهذه المقدمة ، عندما بلغنا جونيه ، فى عودتنا من شمال لبنان ، ليذكى فى نفوسنا نار الشوق إلى رؤية مصايف كسروان ، وكنا قد سمعنا عنها وعن أرجائها الفاتنة قبل أن نراها .

بكركى مقر البطريرك المارونى الشتوى

أخذت السيارة من جونية ترتقى طريقاً جبلياً معبداً بالأسفلت ، شق على هوامش صخور صلدة ، ومرتفعات تشرف على البحر الهادئ تناثرت فوقها الدور الجميلة ، تحيط بها الحدائق الغناء وقد انسابت فيها مجارى الماء. ولما بلغنا بكركى المقر الشتوى لغبطة البطريرك المارونى ، تركنا سيارتنا بجانب الطريق ، وترجلنا فى معبر ضيق ، بين صفين من الأشجار ، تدلت غصونها فوق السابلة وقامت أجواق الطيور فوق منابرها مرنمة بألحان هى فيض ما فى داخلها من طمأنينة وأمان ، تخلعه عليها حرمة المكان .

وأول شىء استرعى نظرنا عند وقوفنا أمام القصر البطريركى الفخم ، العبارة التى خطت على رتاجه الخارجى فى إطار جميل : « مجد لبنان أعطى له »

أجل : إن مجد لبنان قد أعطى لسيد لبنان ، المتربع على كرسى البطريركية المارونية ، الذى ترنو إليه قلوب الموارنة فى مشارق الأرض ومغاربها ، فمنه يستمدون قواهم الروحية ، ويستلهمون السير فى مسالك هذه الحياة الملأى بالصعاب والعقبات ، كما أن جميع ساسة لبنان ، على اختلاف مذاهبهم ، وتعدد نحلهم ، يقيمون وزناً لآراء سيد لبنان السديدة ، ويعملون له حساباً فى توجيه دفة سياسة الحكم فى ذلك الجبل الأشم ، مربض الأسود الذى يستمد رجاله قوتهم من سحر مناظره الطبيعية ، وصلابة جباله وروعتها.

تجولنا فى هذا القصر برفقة كاهن فاضل ، أخذ يشرح لنا تاريخه

وما اقترن به من أحداث جسام ، ويحدثنا بلباقة عن الشخصيات الكبيرة الأجنبية والوطنية التي زارته في شتى المناسبات ، وقد تمثل أمامنا في أثناء هذه الزيارة الخاطفة ، شبح الحرب الكبرى الأولى ، يوم أن سلط جمال باشا القائد التركي سيف النقمة على الطيب الذكر البطريرك الياس الحويك ، الذي كان رابضاً في هذا العرين في تلك الأيام السود . كما تمثل أمامنا جموع اللبنانيين ، الذين كانوا يتقاطرون من جميع أنحاء لبنان ، إلى المقام البطريركي ويقفون وراء الباب الحديدي ، في طلب الغوث لسد رمق الجوع . الذي فتك بآلاف اللبنانيين ، بئست تلك الأيام السود فما كان أكثر موتى الجوع فيها ! !

حريصا وسيدة لبنان

دلفت بنا السيارة إلى حريصا ، القرية الهادئة المعلقة فوق منحدرات هي آية في الروعة والجلال ، يزيدها جمالا تمثال سيدة لبنان ، عليها أشرف السلام ، وقد أقيم في أوائل هذا القرن على رأس جبل فوق نصب مخروطي الشكل ، ارتفاعه عشرون متراً ، في أسفل قاعدته معبد صغير ، هو مزار لجميع الوافدين إلى حريصا .

ارتقينا سلالم سهلة هينة الانحدار ، ونحن نعتمد على حاجز حديدي حتى بلغنا قاعدة التمثال . وبينما نحن نجيل الطرف من فوقه ، تعلق بصرنا بأديرة قديمة قد حرص الذين شادوها في الماضي ، على أن تكون على هوامش الجبال الشامخة ، وفوق الربى والآكام ، وفي وسط الأحراش والأدغال



سيدة لبنان شامخة كأرزه

ليكونوا بعيدين عن الناس والعالم ، قريبين من الله ومن الطبيعة وما فيها من جمال ، حيث يخيم صفاء الجو ، الذى هو صفاء للنفوس ، ثم بان لناخليج جونية الفاتن ، يحتضن برفق مرفأها الهادئ الصغير ، الذى كان له شأن كبير فى الماضى ، وتغنى بجماله كثير من الكتاب والشعراء ، الذين زاروا لبنان ، كما انبسطت تحت أبصارنا قرى كثيرة بمنازلها البسيطة ، التى تحمل طابعاً خاصاً ، تمتاز به المبانى فى قرى لبنان .

هبطنا من أعلى هذا النصب بعد أن أسكرتنا حلاوة تلك المناظر ، واتخذنا لنا مجلساً فى الحرش الذى تحته ، فوضعنا ما معنا من طعام على أديم أرضه ، التى كستها أوراق الأشجار الصفر ، فأكلنا بشهية بين أحضان أمنا الطبيعة ، التى تفيض بالرقة والحنان ، ثم استلقينا على الأرض ، واستسلمنا لسنة الكرى رغم أنوفنا ، لأن النسيم العليل الذى يداعب أغصان الأشجار ، ويحدث حفيفاً له وقع الموسيقى فى الآذان ، أسكرنا بحلاوته ، وخدر أعصابنا برقته ، فأخلدنا للراحة والدعة بعض الوقت ، ولم يوقظنا من غفوتنا العابرة ، سوى رنين جرس الدير ، فقمنا وتابعنا سيرنا فى طريق معبدة ملساء ، تعددت منحنياتها ، وكثرت أكواعها ، تشرف على وهاد سحيقة ووديان عميقة ، كستها الأشجار الباسقة ونبتت فى جلولها المزروعات اليانعة.

مصايف كسروان

قبل أن ننتقل فى داخل كسروان الفاتنة القائمة فى ذروة الجبل ، حيث

تنتظم أشجار السنديان والبلوط والصنوبر على صدر الطبيعة الحنون ، وتكثر حدائق الفاكهة فى محيط كله متعة للمصطافين ، تشيع فيه أسباب الهدوء والراحة ، أبدينا للعم أبى طنوس رغبة ملحة فى أن نمر على أكبر عدد ممكن من القرى اللبنانية فى كسروان ، لنأخذ فكرة عامة عن جمالها ، وبساطة بيوتها ، التى تمتاز بنظافتها ، وعن الفلاح اللبنانى ، الذى لم تستهوه المدنية الزائفة وعن حبه لأرضه ، وتفانيه فى العمل فيها ، وميله إلى النظام .

غسطا

كانت أول قرية صادفتنا غسطا ، وهى قائمة على روابى وتلال ، تناثرت فوقها الدور المتواضعة فى شكلها ، البسيطة فى مظهرها ، وقد أعجبنا بالجلول التى حولها ، وقد غرس فيها أصحابها أشجار الفاكهة ، والخضروات. ولما وصلت سيارتنا إلى رابية عالية تشرف عليها ، أجلنا الطرف فيها فخيل إلينا كأننا أمام قطعة فنية ، رسمتها يد فنان حاذق ، ووضعتها فى إطار يضرب لونه إلى الزرقة ، فيزيدها جمالا ورونقاً .

دلبتا

انتهينا بعدئذ إلى دلبتا ، وقد سميت كذلك ، لكثرة شجر الدلب الذى كان يكسو رباها ، ويزين بشكله الجميل أرجاءها ، وقد اقتلعت الأمطار

الغزيرة التى هطلت سنة ١٨٦٢ أكثره ، كما قطع الأهالى أكثر الباقى من هذا الشجر الجميل ،لاستعماله فى أغراضهم المنزلية ، فتركت تلك الأشجار مكانها فراغاً ، آلمتنا رؤيته ، وتعلو دلبتا عن سطح البحر بمقدار ٧٥٠ متراً وهى قابعة فى وادٍ ليس بعميق ، يمتاز بوفرة مناظره الطبيعية ، ومناخ دلبتا جيد ، وماؤها غزير ، وأهلها يرحبون بالغريب ، ويحلونه بينهم على الرحب والسعة ، شأنهم شأن جميع أهالى كسروان يدفعهم إلى ذلك جمال المناظر فى بلادهم ، وما يتسمون به من مظاهر الغبطة والسرور .

عشقوت

كانت السيارة تمضى بنا مسرعة فى طريق شقت على حواشى الجبال الشامخة تريد عشقوت ، القرية الجاثمة فى منعطف بين جبال صخرية ، متعددة الأشكال ، متباينة الألوان ، تحيط بها من جهاتها الثلاث ، وتنتصب فوقها أشجار السنديان والبلوط ، وتطوقها كروم العنب ، كما تطل من الجهة الغربية على البحر الأبيض المتوسط بشاطئه الفاتن .

وقد اهتم أبناء هذه القرية التى تعلو سطح البحر بمقدار ١٠٠٠ متر ، وتبعد عن بيروت بمقدار ٣٥ كيلو مترا فى السنوات الأخيرة ، بغرس أشجار الفاكهة فى جميع أرجائها ، بفضل مياه نبع العسل التى جرت إليها ، وتفرقت فى جميع أنحائها ، بعد أن تخلصوا من أكثر شجر التوت ، بسبب كساد موسم الحرير فى لبنان .

ولفظة عشقوت معناها الصعبة ، وهى مشتقة من اسم الإلهة الفينيقية أشقون ، شقيقة الآلهة ريفون ، وأيلون ، وعجلون ، تلك القرى الجميلة المجاورة لعشقوت وقد سبق أن ذكرنا أسطورتها .

أسطورة الإلهة أشقون

وبينما السيارة تنساب فى طريقها ، لاحت لنا آثار قلعة قديمة ، فى منخفض من الأرض ، شرقى غزير ، القرية التى عاش فيها رينان الفيلسوف الفرنسى ، وكتب فيها كتابه «حياة يسوع» فراح العم أبو طنوس ، يتحفنا كعادته بأسطورة طريفة ، تمت بصلة إلى عشقوت فقال :

كانت الإلهة أشقون ذات أخلاق صعبة ، وطباع شرسة فظة ، فكانت تصرف عنها بكل أنفة وكبرياء كل من يتقدم إليها من الآلهة لطلب يدها للزواج ، بعد أن وجدت منفذاً لشهواتها الجامحة ، إلى قلب الإله كيلون الجميل الصورة ، وقد بلغ من فرط حبها له ، وهيامها به أن بنت له هيكلا فخما فى هذه البقاع ، مبالغة منها فى إكرامه ، والتودد إليه ، ليعطف عليها بنظرة من نظرات عينيه الساحرتين ، وأوصلت الإلهة أشقون هذا الهيكل بقلعة قديمة جداً بواسطة سراديب خفية ، تمتد تحت الأرض تصلها بقصر عشيقها كيلون ولذا أطلق على عشقوت أيضاً العاشقة .

وقد عفت اليوم آثار هذا الهيكل ، ودرست معالمه ، وبقيت آثار القلعة التى تعرف اليوم بقلعة معراب ، نسبة إلى سليمان بن معراب الذى

شيدها على أنقاض حصن قديم من بناء الفينيقيين ، بدليل العثور على حجارة فى هذا الحصن ، تحمل كتابة فينيقية تدل على أن بانيه هو لوكى الفينيقى .

كنا إذ ذاك بلغنا عشقوت الجميلة ، وكان الليل على وشك أن يلفنا بظلامه ، فتلمسنا لنا فيها فندقاً قضينا فيه ليلتنا ، وفى صباح اليوم التالى ، جسنا خلال طرقاتها المعبدة بالأسفلت ، وجلنا فى منتزهاتها الرائعة التى أوجدتها الطبيعة فيها .

فنادق عشقوت ممتازة ، وماؤها المنحدر إليها من نبع العسل بارد عذب ، وهواؤها عليل منعش ، ومناخها صخرى جاف ، وأناسها لطيفو المعشر .

وقد شاهدنا عند كنيستها سنديانة قديمة الأيام ، قد مدت فروعها فوق الساحة المغروسة فيها ، قيل لنا إن تلاميذ هذه القرية فى الماضى ، كانوا يتلقون علومهم تحتها . أجل إن تلقى العلوم تحت السنديانة ، أو الصنوبرة فى الهواء الطلق ، أمام المعابد ، كان شائعاً فى قرى لبنان .

ميروبا

انتقلنا إلى ميروبا القرية الحالية الثاوية فى أطراف الجبال ، وتعلو سطح البحر بمقدار ١١٠٠ متر . وميروبا لفظة سريانية معناها الماء الغزير ، حقاً إن الماء فى هذه القرية وفير .

وتمتاز ميروبا الغارقة فى وسط الحدائق الغناء ، التى تنتج التفاح اللذيذ

الطعم ، الذكى الرائحة ، الجميل المنظر ، بأنها مصيف هادئ ، مناخها صحى لا أثر للرطوبة فيه مطلقا . وقد شاهدنا فيها مناظر كثيرة رسمتها يد الطبيعة فأجادت وأبدعت فى مفاتنها .

فاريا

وبعد أن استرحنا فى ميروبا بعض الوقت ، تركناها إلى فاريا التى يرويها نبع العسل . فسرنا فى طريق منحدرة كثيرة المنحنيات ، نمقت يد الطبيعة ما يحيط بها من مناظر تثير البهجة والمرح فى النفس .

ولم نكد نصل إليها ، حتى شعرنا بمناخها الصحى ، وجوها الجاف ، وسكونها الشامل ، الذى يحمل من يلتمسون الهدوء لأعصابهم المكدودة ، والراحة لأبدانهم المتعبة ، بعيداً عن جلبة المدن وضوضائها ، على أن يقصدوها فى فصل الصيف ، ويتمتعوا بفواكهها اللذيذة ، ومائها العذب .

قضينا بقية يومنا فى هذه القرية الفاتنة ، ونحن نتنقل فى أرجائها ، وقد ثملت أبصارنا من سحر ما رأت فيها من جمال ، أنسانا مالاقيناه من تعب وعناء .

رحلة إلى نبع العسل

غمرنا حب الطبيعة فى لبنان ، وفتنتنا تلك الصور الأخاذة التى وهبها البارى لهذه الأرض من بقاع كسروان ، فكنا كلما تركنا قرية استقبلتنا

أخرى بسحرها وجمالها ، وتيهها ودلالها .

قمنا فى الصباح الباكر بنزهة إلى نبع العسل فى أعلى الجبال ، سيراً على الأقدام ، فى طريق جبلى ، تحف بها المناظر الطبيعية الفاتنة . فمن حدائق غناء يتدلى من أشجارها التفاح المورد الخدين ، إلى غابات باسقة الأشجار يفوح منها عبير ذكى ، إلى وهاد يجرى فيها الماء النمير ، وقد انتصبت على حافتيها أشجار الحور الرشيقة والدلب العطرة ، وقد قطع اليوم القوم أكثره ، إلى مرتفعات قد تعلقت فوقها قطعان الماعز تقرض الكلأ الناشف ، تحرسها كلاب ضخمة قد كشرت عن أنيابها لما رأتنا ، ولم يخلصنا من شرها ، سوى عصا الراعى وزجره لها ، وكان قد هرع لنجدتنا عندما استغثنا .

كان هذا الراعى جالساً على صخرة مرتفعة بيضاء ، فى ظل شجرة فيحاء ، قد طلعت من ثنايا ذلك الصخر الأجرد ، يسلى نفسه بنغمات مزماره ، التى كانت الوديان تردد صداها ، تاركاً حراسة القطيع إلى كلابه المتوحشة ، لأن الرعاة فى الجبال ، يعتمدون على مثل هذه الكلاب فى حراسة قطعانهم فى الليل والنهار من الحيوانات المفترسة واللصوص . وبعد ساعتين من الزمان ، ونحن نغذ السير حيناً ، ونستريح حيناً ، بلغنا غايتنا ووصلنا إلى نبع العسل الشهير ، الذى جاء ذكره فى التوراة ، فوقفنا أمامه مذهولين ، وقلنا فى أنفسنا : ألهذا تعبنا وجئنا إلى هذه البقعة النائية الجرداء القاحلة البعيدة عن العمران لنشاهد ماءاً يتفجر من الصخور ؟ وهل حقيقة شرب أبونا آدم وأمنا حواء من هذا النبع ؟ ما كان أغنانا عن المجىء إلى هذه البقعة النائية فى أعالى الجبال ، ولكن حب الطبيعة فى لبنان والسعى

وراء ما فيها من جمال هو الذى دفعنا إلى تجشم الصعاب ، أجل إنه سحر الطبيعة دائماً فى لبنان ! !

ذقنا ماء هذا النبع ، الذى يتدفق بغزارة من ثلاثة مواضع فإذا هو بارد عذب ، تغرى شدة برودته وصفائه على المزيد من شربه ، وتحف بهذا النبع ، مناظر من أبدع ما صنع البارى ، حتى خلنا أنفسنا فى أثناء تجولنا فى تلك البقاع ، أننا نرتع فى الجنان ، لا فى بقعة نائية من بقاع لبنان . وقد لاحظنا أنه تكثر حول مجرى هذا النبع الذى يأخذ بالاتساع فى أثناء انحداره من أعالى الجبال البساتين الغناء والرياض الخضراء .

ريفون

عدنا من زيارتنا لنبع العسل ، إلى ريفون ، وكان الليل على وشك أن يبسط ظله على الكون ، وتعد ريفون من أجود مصايف كسروان ، لحسن مناخها ، ورقة هوائها ، وعذوبة مائها ، وهدوئها ، فقضينا فيها ليلنا فى فندق نبع العسل الجميل ، الذى يشرف على مناظر فاتنة ونحن على أشد ما نكون من التعب ، فكنا نسمع فى أثناء الليل عواء الذئاب وبنات آوى ، وقد خرجت من أوجارها فى طلب الفريسة . تلك الأصوات لا يألفها القاطنون فى المدن ، على أنه برغم ما لها من وحشة فلقد طاب لنا سماعها لأنها كانت تشعرنا أننا فى لبنان أرض السحر ومرتع الجمال .

طفنا فى اليوم التالى فى أرجاء هذا المصيف الجميل ، فلم نلق من أهله

أين حللنا سوى الترحيب والتأهيل ، فلفظة « تُكرم » يحسها الغريب مرتسمة على الوجوه ، قبل أن تنطق بها الشفاه ، وهذه صفة من الصفات المتأصلة فى نفوس اللبنانيين .

وتشرف ريفون على جبال ووديان ، ملأى بالأشجار ، شأنها شأن بقية قرى لبنان الجبلية ، وتعلو عن سطح البحر بمقدار ١١٠٠ متر وتبعد عن بيروت بمقدار ٣٨ كيلو متراً ،وقد شاهدنا عندما تسلقنا رابية عالية فيها مرفأ بيروت ، وقرى القاطع ببيوتها الجميلة .

وزرنا فى نهاية تطوافنا فى هذا المصيف دير الآباء العازاريين للذكور وهو مركز اصطياف فاتن يقصده التلاميذ من الجنسين لقضاء فصل الصيف فيه تحت إشراف هؤلاء الآباء الأفاضل .

القليعات

ويعتبر طريق الكروم الذى يربط ريفون بالقليعات ، من أروع منتزهاتها ، درجت بنا السيارة فيه الهوينا إلى القليعات القرية التى تمتاز بحسن موقعهاوجمال ما فيها من مناظر طبيعية فاتنة ،وتقع على رابية ،وسط جبال تكتنفها من جهاتها الثلاث . تسلقنا هضبة عالية فيها ، فخيل إلينا أننا محلقون فى طائرة تشق عنان السماء ، كما امتدت أبصارنا إلى البحر الذى ينبسط تحتها ، فإذا بأمواجه تتراءى لنا ، كأنها قطن مندوف أو قطيع غنم أثار وراءه عاصفة من الغبار . يا لها من مناظر رائعة كانت رؤيتها تثير إعجابنا وتتركنا أسرى جمالها . !!

فيطرون

أومأ العم أبو طنوس فى أثناء عودتنا من القليعات إلى السائق حسن ، أن يذهب إلى فيطرون ، فسارت بنا السيارة فى طريق معبدة بالأسفلت ، شقت وسط الجبال ، تغمرها المناظر الطبيعية الجميلة التى ما ضنت بها على أية بقعة من بقاع لبنان .

وفيطرون مصيف جميل ، مناخها صحى ، وجوها جاف ، لا غيوم فيه وماؤها بارد عذب ، ترتفع عن سطح البحر بمقدار ١٢٠٠ متر وتبعد عن بيروت بمقدار ٤١ كيلومتراً .

متحف الصخور

لاحظ الدكتور خليل فى أثناء تجولنا فى ضواحى هذه القرية ، أنها تقوم على بقعة بركانية ، تمتاز بصخورها المعروفة بالاسم العلمى « الدولوميت » ، وهى ذات أشكال رائعة ، كأن يد فنان قد نحتتها فيها ، فأخرجت منها تماثيل من أجمل ما وقعت عليه عيوننا .

وهذه البقعة من فيطرون هى منتزه جميل ، رأينا فيها قبيل الغروب ، كثيراً من الفتيان والفتيات ، وقد استهواهم متحف الصخور ، وانفراده فى تلك البقعة الهادئة ، فذهبوا إليه ينشدون النزهة فى ذلك الجو الساحر.

مزرعة كفردبيان

حدثتك أيها القارئ الكريم عن هيكل فقرا فى سياق الأسطورة التى قصها علينا العم أبو طنوس فى معرض الحديث عن حدشيت ، وها قد بلغنا فى تطوافنا مزرعة كفردبيان ، القرية الهادئة ، البعيدة عن الجلبة والضوضاء ، القابعة بتواضع وبدون خيلاء فى سفح جبل صنين العظيم ، على ارتفاع ١٣٥٠ متراً عن سطح البحر ، فرأينا لزاماً علينا أن نزور فيها بعض أصدقاء وأساتذة لنا عرفناهم بالقاهرة ، فرحبوا بنا ، وبالغوا فى إكرامنا ، وألحوا علينا أن نقضى ليلتنا فى قريتهم الفاتنة ، فلم يسعنا إلا أن نقبل الدعوة شاكرين .

قلعة فقرا

ما كاد الليل يطوى أذيال الظلام ، ويزقزق العصفور فوق الأفنان ، حتى لاح الفجر ، فقمنا من نومنا ، واستأنفنا رحلتنا إلى قلعة فقرا ، وتقع فى لحف جبل صنين ، فى عزلة فى أعالى الجبال بين الرياض الباسمة ، والغياض النضرة فوق مزرعة كفر دبيان التى تبعد عن بيروت بمقدار ٥٦ كيلو متراً وهذه القلعة من الآثار الخالدة التى شادها الرومان ، على أنقاض هيكل فينيقى ، كان آية فى الروعة والجمال . وقد رأينا فيها دهاليز

ضيقة ، تتصل بحجره صغيرة ، كانت ترتكب فيها الفحشاء إرضاء للآلهة . و يتخذ رعاة تلك الجهات اليوم سراديب هذه القلعة ودهاليزها مأوى لهم ولقطعانهم .

ويقوم بقرب قلعة فقرا هيكل للزهرة ، يستدل من أعمدته الباقية على الزمن على أنه كان على مبلغ عظيم من العظمة والجلال .

نزهة إلى نبع اللبن

تركنا قلعة فقرا فى ذلك المكان المنعزل ، وواصلنا سيرنا إلى نبع اللبن ، وارتفاعه عن سطح البحر ١٦٩٠ متراً ، فى طريق تحف به المناظر الطبيعية الجميلة ، التى تأخذ بجامع القلوب ، ويهيمن سحرها على النفوس المتعطشة إلى رؤية مثل هذا الجمال ، الذى تحجبه المدن عن العين ، ولما صرنا إليه ، شاهدنا الماء الغزير يتدفق بشدة من قاع حفرة عميقة ، واقعة بين شقى جبل ليس بمرتفع ، ثم يصب فى هوة سحيقة ، تحجبها الصخور القائمة فوقها عن العيون ، فاكتفينا بسماع صوت هدير الماء ، وهو ينحدر بقوة فى تلك الهوة السحيقة .

ذقنا ماء هذا النبع ، فإذا برودته طبيعية ، وعذوبة مائه ربانية ، ذلك ولا عجب لأنه كان أحد الأنهار التى أوجدها الخالق عز وجل فى جنة عدن ، ليشرب منها أبونا آدم وأمنا حواء ، وكانت الجنة فى تلك البقاع كما قيل لنا .

جسر الحجر الطبيعى

تركتنا تلك البقاع الفاتنة أسرى جمالها ، ولم نكن نقوى على مغادرتها بسهولة ، لو لم تداعبنا رغبة ملحة فى رؤية جسر الحجر الطبيعى الواقع فوق نبع اللبن الذى سمعنا عنه قبل أن نراه ، فأخذنا نجد المسير قبيل الأصيل ، متتبعين مجرى الماء المنساب من نبع اللبن فى واد يتسع عند انحداره ، حتى بلغنا قنطرة عجيبة فى شكلها ، غريبة فى تكوينها ، قائمة بشكل نصف دائرة ، فوق واد يأخذ بالاتساع رويداً ، حتى يصل إلى هذا الجسر ، الذى تنتصب على يمينه صخور معلقة بالفضاء ، رأينا تحتها قطعان الماعز تتفيأ ظلها .

وقفنا أمام هذه القنطرة دهشين ، مسبحين بحمد من أوجدها على هذه الصورة ، حقاً إن هذه القنطرة عجيبة ، لأنها ليست من صنع إنسان .

رأينا فلاحاً شيخاً ولكنه بقوة الشباب ، يفلح الأرض التى بالقرب من هذه القنطرة بمحراث بدائى ، فوقفنا نتأمله ، ونعجب من خفته ورشاقته ، ونضارة وجهه ، ونظافة جلبابه ، الذى لم يسلم من كثرة الرقع فيه ، إلى أن تنبه لنا وحيانا من بعيد بالتحية اللبنانية المألوفة مرحباً بنا ، فدلفنا إليه ، ولما اطمأن إلينا واطمأنينا إليه ، سألته سلوى عن هذه القنطرة الغريبة ، وعن تاريخها ، ومن صنعها . كان سؤال سلوى ينطوى على مداعبة بريئة أرسلتها إلى شيخنا ، غير أن هذا كان أبرع منها فى هذا

الفن ، فن المداعبة الذى حذقه فى أعالى الجبال ، إذ ما كاد يسمع هذا السؤال ، حتى ارتسمت على محياه ابتسامة لا تخلو من السخرية ، وكأنى بلسان حاله يقول :

— هل يوجد فى العالم من لا يعرف تاريخ هذه القنطرة الشهيرة .

جلس فلاحنا الشيخ على حجر ، وجلسنا نحن على الأرض أمامه ، جلسة التلاميذ أمام المدرس سواء بسواء نستمع إلى حديثه ، وهو يقص علينا قصة هذه القنطرة الغريبة فقال :

— إن سيدنا آدم عليه السلام ، بعد أن طرده البارى تعالى من الفردوس الأرضى الذى كان يقع فى هذه البقاع ، لم يغادر لبنان ، بل آثر الإقامة فيه يتعهد أرضه ، ويعنى بحيواناته ، إلى أن بنى له هذه القنطرة العجيبة فى ارتفاعها ، الضخمة فى تكوينها ، وهذه القنطرة تعرف « بجسر الحجر الطبيعى » طولها ٥٢ متراً وعرضها ٢٥ متراً وارتفاعها ٥٨ متراً . أعجبنا الحديث عن هذه القنطرة من شيخنا الفلاح ، كما راعنا الماء المتدفق بقوة من تحتها وقد خطط فى أثناء انحداره من أعالى الجبال الأراضى التى تحيط بها بشكل يدعو إلى الإعجاب والدهش ، ويظهر ذلك بوضوح من التواء الدروب والمسالك ، وتعرج الطرقات والمعابر القائمة على حواشى الأودية ، التى رأينا الكثير منها فى تلك البقاع الفاتنة .

غير أن الدكتور خليل لم يقتنع بتعليل شيخنا الفلاح فقال :

— إن العوامل الطبيعية يا والدى هى التى أحدثت هذه القنطرة وأوجدتها على هذه الصورة ، وسيدنا آدم ليس له يد فى صنعها .

لم يرق هذا الكلام فى نظر شيخنا الفلاح ، فأظهر امتعاضاً منه ، ورمى الدكتور خليل بجهل الحقائق وقال :

ـ أنت الغريب عن هذه الديار ، تريد أن تكذبنى وتكذب أجدادى الذين تناقلنا عنهم قصة هذه القنطرة ؟

فلم يسعنا فى النهاية بعد أن لمسنا غضبة شيخنا علينا ، إلا أن نسلم بصحة قوله ، ونطيب خاطره ، ونعتذر له ، ثم ودعناه وانصرفنا وكانت الشمس على وشك أن تطوى خيوطها الذهبية استعداداً للرحيل .

عجلتون

قضينا ما يقرب من أسبوع نتنقل فى مصايف كسروان ، من شمالها إلى جنوبها ، ومن شرقها إلى غربها ، وقد ملكت على قلوبنا مناظرها الطبيعية الجميلة ، فكانت كل خطوة نخطوها فى تلك البقاع تعكس على نفوسنا ما يقع تحت عيوننا من سحر وجمال ، إلى أن هبطنا إلى عجلتون وترتفع عن سطح البحر بمقدار ٨٥٠ متراً ، وتبعد عن بيروت بـ ٣٤ كيلو متراً ، فى طريق مفروش بالأسفلت .

وتحيط بعجلتون الغابات ذات الأشجار الذكية الرائحة ، يشرف عليها جبل صنين من علياء مجده ، وينبسط تحتها الشاطئ بجماله وروعته .

ما أجملها صورة ، حين ترى شمس صنين تزحف فى الصباح الباكر فوق تلك الربى والهضاب ، فتبتسم لها الطبيعة ، التى تشترك فى صنع هذا الجمال ، الذى يعجز عن رسمه أعظم فنان ! !

عينطورا

ولما استقرينا بعينطورا الواقعة بين الغياض ، وسط الجبال المتوسطة الارتفاع ، زرنا فيها مدرستها الشهيرة ، التى أسسها الآباء اليسوعيون الأفاضل فى نهاية القرن السابع عشر ، ثم حل محلهم فيها سنة ١٨٣٤ حضرات الآباء العازاريين المحترمين ، الذين ما فتئوا يواصلون جهودهم فى حقل الثقافة العامة فى لبنان . وقد تخرج فى هذا المعهد الزاهر ، الذى أكسب عينطورا شهرتها ، وخلد اسمها بحروف من نور ، كثير من نوابغ اللبنانيين ، وغيرهم من الذين ضربوا بسهم وافر فى شتى ميادين الأعمال . وقد اطلعنا على سجل كبير ، يحتوى على أسماء شخصيات كبيرة أجنبية ووطنية زارت هذا المعهد . ويفخر هؤلاء الآباء الأفاضل الذين تجردوا لخدمة العلم والدين بهذا السجل ، ما أجمل الدين والدنيا إذا اجتمعا ! !

قرية الذوق

واصلنا سيرنا بعدئذ إلى قرية الذوق الحالمة بين الجبال ، ذات الأشجار الشامخة ، وقد اشتهرت بتطريز الأقمشة الحريرية وزركشتها بالقصب . قد أعجبنا كثيراً بهذه الصناعة المنزوية فى الجبل كالزنبقة بين الأدغال ، والتى يجيدها فتيات هذه القرية . إنهن بحق فنانات ماهرات بارعات ، قد غرس فى نفوسهن حسن المناظر الطبيعية فى لبنان صوراً من صنوف

الجمال ، يحيكونها بخيوط كيفما يشاء لهن الفن ، هى خيوط مجد ، وعنوان فخر على جبين الذوق القرية الوديعة .

ولم نشأ أن نغادر الذوق ، دون أن نبتاع منها بعض تذكارات ، بأثمان تعتبر زهيدة ، إذا قيست بالفن الرفيع الذى يتجلى فى كل خيط من خيوط تلك المنسوجات . أجل ، لقد ذكرتنا الذوق فى لبنان وأقمشتها المزركشة الجميلة الأشكال المتباينة الألوان ، بخان الخليلى فى مصر ، الذى أول ما يذهب إليه السائح الأجنبى عندما يهبط فى مصر ليبتاع منه منسوجات شرقية ، بأثمان باهظة ، هى شديدة الشبه بالمنسوجات التى يحيكها فتيات الذوق الرشيقات فى لبنان . كم من اللبنانيين ، أو اللبنانيين المغتربين الذين يحضرون إلى لبنان ، ولا أقول السائحين الأجانب ، يزورون قرية الذوق ويبتاعون تذكارات من منسوجاتها الشهيرة الجميلة ، إنهم قلة على ما قيل لنا . يجدر بالحكومة اللبنانية أن تولى هذه الصناعة عنايتها ، وتمد يد المساعدة لأربابها ، وتساعد على تصدير ما ينتج منها إلى الخارج ، لأن منسوجات كهذه تحمل صوراً من لبنان هى دعاية طيبة للبنان ولقرية الذوق الصغيرة

إلى يحشوش

اتجهت نيتنا عندما بلغنا غزير فى أثناء عودتنا من كسروان ، إلى أن نشد الرحال إلى يحشوش ، لنشاهد عن كثب ، السنديانة التى كثيراً

ما كان الكاتب الكبير المرحوم داود بركات ، رئيس تحرير الأهرام الأسبق يتغنى بها ، إذا ما هزه الشوق إلى لبنان ، وهدهده الحنين إلى الكتابة عنه ، ويفتخر بأنه تلقى علومه تحتها ، يوم أن كان التعليم تحت السنديانة أو الصنوبرة فى الهواء الطلق شائعاً فى قرى لبنان . فأخذنا نصعد فى طريق شق وسط الجبال ، تحف بنا المناظر الطبيعية التى كانت رؤيتها تهز أعطافنا ، والنظر إليها يملك علينا أفئدتنا وكانت ترافقنا فى أول الطريق أسراب من الطيور تحلق فوق سيارتنا ، وتشنف آذاننا بتغريدها الشجى .

قرية الغينى

ولما بلغنا قرية الغينى التاريخية ، وتبعد عن بيروت بمقدار ٤٣ كيلو متراً شاهدنا نقوشاً على صخرة فيها تمثل حيواناً برياً يفترس فتى ، قيل لنا إن هذه النقوش ترمز إلى قصة مصرع أدونيس ، إله الحب ، وقد ذكرناها عند الكلام على نهر إبراهيم ، كما رأينا فى جهة أخرى من الصخرة صورة امرأة قيل لنا إنها لأفروديت تبكى عشيقها .

مغارة أفقا

استرحنا بعض الوقت فى هذه البقعة التاريخية ، نستعيد فى أذهاننا ذكريات الماضى ثم واصلنا سيرنا إلى أفقا ، وهى قرية صغيرة ، كان لها

شأن كبير فى الماضى تقع على بعد ٨٤ كيلو متراً من بيروت ، ورأينا على مقربة من مغارتها الشهيرة ، المعروفة بمغارة أفقا ، التى ينبع منها نهر إبراهيم ، هيكل قديم ، كان مكرساً للزهرة ، تحيط به جبال شامخة الارتفاع ، يحمل منظرها على التأمل بالماضى السحيق ، الملىء بحلاوة الذكريات ، يوم أن كانت هذه البقعة من لبنان ، مسرحاً لاحتفالات دينية ومزاراً لهيكلها ،كانت ترتكب فيه جميع أنواع المحرمات إرضاء للإلهة الزهرة التى مافتئت تترددعلى زيارة هذه البقاع . ذلك هو اعتقاد القوم هناك .

تابعت سيارتنا سيرها حتى بلغنا يحشوش بيت القصيد وكان الوقت ظهراً.

ويحشوش قرية هادئة تقع فى أعالى فتوح كسروان جوها صحى جاف ، وماؤها بارد عذب ، وهواؤها عليل ، وأهلها لطيفو المعشر يرحبون بالغريب .

تجولنا فى يحشوش ، فألفينا فيها كل شىء جميل ، بل أجمل ما فيها السنديانة التى تغزل فيها المرحوم داود ، وأسفنا ، لأننا لم نر تحتها تلاميذاً ، يتلقون العلم ، ويستروحون بنسيمها العليل ، إن همسات أغصان شجر السنديان ، وهى تتمايل مع خطرات النسيم ، تنقل إلى الآذان أعذب الألحان فيتردد صداها فى كل مكان .

وكم تمنينا لو أن لابن يحشوش داود ضريحاً لنجمع من حقولها باقة زهر ، ونضعها عليه ، اعترافاً بما أسداه ذلك الكاتب الكبير من خدمات للبنانيين عامة ، والمقيمين منهم بالقطر المصرى خاصة ، إن باقة زهر رمزية من حقول لبنان ، يضفرها الإقرار بالجميل ، لهى أقل شىء يهدى إلى روحه الطاهرة فى هذا المقام رحم الله داود رحمة واسعة .

القرية اللبنانية

أخذت السيارة بعد أن تركنا يحشوش لها طريقاً فى دروب ليست بوحشة طرق الشمال وصعوبة التصعيد فيها ، وكان الوقت قبيل الغروب ، فصادفنا فلاحاً يسير أمامنا ، مرفوع الرأس ، موفور الصحة والعافية ، يحمل على منكبيه عدا ثقل السنين التى ربما قد جاوزت الستين ، محراثاً بدائياً ، ويدفع أمامه ثورين فى عنقهما نير ، كان يحثهما على السير من حين إلى حين ٍبمهماز ، وهو يترنم بالأناشيد العذبة بصدر منشرح وبال مطمئن .

التفت إلينا العم أبو طنوس كعادته وقال :

— انظروا إلى هذا الفلاح ، إنه مثال اللبنانى الحقيقى ، فأجداده هم الذين فتتوا الصخور الصلدة القاسية ، المحيطة بقراهم وحولوها إلى جلول خصبة ، غرسوا فيها الأشجار ، ودوالى العنب ، فالفلاح اللبنانى ، فى حرب دائم مع الطبيعة القاسية الغادرة ، التى تناصبه العداء دوماً . فتراه متى تمكن من أن يحتضن حفنة من تراب جرفتها مياه الأمطار الصاخبة ، واستقرت بها بين سلاسل الجبال ، أو فوق الربى والهضاب ، أو على هوامش الدروب وحواشى معابر الطرقات ، والوديان راح يزرعها بفنه ، ويتعهدها بعنايته . يغرس فيها دوالى العنب ، وأشجار الفاكهة ، وبذور الصنوبر والسنديان والبلوط والخروب وسواها من الأشجار التى

تنبت فى ربى لبنان . إن هذا الفلاح هو الآن فى طريق العودة إلى بيته بعد عمله اليومى المضنى الشاق ، فى حقله ، أو فى كرمه .

ويحنو الفلاح اللبنانى على أرضه التى يرويها بعرقه ، كما تحنو الأم الرؤوم على رضيعها الذى تسقيه قطرات دمها ، فالأرض بالنسبة له ، هى أحب شىء إلى قلبه بعد ربه ، كما أن اعتقاده برحمة ربه ، يضارع إيمانه بفائدة أرضه ، فهما المصدران اللذان يبعثان فى نفسه روح الأمل ، ويضفيان عليه الطمأنينة فى العمل ، ويشيعان فى معيشته السكينة والهدوء .

استأنفت سيارتنا سيرها فى أثر الفلاح بعد أن كنا قد أوقفناها مدة فى جانب الطريق فأردف العم أبو طنوس ما تقدم قائلا :

ـ يخرج الفلاح اللبنانى من بيته ، والطير فى وكناتها ، ويعود إليه فى مثل هذه الساعة ، فيلقى امرأته فى انتظاره ، وقد اعدت له الماء ليغتسل ، والملابس النظيفة كى يرتديها ، وهيأت له أنواع الطعام الشهى ، على مائدة بسيطة ، يجلس أمامها ومن حوله أولاده وأمرأته ، يأكلون ويتسامرون فينسى جميع المتاعب التى لقيها طول يومه .

ولا يترك الفلاح اللبنانى شبراً من الأرض دون أن يستفيد منه ، فهو يزرع أمام بيته المتواضع حديقة صغيرة ، ليسد حاجة أسرته من فواكه وخضروات .

كان الفلاح يسير أمامنا ونحن نقتفى أثره بسيارتنا ببطء ، فما كدنا نقترب منه حتى تنبه لنا ، فأفسح الطريق أمامنا ، فتقدمناه بضعة أمتار ،

أوقفنا سيارتنا بعدها فى جانب الطريق ، ونحن فى أشد الشوق إلى لقياه والتحدث معه بعد أن شاقنا حديث العم أبى طنوس عنه . فلما مر بنا ، حيانا بالتحية اللبنانية المألوفة قائلا : العوافى يا شباب .

فرد عليه العم أبو طنوس قائلا : عفاك الله يا عم .

ـ قال الفلاح : يظهر أن الشباب غرباء .

ـ قلنا نعم ، لقد جئنا من مصر إلى بلادكم الجميلة للاصطياف

ـ فقال : أهلا وسهلا ومرحباً . كيف وجدتم لبنان ؟

ـ قالت سلوى : إن كل شىء فى لبنان جميل .

ـ أجاب الفلاح نعم يا ابنتى ، ومع ذلك لايرى أبناؤه هذا الجمال ، فيتركونه ويهاجرون إلى الأقطار الأفريقية ، أو الأمريكية وسواها من بلاد الله الواسعة ، كأن لبنان ضاق على رحبه بأبنائه ، كان عدد سكان لبنان فى الماضى يزيد عما هو عليه اليوم كثيراً جداً ، وكانوا يعيشون معيشة ملؤها القناعة والرضا ، وفى قناعتهم كان غناهم .

قالت سلوى : صدقت يا عمى فيما تقول ، ولكن أما فكرت وأنت فى صدر شبابك ، أن تهجر لبنان فى يوم من الأيام ، وتحذو حذو بنى عشيرتك وأهلك ؟

هز الفلاح رأسه وسكت برهة وقال :

ـ كنت أملك فى ضواحى بيروت بستاناً كبيراً أتعهده بنفسى ، فركب شيطان الطمع يوماً رأسى ، فزين لى أن أبيع البستان ، وأشد رحالى إلى أفريقيا بعد الحرب الكبرى الأولى عند ابن عم لى ، حيث

مكثت زهاء سنة واحدة ، تاجرت فى بعضها ففشلت ، ومرضت مرضاً عضالا فى البقية الباقية منها ، ولكن الله أخذ بيدى وشفانى ، بعد ما فقدت كل رأس مالى ، فقلت فى نفسى العود أحمد ، فركبت أول باخرة ، وعدت بها إلى لبنان الحبيب لأشتغل فى مهنة أجدادى التى هى الزراعة والفلاحة ،وإنى ولله الحمد كما ترون سعيد فى معيشتى ، قانع بخيرات أرضى ، أعيش مع أولادى معيشة ملؤها الهناء والسرور .

ـ قالت سلوى : الهجرة إذن وبال على لبنان .

ـ وأى وبال ! !ولا سيما فى هذه الأيام وأظن الحكومة اليوم تعنى عناية جدية بمسألة المغتربين ، وترغبهم بجميع الوسائل فى العودة إلى لبنان . فلبنان لا يعمر ، ولا تقوم له قائمة إلا بسكانه ؟

دعانا الفلاح ، وقد عرفنا أن اسمه أبو يوسف ، إلى داره فى مشارف القرية ، فقبلنا الدعوة شاكرين ، فأركبناه معنا سيارتنا بينما كان الثوران يتقدماننا فى طريقهما إلى البيت .

ولما وصلنا إلى داره ، وجدنا امرأته فى انتظاره ، وعلى ثغرها ابتسامة الرضى والسرور ، بعودة زوجها إليها .

فقال لنا العم أبو يوسف : انظروا ، إن هذه الابتسامة تنسينى متاعب اليوم كله ، وهى فى نظرى أثمن من كنوز الأرض التى يهاجر فى سبيلها اللبنانيون .

تركنا سيارتنا جانباً فى الطريق ، وأخذنا نصعد فى جلول إلى البيت ، فقابلتنا امرأته بالترحاب ، كما التف أولاده حولنا مبالغة منهم فى إكرامنا .

قضينا ساعة مع العم أبى يوسف طرقنا فيها موضوعات شتى وكان العم أبو يوسف يصول ويجول فيها معنا ، ويحدثنا بكل شىء حديث الخبير العارف ، لأنه كثير الاطلاع ، ولما سأله الدكتور خليل فى النهاية عن نوع السماد الذى يستعملونه فى تسميد الأرض ، دهش العم أبو يوسف من هذا السؤال وقال :

— نحن لا نستعمل سباخاً قط ، فالطبيعة هى التى تتكفل بتسبيخ الأرض . إن أرضنا ولله الحمد طيبة ، وتربتها خصبة جيدة .

— قال الدكتور خليل : إنك على حق ياعم أبو يوسف فيما تقول ، دعنى أشرح لك كيف أن الطبيعة فى لبنان قمينة بتسبيخ الأرض .

العوامل الطبيعية التى تؤثر فى خصوبة التربة اللبنانية

قال الدكتور خليل :

— كان الإنسان فيما مضى يعتبر حدوث البرق ، الذى يعقبه قصف الرعد كأنه كارثة من كوارث الطبيعة ، تهدد حياته بالفناء ، فكان مجرد سماع الإنسان قصف الرعد يثير الرعب فى نفسه ، ويلقى الروع فى قلبه ، غير أن العلم الحديث قد أثبت أن للبرق وللصواعق فوائد جمة ، وتأثيراً فعالا فى خصوبة التربة ، فاحتكاك الغيوم بعضها ببعض ثم احتكاكها بالأرض ، يحدث شرارات كهربائية تكون نتيجتها تحليل الغاز الموجود فى طبقات الجو إلى عناصره الأولية ، فتنفصل ذرات الأكسيجين عن ذرات النتروجين

الموجودة بكميات وفيرة فى هذا الغاز ، فتهبط مع الأمطار إلى الأرض ، فيصيب كل كيلومتر مربع منها ما يقرب من ٣٠٠ كيلو جرام ، تؤثر تأثيراً مباشراً فى خصوبة التربة وتجعلها صالحة للزراعة .

ويؤكد علماء الطبيعة والكيمائيون ، بأنه ينتج عن حدوث هذه الظاهرة الطبيعية أكثر من مائة مليون طن نتروجين سنوياً ، تستقبلها الأرض بالترحاب ، وتكون من أكبر العوامل على إخصابها . ثم إن لبنان بطبيعة موقعه الجغرافى ، وكثرة هطول الأمطار فيه فى فصل الشتاء، وحدوث البرق والرعد ، لا يشذ عن هذه النظرية . هذا هو التحليل العلمى لكلامك ياعم أبو يوسف .

أعجب العم أبو يوسف بكلام الدكتور خليل، وبتعليله العلمى المفيد .

وبعد أن أخذنا قسطاً كبيراً من الراحة فى دار أبى يوسف شكرنا له ولامرأته الفاضلة حسن ضيافتهما ، وانصرفنا .

إلى دير مار مارون عنايا
الناسك القديس

كانت الشمس تزحف متباطئة فى برجها ، ناشرة أشعتها الذهبية فوق الربى والآكام عند ما أخذت سيارتنا تغذ السير فى طريق معبدة غايتها دير مار مارون عنايا لزيارة ضريح الناسك القديس الأب شربل مخلوف ، الذى يكرمه جميع اللبنانين على اختلاف مذاهبهم من مسلمين

ودروز ومسيحيين والذى يعتز حسن سائق سيارتنا بصورته الموضوعة أمامه فى السيارة ويستبشر بها خيراً .

وكنا نقابل أثناء سيرنا السيارات الفخمة غاديات رائحات فى هذه الطريق وكانت بالأمس مهملة لا يقربها إلا رعاة الماعز ، ولا يجوس خلالها سوى الفلاحين .

ولما أشرفنا على الدير كانت ساحته تغص بالسيارات ، وتطفح بالناس ، وقد أتوا لزيارة ضريح رجل الله الذى يفعل كثيراً من المعجزات

قصدنا ضريحه الطاهر ، فوجدنا أمامه جموعاً من طلاب الحاجات ، وقد وقفوا بخشوع مرفوعين بقلوبهم إلى أعلا ، فوقفنا بينهم ، وشعرنا بقرارة نفوسنا بما يشعر به هؤلاء الناس .

وبعد أن تجولنا فى أروقة الدير بصحبة راهب كان يشرح لنا كل ما تقع عليه عيوننا ، صعدنا إلى المحبسة حيث قضى الناسك شربل حياته ، فإذا هى تقع فوق رابية عالية ، يمتد النظر منها إلى أفق بعيد المدى ، فسيح الأرجاء حوى صوراً شتى من ألوان الجمال ، وتحيط بهذه المحبسة أشجار السنديان وتنبسط تحتها بلاد كسروان ، وتقوم فى وهادها ووديانها غابات السنديان والبلوط ، وحول المحبسة كروم العنب التى كان يتعهدها الناسك شربل بعنايته .

وتتألف هذه المحبسة من خمس حجرات صغيرات ، أقيمت على جانبى ممشى ضيق ، ولما أن وقفنا أمام حجرة منها فتحها الراهب الفاضل وقال :

فى هذه الحجرة كان ينام الأب شربل ، وكان فراشه من ورق

شجر السنديان ، وكان يتوسد قطعة من الخشب .

وبعد أن مكثنا مدة فى ذلك الجو الساحر نعيش بالذكريات مع الأب شربل الناسك القديس غادرنا تلك البقعة الطاهرة التى اكتسبت شهرتها من ناسكها ونحن نحمل لها فى طيات قلوبنا أجمل الذكريات .

الفصل التاسع

فى الطريق إلى مصايف المتن

انطلياس

أنطلياس ضاحية قديمة من أجمل ضواحى بيروت بما فيها من بساتين يانعة ، ذات مناظر خلابة فاتنة قريبة من شاطىء البحر مكثنا فيها يوماً وبعض يوم ، بعد عودتنا من كسروان ، تجولنا فى متنزهاتها المشهورة ، وجسنا خلال بساتينها العامرة بأشجار البرتقال والليمون والتفاح والموز المتشابكة الأغصان ، وقد غرست بشكل هندسى يسمح معه زراعة الخضروات فى المسافات الشاغرة بينها ، فكأن الناس فى هذه البقعة من الأرض أرادوا أن يستغلوا كل شبر فيها .

نبع الفوار

ويقع فى الجهة الشرقية منها ، نبع الفوار الشهير ، وتنبثق مياهه من رمال بيضاء اللون ، ترتفع فى الجو على هيئة نوافير ، ثم تهوى إلى مستقرها ، وتجرى فى قنوات وهى تترنم بين الأعشاب النامية على الجانبين ، وتتهامس مع الحصى الصغيرة حين تدفعها أمامها عند انحدارها ، لتروى الحدائق

والبساتين ، ناثرة رذاذها فى الهواء ذات الشمال وذات اليمين ، حتى ليبدو كأنه لؤلؤ منثور . جلسنا فى المطعم المقام أمام هذه النوافير الطبيعية التى ليس للإنسان يد فى صنعها ، نمتع العين بروعة المناظر التى تكتنفنا ، ونتناول ما تيسر لنا من طعام فى ذلك الجو الساحر ، حتى إذا انتهينا ، غادرنا المكان وسلكنا طريقاً يوصل إلى رابية عالية بدت لنا منها بساتين أنطلياس ، كبساط أخضر اللون ، رصعته يد الطبيعة بخيوط من لجين ، وفرشته على أديم أرض تضرب إلى الحمرة فى لونها ، لوفرة ما فيها من بساتين تجاور بعضها بعضاً ، يتخللها مجارى المياه العذبة التى تغذيها وتتعرج فى كل شبر من أراضيها .

الشاطىء الجميل

هبطنا إلى الشاطىء الذى ينبسط تحت أقدام هذه الضاحية الفاتنة ويمتد فى الطول إلى مسافات بعيدة ، فلم نر مع الأسف الشديد ، أثراً للحياة فيه ، فقد تركه ولاة الأمور على سجيته وأهملوه ، ولم يمدوا إليه يد الإصلاح والتهذيب ، بإقامة المقاهى عليه وإنشاء المطاعم فى ضواحيه ، ليصبح متنزهاً عاماً ، وشاطئاً ملائماً للاستحمام يؤمه الناس فى الصيف والشتاء على السواء ، لأن منطقة أنطلياس وما جاورها من المدن الساحلية من أجمل مشاتى العالم ، لاعتدال الطقس فيها فى فصل الشتاء ، وكم وددنا لو أن هناك مقهى أو مطعم نجلس فيه ، لنتناول شيئاً من المرطبات ،

أمام زرقة البحر ومياهه الهادئة ، بل اكتفينا بالجلوس فوق كسبان الرمل الناعم ، نسرح الطرف فى جماله الساحر ، ونشاهد مراكب الصيد ، تتنقل فوق سطحه وشباكها خلفها ، وبحارتها من فوقها يتنقلون بخفة ورشاقة ، كما تتنقل الطيور فوق الأفنان .

وكانت الأمواج تتسرب إلينا بخفة من غمرات الماء ، وتسرق إلينا ، وهى تهم بأن تنثر رذاذها الفضى علينا ، تريد مداعبتنا ، ولكنها لم تفعل ، بل كانت ترتد عنا إذا دنت منا ، حتى لا تعكر علينا صفو وحدتنا ونحن نتعبد فى محراب نبتون إله البحر .

أيها الشاطئ ما أجملك برملك الناعم كالحرير ، الذى افترشه عبريت جنية البحار فى غابر الأزمان ، وتفترشه اليوم أجسام الحسان ، تحت أشعة شمس لبنان ! !

أيها الشاطئ ، ما أبهاك بصخورك التى تتوج هامتك وهى تتحدى الأنواء والأعاصير ، وتهزأ بالزوابع والعواصف ، فلا تقوى هذه جميعها على النيل منها ، بل ترتد عنها كليلة ذليلة ، لأن فى هذه الصخور الصلدة العزم والقوة ، وفى شموخ قممها آيات النبل والعظمة ! ! ما أروعك أيها الشاطئ بخلجانك التى تباهى سائر خلجان العالم بشكلها الرائع ، ومنظرها المهيب ، وهى تحتضن مدن لبنان الساحلية ، ويتردد فيها نسيم لطيف يزيده طرباً صوت أمواج البحر ، التى ترتطم بصخور هى البقية الباقية من جبال راقدة فى سفح جبل لبنان ،، وكأنى بهذه الأمواج تعزف على تلك الصخور أنشودة الخلود على معزف الطبيعة ! !

أيها الشاطئ أنك حقاً جميل بجبل لبنان الذى يشرف عليك من عل، بما فيه من مناظر خلابة فاتنة .

جورة الزيتون

كانت سياراتنا بالقرب من الشاطئ ، فامتطيناها ، ودرجت بنا فى طريق تحف به الأشجار والبساتين ، ومجارى المياه على الجانبين ، حتى بلغنا الساحة العمومية بعد دقيقتين ،أخذت سيارتنا بعدهما تمر فى طريقٍ متسعٍ معبد بالأسفلت ، إلى أن استقبلتنا جورة الزيتون ، فسمعنا لأول مرة تلك الموسيقى الطبيعية التى لا تشنف آذان من لا يألف سماعها . إنها موسيقى صرير الجنادب المستوية فوق أفنان الصنوبر آمنة مطمئنة . كانت ترانا ولا نراها ، وتسمعنا صريرها رغم أنوفنا .

ويطمئن سكان الجبال إلى سماع مثل هذه الأصوات التى يألفونها ، كما يطمئنون إلى سماع الأغانى والأناشيد الممتعة ، وسماع عواء بنات آوى والذئاب فى الغابات سواء بسواء ، وهدير المياه المتساقطة من منحدرات الجبال ، وتغريد الحساسين ، وزقزقة العصافير فوق الأفنان ، وتلاطم الأمواج على الشاطئ الفاتن ، وقصف الرعد فى أيام الشتاء ، ونقر الأمطار فوق الأغصان العارية ، وتوقيع البَرَد فوق الجبال ، وعصف الرياح فى الوديان العميقة ، ورؤية الزهر المختلف الأشكال والألوان وهو يتفتح من الأكمام فوق الهضاب والربى فى الربيع ، ناشراً عبيره الذكى بخجل

وحياء ، على حين تنوء أشجار الفاكهة بما تحمله من ثمار فى ركابها الخير والبركات . كل هذا من مستلزمات جمال الطبيعة فى لبنان ، تطالعك به بتغير فصول السنة . ذلك هو سر الجمال فى لبنان .

وجورة الزيتون، ولعلها سميت بهذا الاسم لوفرة شجر الزيتون الذى فيها قديماً ، هى بقعة ساحرة ، يملأ جمالها العين ، كسا رباها شجر الصنوبر الرائع ما بين كبير وصغير ، يرجع تاريخ غرس بعضه إلى عشرات السنين يصطف بانتظام على جانبى الطريق ، كما يقوم بعضه فوق منحدرات ليست بوعرة تهبط بالنظر إلى واد ليس بعميق ، وتبسط أوراق هذه الأشجار الأبرية التى تملأ رائحتها المسكية الهواء ظلها الشفاف فوق منبسط من الأرض تستطيع العيون أن تستشف منه زرقة السماء .

وقد أخبرنا أحدهم أن الأمريكان قد أشتروا قطعة كبيرة من الأرض فى بقعة جورة الزيتون ، لإقامة مستشفى عليها ، فإذا صح هذا ، فإن أشد ما نخشاه ، هو قطع شجر الصنوبر الذى هو زينة أحراش لبنان .

استأنفت سيارتنا سيرها بعد أن تجولنا فى هذه البقعة مدة بين أشجارها وصخورها ، فى طريق مفروش بالأسفلت ، كثرت منحنياته كباقى طرق لبنان ، تفادياً من حوادث الصدام ، غرست أشجار الصنوبر على على جانبيه ، فمررنا بقرى كانت مهملة فى الماضى لا شأن لها ، غير أن يد العمران اليوم قد مستها بعصاها السحرية فأحالتها إلى جنان ، فقد شيدت فوق رباها كثير من المبانى الحديثة ، كما غرست فى رحباتها الحدائق الغناء الملأى بأشجار التفاح والكمثرى والبرقوق والمشمش ، وذلك

بفضل أموال المغتربين ، الذين هاجروا وأثروا وعادوا إليها ، وآثروا الإقامة فيها .

قرنة الحمراء والفريكه

ما زلنا نظعن إلى أن انبسطت عن يسارنا قرية قرنة الحمراء ببيوتها الجميلة المعممة بالقرميد الأحمر ، ومن حولها كروم العنب والحدائق والآكام المغطاة بالأشجار الباسقة ، ثم ما لبثت أن بدت لنا قرية الفريكه مسقط رأس المرحوم أمين الريحانى الكاتب اللبنانى الشهير ، ورفيق جبران وميخائيل نعيمه فى الغربة وواحد من اللبنانيين الذين حملوا مشعل الثقافة العربية فى المهجر .

وقد أقيمت هذه القرية على شفير الوادى المشهور بمناظره الطبيعية الفاتنة ، وأشجاره السامقة وينحدر تدريجاً حتى نهر الكلب ، فيغسل فيه قدميه العاريتين .

أظهرت الآنسة سلوى رغبتها فى زيارة ضريحه فى قرية الشاوية ، فتوجهنا إليه سيراً على الأقدام ، فى طريق معبدة ، فلما بلغناه ، ضفرنا إكليلا جمعنا زهوره من الحقول المجاورة ، ووضعناه على الضريح القائم عند سفح رابية يكللها شجر الصنوبر الدائم الاخضرار فى ظل السنديانات الثلاث التى تظلله ، وبعد أن وقفنا أمامه صامتين نحو دقيقتين ، مترحمين على من يحويه ، أطرفنا العم أبو طنوس كعادته معنا ، بحديث قال لنا

إنه دار فى الشتاء ، بين شجرة صنوبر كبيرة قديمة الأيام وأخرى صغيرة فى وادى الفريكه ، يوم أن رأتا أميناً إثر عودته إلى لبنان ، بعد غيبة طال أمدها أعواماً .

– قالت الصنوبرة الصغيرة لأمها : من هذا الغريب ، الذى لا يخاف السكنى معنا فى هذا الشتاء ؟

– أجابت الأم : ما هو بغريب يا ابنتى ، إنما هو من نبات هذه الأرض وصخورها ، ومن سنديان هذه الجبال ، هو من أبنائنا يا بنية ، وقد طالما حملته وحمّلته من ثمارى لما كان صغيراً ، وطالما فرشت له من ورقى ليستريح عليه ، ونشرت له ظلى ، كى يتفيأه ، ويزيل عنه تعب الجسد وهم الفؤاد ، وبعثت إليه من أرج نسيمى ، ما ينعش النفس ويحييها ، ومع ذلك فقد هجرنا زمناً ، وعاد اليوم إلينا ، ليكفر عن خطيئة هجره لنا ، وينعم فى ظلنا . حبيه يا ابنتى ، فإنه يحبنا .

بهذا كانت تتحدث الشجرة عند ما عاد أمين إلى لبنان ، بعد غياب عدة أعوام .

وما قالته شجرة الصنوبر الوفية الأمينة المخلصة بالأمس لأمين ، تقوله اليوم لكل واحد من المغتربين اللبنانيين ، الضاربين فى مشارق الأرض ومغاربها ، تهيب بهم : أن عودوا إلى لبنان وقد طالت غربتكم ، وانحنى ظهره من الحزن على فراقكم ، إنه اليوم فى انتظاركم لتعمروه ، ولتجددوا شبابه بوجودكم فيه ، وبذلك يعود اللبنانيون يترنمون بذلك المثل القديم « هنيئاً لمن له مرقد عنزة فى جبل لبنان » .

منضدة اللينوتيب العربية

وقبل أن نهم بمغادرة الفريكه ، قال لنا العم أبو طنوس :

ــ هل تعرفون لمن الفضل فى اختراع منضدة اللينوتيب العربية ؟ إنه للبنانى مغترب عن هذه البقعة ، قد عز عليه أن يرى منضدة اللينوتيب تنطق بجميع اللغات ، إلا لغة الضاد ، فأخذ يقدح زناد فكره ، ويفحص بعين الخبير منضدة اللينوتيب باللغة الإنجليزية ، إلى أن هداه فحصه وقوة ملاحظته إلى اختراع منضدة اللينوتيب العربية ، التى ينعم العالم العربى اليوم بفوائدها .

هذا اللبنانى المغترب هو المأسوف عليه الكاتب الكبير المرحوم سلوم مكرزل شقيق المرحوم نعوم مكرزل مؤسس جريدة الهدى النيويوركية وواحد من اللبنانيين الذين نشروا لغة الضاد فى العالم الجديد .

قرنة شهوان

انتهينا بعد زيارتنا لضريح الريحانى إلى قرية قرنة شهوان ، فى طريق متصاعدة بين الأشجار . وهذه القرية جاثمة فوق هضبة تعلو سطح البحر بمقدار ٦٧٠ متراً وتطل على بيروت ، وقد بدا لنا منها مرفأها الداخل فى البحر ، كأنه بارجة كبيرة تندفع بقوة نحوه لتمخر عبابه ، كما ظهرت

لنا قرى كثيرة متناثرة هنا وهناك ، غارقة بين الحمائل والغياض .

وقرنة شهوان سميت بهذا الاسم نسبة إلى المدعو شهوان وقد أقطعه إياها أبو نوفل حصن بن فياض جزاء شجاعته ، وهى مقر كرسى مطرانية قبرص . زرنا فيها المدرسة اللبنانية الشهيرة التى تخرج فيها فى الماضى كثير من رجالات لبنان الذين يشار إليهم بالبنان ، أما اليوم فقد عفا عليها الزمان ، وشاخت بمرور الأيام ، ولا يقيم فيها إلا عدد قليل من الكهنة ، وكان عددهم فى الماضى كبيراً جداً .

عين عار

ولما بلغت بنا السيارة عين عار ، وهى مركز اصطياف جميل هادئ ، جوها ساحر فاتن صافى الأديم ، تحيط بها الغابات الكثيفة وكروم العنب ، سارت فى وسطها مخترقة الطريق القديم ، ولما بلغنا القنيطرة بدت لنا ضيعة بيت شباب المحبوبة الرابضة فوق صدر الوادى ببساتينها اليانعة وأشجار الحور والجوز والصفصاف التى تزينها وبيوتها الجميلة التى يعلوها القرميد الأحمر ، قد علقت فيها بعضها فوق بعض بشكل هندسى بديع ، يمتد فى الارتفاع حتى الجهة الشرقية منها ، فخفق قلبى لرؤيتها ، واغرورقت عيناى بالدموع بعد غياب ربع قرن من الزمان عنها من شدة فرحى .

بيت شباب

وبيت شباب كلمة آرامية معناها بيت الجيران ، وهى من أكبر

قرى لبنان ، وأعظمها شأناً ، ومع ذلك يحلو لأهلها ولجيرانهم فى القرى المجاورة أن يسموها « الضيعة » ، ماؤها عذب سلسبيل ، وهواؤها أبداً عليل ، وسماؤها دوماً صافية الأديم ، أهلها دمثو الأخلاق لطيفو المعشر ، يكرمون الضيف ، ويرحبون بالغريب .

وتحيط بهذه القرية البديعة ، منتزهات هى آية فى الروعة والجمال ، وتكتنفها غابات باسقة الأشجار ، تزينها آكام وربى متباينة الارتفاع .

ووصف صاحب دائرة المعارف قرية بيت شباب فقال فيها :

« ... صهر أهل بيت شباب المعادن فصبوها أجراساً ، وطبخوا الرمل فأخرجوه فخاراً ، وغزلوا القطن فصيروه نسيجاً ، فما رن جرس على قمة جبل ، أو طن فى بطن الوادى ، إلا ورددت رناته العذبة ذكر بيت شباب ، وما رأيت جرة على كتف قروية ، أو مقلاة يفقفق البيض فيها إلا ذكرت بيت شباب ، وما لقيت طائفة من اللبنانيين يرتدون الديما إلا ذكرت بيت شباب ... »

فسلام عليك يا بيت شباب القرية المحبوبة ، سلام عليك أيتها القرية الهادئة الوادعة المستقرة فى بطن الوادى كقفير النحل ، سلام على مسقط رأسى ، ومهوى فؤادى ، ومحط آمالى ، ففيك أيتها القرية الفاتنة أبصرت النور ، حتى إذا عن الطوق دببت وشببت ، خرجت إلى دروبك وطرقاتك لعبت ، وتحت ظل أشجار حراجك الباسقة فى أيام القيظ تفيأت ، ومن مياه ينابيعك العذبة الباردة شربت وارتويت .

دخلنا القرية ، ونحن فى أشد الشوق إلى لقاء من فيها ، فقابلنا الأهل

والأقارب والأصحاب بمجالى الإكرام والترحاب ، وأنزلونا بينهم على الرحب والسعة مدة جاوزت عدة أيام زرنا فيها مصانع صب الأجراس ، وصنع الفخار ، وحياكة الديما ، بأنوال بدائية ،فأعجب زملائى بما شاهدوا ، غير أن سلوى لاحظت فى أثناء زيارتنا لمصانع صب الأجراس ، أن آل نفاع ينفردون دون سواهم فى لبنان بهذه الصناعة ، فسألت العم أبا طنوس عن السر فى ذلك .

فأجاب قائلا : نفردت قرية بيت شباب بسبك الأجراس وانحصرت هـذه الصناعة فى آل نفاع ذلك لأن أحد أجدادهم القدامى ، كان أول من تعلمها من صناع أوربيين قدموا خصيصاً إلى لبنان ، سنة ١٧٨٠ لسبك جرس لكنيسة مار عبدا فى بكفيا ، ثم أخذ أولاده وحفدته من بعدهم ، يزاولون هذه الصناعة فى لبنان ، ويدخلون عليها التحسينات بمرور الأيام ، وبقى أمرها سراً بينهم لا يبوحون به لأحد ، فلا عجب إذا كانت جميع أجراس لبنان ، بل جميع أجراس الشرق العربى ، هى من صنع بيت شباب .

ويكيف آل نفاع صناعة صب الأجراس ، كما يشاء لهم فنهم ، فيجعلون الجرس الواحد ، يختلف عن الآخر فى رنينه ، وتباين مدى صوته وقوته .

أسواق بيت شباب

تجولنا فى أسواق هذه الضيعة المقامة فى ساحاتها الثلاث : السفلى

حيث توجد معامل صنع الفخار التى أبقت عليها المهاجرة ، والوسطى (محلة البلاطة) والعليا (النبع) يصلها بعضها ببعض طريق هو أردأ ما وقعت عليه عيوننا ، فلم نر فى تلك الأسواق ، سوى بضع حوانيت ، هى أفرغ من جراب أم موسى ، يتردد عليها نفر من الشيوخ والأطفال والنساء ، أما الشبان فحسبك أن تبحث عنهم بمصباح ديوجينوس ، فقد استهوتهم الغربة ، وسلبت لبهم أفريقيا تلك الزنجية الساحرة فأوقعتهم فى شرك هواها ، فتركوا من أجلها أهلهم ، وهجروا ضيعتهم المحبوبة ، فارتموا بين أحضانها ، فتلقفتهم بشوق ، ثم ما لبثت أن كفرت بهم ، وتنكرت لهم ، فذهب الكثير منهم ضحية تلك الزنجية الماكرة ، فلقبت أفريقيا بحق « مقبرة بيت شباب »

مسكينة أنت يا بيت شباب ! ! فقد أقفرت اليوم من شبابك ، وكانوا بالأمس القريب ، زينتك وبهجتك وتاج على مفرق جبينك تباهى به سائر الضيعات ، فما أحراهم اليوم أن يخلعوا عليك لقب « بيت الشيوخ »

وفى أسفل هذه الضيعة المنكودة الحظ فندق هو الوحيد فيها يطل على مصايف كسروان وعلى الوادى المملوء بالمناظر الطبيعية الفاتنة ، ويقيم فيه صاحبه من حين إلى حين حفلات لرواده القليلى العدد ، وقد أنسنا فى أثناء وجودنا فى حفلة من تلك الحفلات بلقاء أسرتين مصريتين كانتا تصطافان فى بيت شباب ، لهدوئها ولروعة المناظر التى تحف بها ، وغابات الصنوبر التى تحيط بها فتعطر بأريجها الذكى جوها . .

وقد أقيمت فى الساحة العليا منها بجوار النبع بعض مقاه وسط الأشجار الباسقة وأمام المناظر الطبيعية الباسمة .

صناعة الديما

كان فى قرية بيت شباب ومزارعها قبل الحرب الكبرى الأولى أكثر من ألفى نول لحياكة الديما ، النسيج الوطنى اللبنانى ، وكانت هذه الأنوال مصدر رزق لكثير من العائلات ، ورمزاً للتحرر من نير الفاقة والعوز ، ودرعاً واقياً ضد الاغتراب ، وكان لا يخلو بيت فى بيت شباب وفى مزارعها من نول ، يتعاون على العمل فيه جميع أفراد الأسرة ، كل فى حدود طاقته ، أما اليوم ، فقد أمست صناعة حياكة الديما فى حكم العدم ، لأن الجيل الجديد يترفع عن العمل فيها ، كما يترفع عن لبس منسوجاتها بعد أن غزت الأقمشة الأوربية جميع أسواق لبنان ، وبينما نحن نجتاز الساحة السفلى مشياً على الأقدام ، سرى إلى آذاننا صوت نول منبعث من منزل متواضع صغير ، فوق كنيسة سيدة الجوزة ، وقد سميت بهذا الاسم ، نسبة إلى شجرة جوز كبيرة ، كانت مغروسة فى ساحتها أمامها ، حيث كان الشدياق متى الشهير فى الزمن القديم ، أستاذ صاحب مجمع البحرين الشيخ ناصيف اليازجى والكاتب الكبير المرحوم أمين الريحانى ، ونعوم مكرزل مؤسس جريدة الهدى فى نيويورك وغيرهم ، يعلم أطفال قرية بيت شباب وما جاورها مبادئ القراءة والكتابة .

وقفنا أمام هذا البيت نجيل الطرف فيه ، فإذا بصبية بقامتها المشوقة ، وقدها المياس ، تعتلى خشبة نول ، كما يعتلى الفارس صهوة جواده ، فكانت تدفع دفته بيسارها وتقبض على عنان المكوك بيمينها ، وتوجهه إلى غايته برشاقة وبراعة ، وهى تنشد أغانى العتابا وغيرها بصوتها الرخيم ، وكانت قدما تلك الحسناء فى الوقت ذاته ، ترتكز على دواستين ، كانتا بين هبوط وصعود يسمع لها أزيز ، فيه انسجام مع صوت المكوك ، وهو يروح ويجيء فى مجراه ولا يتعداه .

وكانت هناك عجوز شمطاء ، محدودبة الظهر ، جالسة على كرسى صغير ، أمام دولاب تدير عجلته بيمناها ، وتعالج خيطاً آتياً من شلة غزل موضوعة حول إطار من القصب ، بيسراها فتلفه على بكرة مستطيلة الشكل ، كانت الفتاة تضعها فى المكوك .

ذكرتنا رؤية هذا الدولاب ، والنول ، بمغزل غاندى الزعيم الهندى الشهير ، الذى كان مغزله أول لبنة وضعها فى بناء صرح بلاده الاقتصادى ، حتى باتت الهند اليوم ، من أكبر الأمم الصناعية ، ومن أعظمها شأناً ، هذا فى الهند ، أما فى لبنان فجميع الصناعات التى كان يزاولها الأجداد أصبحت اليوم فى كف القدر ، تلك هى سيئة أخرى من مساوئ الاغتراب .

لاحظ علينا العم أبو طنوس دهشنا ونحن جلوس تحت شجرة التوت الوارفة الظل ، أمام المنزل ، ننصت إلى نقر دفة النول ، وعيوننا ترمق الشبابية الحسناء ، وكانت لاهية عنا ، منصرفة بكل قواها إلى مراقبة

نولها ، وهي تشنف آذاننا بصوتها العذب ، وتتحكم فى عنان نولها الذى هو سياج عزتها وكرامتها ، كما يتحكم الطفل فى لعبته فقال :

— إن لسماع صوت الأنوال وهى تعمل عند الفجر وقعاً فى النفس أروع فى فصل الشتاء منه فى الصيف ، حين يتجاوب صدى نقر المكوك ، وصوت دفة النول ، وأزيز الدواسات مع هطول الأمطار فى الخارج ، ووقعها على سطوح المنازل ، ودقها على الأبواب والنوافذ ، فكأن كل هذا جوقة موسيقية ، قد اشتركت فى عزف سيمفونية ، هى من وحى الطبيعة . سيمفونية ما أجملها ، وما أعظم وقعها فى النفس ! ! كم وكم من المغتربين اللبنانيين الذين تبتلعهم المدنية الصاخبة ، ويستهويهم زخرف الحياة ، قد نسوا تلك الأصوات ، أو تناسوها ، وحرموا من لذة سماعها ! ! كم وكم من أولادهم لا يعرفونها ، بل ربما لم يسمعوا عنها ، أجل تلك هى صورة أخرى من صور الجمال فى لبنان .

الفاخورى

تركنا تلك الشبابية الفاتنة اللطيفة الظريفة ، تواصل عملها الذى هو عنوان كرامة ضيعتها وتاج فخر على مفرق جبينها ، وهبطنا فى طريق ، نريد الحى الذى فيه معامل الفخار ، فلما بلغناه ، راعنا أن نراه مقفراً ، وكان فى الماضى يعج بصناعه الماهرين ، وكانت آنية الفخار تملأ ساحاته الرحبة ، وقوافل الدواب بجلاجلها وزينتها فى انتظار حمولتها .

هناك نفر قليل لايتجاوز عددهم أصابع اليد ، لم تستهوهم الغربة ، مكثوا مخلصين لضيعتهم ، محبين لفنهم ، رأينا منهم رجلا مسنّاً ، يعمل فى معمله المتواضع بصبر وجلد نادرين ، فكان يتناول الطين بيديه ، ويكفيه كما يريده له فنه ، ويدير بقدمه الحافية فى الوقت ذاته دولاباً من خشب ، وقفنا نراقبه فى عمله ، بعد أن حييناه ، ورد لنا تحيتنا بأحسن منها ، فكان منظر الطين وهو يتحول بين يديه من شكل إلى شكل من أمتع المناظر ، وأعظمها وقعاً فى النفس ، وبعد مدة ، رأينا قطعة الطين ، تخرج من بين يدى الفاخورى الماهر البارع إناء جميلاً لطيفاً التفت إلينا العم أبو طنوس وقال :

— هذا هو الفاخورى المسلط على طينه يسحره بفنه الرفيع فيخرج منه إناء للكرامة ، وآخر للهوان .

هنيئاً لك بيت شباب بصناعك الذين حفظوا جميلك وآثروا الإقامة فى ربوعك ولم يتركوك .

وأخيراً هل تولى الحكومة مثل هذه الصناعات الوطنية عنايتها ، وهى اليوم فى طريق الزوال ، لقلة الإقبال عليها والأيدى العاملة التى تعمل فيها؟

المعهد اللبنانى

تكرم أحد الآباء الأفاضل ودعانا لزيارة المعهد الوطنى للذكور ، المشيد فى محلة « المرجه » على رابية تواجه مصايف كسروان ، وتنبسط

تحتها تدريجاً القرى الصغيرة ببيوتها المتوجة بالقرميد الأحمر ، وأمامها الحدائق اليانعة ، إلى أن تتصل بالشاطىء الرائع الذى تبلع مياه البحر الزرقاء رماله الناعمة البيضاء ، كما تشرف فى الوقت ذاته على الوادى السحيق ، الذى تنتصب فوق رباه أشجار الصنوبر والسنديان ، فتملأ الجو عبيراً ، فيه قوة وفيه نشاط ، فلما وصلنا إليه ، أخذ يشرح لنا كل كبيرة وصغيرة عنه . ونحن نطوف بردهاته الواسعة النظيفة الفاخرة الأثاث المستوفاة لجميع الشروط الصحية .

وقد أعجبنا بالقائمين بأمر هذا المعهد الناشىء ، الذين يبذلون كل ما وسعهم الجهد فى ترقيته ، ليكون فى مصاف أكبر المعاهد العلمية ، لا فى لبنان فحسب ، بل فى الشرق العربى بأكمله ببرامجه الشائقة ، وأساليب التعليم الحديثة المتبعة فيه .

وقد أخبرنا الأب المرافق لنا ، بأن كثيراً من اللبنانيين المغتربين يرسلون أولادهم إليه ، حيث يتلقون العلم مع الفضيلة .

ويستقبل المعهد اللبنانى فى فصل الصيف ، الناشئة الصغار من الأقطار الشرقية والعربية ، حيث يقضون فصل الصيف ، لقاء أجر ضئيل جداً ، ولا شك فى أن هذه فكرة حسنة ، ودعاية طيبة للمعهد ولقرية بيت شباب وللبنان .

منتزه عين الحشيمه

وبعد أن أكملنا جولتنا فى هذا المعهد ، شكرنا للأب حسن رعايته

لنا ، وجميل احتفائه بنا ، ثم ودعناه وركبنا سيارتنا ، فانطلقت بنا فى طريق يتفرع منه طريق آخر يوصل إلى منتزه عين الحشيمة الفاتن ، تحف به حدائق الفاكهة ، وكروم العنب ، وجلول التين ، على الجانبين ، ويمتد هذا الطريق إلى دير القديس بطرس الذى تقوم على مقربة منه صومعة صغيرة انتصبت أمام مدخلها أشجار السرو والصنوبر الجميل المنظر ، ويقع تحتها على مدى البصر كرم واسع الأرجاء ، كما يوصل هذا الطريق إلى قرى عين الخروبة ووادى شاهين وحملايا وسواها من القرى الأخرى التى لا تقل فى روعة مناظرها وجمالها عن بقية قرى لبنان .

وكان يقيم فى هذه الصومعة إلى عهد قريب ، ناسك عاف العالم وما فيه من متعة ولذة ، فقضى حياته كلها منطوياً على نفسه ، لا يقابل أنثى حتى ولو كانت ملاكاً هابطاً من السماء ،ولا يختلط بالناس إلى أن مات شهيد المحبة للرب ولأوليائه الصالحين لا للعبد .

تلك هى قصة هذا الناسك ، مقتضبة قد قصها علينا العم أبو طنوس ، ونحن جلوس فى المقهى بالقرب من عين الحشيمة ، نستمع إلى تغريد الطيور فوق الأفنان ، وننصت إلى حفيف الأشجار ، وإلى أصوات صبية كانوا ينشدون الأغانى اللبنانية وهم يتجولون طلقين فرحين فى الحقول ، والحدائق والكروم القريبة بدون رقيب ولا حسيب ، حتى إذا انتهوا من النشيد الوطنى اللبنانى الذى مطلعه « كلنا للوطن . . » أخذوا ينشدون نشيد « على الإله القوى الاعتماد . . » وكانت الوديان تردد صدى أصواتهم

العذبة ، وقد هزنا الطرب لدى سماعنا مقطوعة « فانهضى يا مصر . . . » ، هزنا الطرب ودب الحنين إلى مصر فى قلوبنا ، واغرورقت من شدة الفرح بالدموع عيوننا ، فأخذ العم أبو طنوس علينا ذلك من تغير ملامح وجوهنا فقال :

ــ إلى هذا الحد بلغ بكم التأثر لدى سماعكم كلمة مصر فى النشيد؟

ــ قلنا وأكثر يا عم أبو طنوس .

قالت سلوى : إن للفظة مصر وقعاً على الآذان خفيفاً يفيض بالرقة والحنان .

ــ أجاب السائق حسن وهو من الشباب المثقف : أجل لا يضارعها فيها سوى لبنان .

ــ قال العم أبو طنوس : أى والله يا إبنى لقد صدقت .

وكان إذ ذاك قد هبط علينا أولئك الصبية ، فأنسنا بمرآهم وفرحنا بوجودهم بيننا ، ولا سيما عندما عرفنا أنهم من مصر ويصطافون فى بيت شباب ويقيمون فى المعهد اللبنانى ، فدعوناهم والآنستين المرافقتين لهم إلى الجلوس معنا فلبوا الدعوة شاكرين ، وجلسوا القرفصاء على الأرض الرملية فقدمنا لهم تفاحاً شهياً وتيناً أبيض اللون لذيذ الطعم من منتجات بيت شباب ، فأكلوا وشربوا من العين ثم دار الحديث بيننا عن لبنان فراح كل طفل من هؤلاء الأطفال الأبرياء يعبر عن محاسن الطبيعة فى لبنان ، وفاكهته اللذيذة ، ومياهه العذبة المثلجة ، بما يوحيه إليه أفق خياله الضيق .

وقالت لنا إحدى الآنستين فى النهاية : إن لبنان جنة الله فى أرضه ،

بل هو سجل خالد كتبت يد الطبيعة كل سطر من سطوره بمداد الجمال.

ـ فأجاب السائق حسن : شكراً يا آنسة هذا شعور نبيل ، لا يوجد مثله ، إلا بين أبناء العروبة .

قالت سلوى : لا عجب إذا كان النبل من شيم العرب .

كنا نود أن نطيل جلستنا مع أولئك الصبية لولا ارتباطنا بموعد فى بكفيا ، فودعناهم وغادرنا تلك البقعة الفاتنة ونحن نلوح لهم من نوافذ سيارتنا بأيدينا ونقول لهم إلى اللقاء .

ـ فأجاب الصبية فى مصر إن شاء الله قريباً .

ـ قال حسن :

ـ وفى لبنان السنة القادمة إن شاء الله .

منتزه السناد

كان الوقت ظهراً عندما غادرنا منتزه عين الحشيمة ، فاجتازت سيارتنا بمنتزه السناد وقد أقيمت فيه اليوم بعض مبان حديثة ، أحاطها أصحابها بالحدائق وكروم العنب ، وكم تمنينا لو أن فى هذه البقعة الهادئة ذات الموقع الجميل ، والمناخ الصحى ، والهواء العليل ، فندقاً نقيم فيه بضعة أيام ، أو مقهى نستريح فيه بعض الوقت ، نستمتع بجمال المناظر التى تحف بنا ، ورؤية القرى والدساكر التى تنبسط تحت نظرنا ، ولكن مع الأسف الشديد فإن أهالى بيت شباب قد أهملوا هذا المنتزه ، كما

أهملوا غيره من المتنزهات الرائعة ، التى تكتنف قريتهم الهادئة الوادعة .

متى يا ترى نرى فندقاً فى بقعة السناد ! ! فهى تاج على مفرق قرية بيت شباب . يا لها من بقعة فاتنة يهز جمال المناظر فيها القلوب ! !

الحاووز

وبينما سيارتنا تتابع سيرها فى طريق السناد ، شاهدنا فوق رابية على منبسط من الأرض ، أحواضاً واسعة ، بنيت بالحجر والجير كانت قد أعدت لاستقبال ماء نبع الجماجم الواقع فى جبال صنين تحت بسكنتا ، وتوزيع مياهه على القرى القاطع ، لاستعماله فى الشرب والرى بواسطة مواسير ضخمة كانت قد أحضرتها الشركة التى أنيط بها إنجاز هذا المشروع الحيوى الهام ، ولكن نشوب الحرب الكبرى الأولى ، حال دون إتمامه ، فاستولى الأتراك على المواسير ، ولم يبق اليوم سوى الأحواض وقد تهدمت أجزاء كثيرة منها ، تلك هى المبانى التى يطلقون عليها « الحاووز » . وقد أخبرنا أحدهم ، أن النية متجهة إلى بعث هذا المشروع الحيوى من رمسه تمشياً مع سياسة التعمير التى تتبعها الحكومة اللبنانية فى الوقت الحاضر .

بكفيا

أشرفنا على بكفيا الفاتنة التى ترقد مع ضواحيها الأربع المتجاورة

وهى : بحرصاف ، وساقية المسك ، وبكفيا ، والمحيدثة ، تحت ظلال الأشجار الباسقة تطوقها كروم العنب والمروج الخضراء ذات المناظر التى تأخذ بمجامع القلوب .

وتعتبر بكفيا وقد حرف اسمها من بيت كيفا الآرامية التى معناها بيت الصخرة ، من أجمل قرى المتن ، وأحسنها موقعاً ، وألطفها مناخاً ، وأرقها نسيما ، وأعذبها ماء . شوارعها واسعة نظيفة معبدة بالأسفلت ومضاءة بالكهرباء ، ودورها رحبة واسعة ، قد تأنق أصحابها فى جعلها جميلة الهندسة ، متناسقة البنيان ، حسنة المظهر ، أنشأوا حولها حدائق نسقت فيها أشجار الفاكهة والزهور المتنوعة الألوان .

وتعلو بكفيا عن سطح البحر بمقدار ٩٠٠ متر وتبعد عن بيروت بمقدار ٢١ كيلو مترا ، تقطعها السيارة فى نصف ساعة تقريباً ، فى طريق مفروشة بالأسفلت واسعة قد انتصبت الأشجار على جانبيها ، تتدرج فى الارتفاع إلى أن تصل إليها فتقطعها فى وسطها ، مارة بين البيوت الجميلة والحدائق اليانعة .

دير سيدة النجاة

زرنا فى الجهة الشرقية منها دير سيدة النجاة للآباء اليسوعيين الأفاضل ، الذين لهم فضل لا ينكر على تربية الناشئة فى قرى لبنان الكثيرة ، وهو دير جميل البنيان ، حسن الموقع ، تحيط به كروم العنب وأشجار الفاكهة

وقد شيد على رابية تمتد تحتها غابات واسعة يتوسطها دير التديس نوهرا لرهبان الموارنة يذهب إليه مرضى العيون يلتمسون الشفاء من صاحب هذا المقام .

دير القديس نوهرا

هبطنا إلى هذا الدير مشياً على الأقدام فى طريق منحدرة ضيقة قد عبدتها الأقدام وسط غابة ملأى بأشجار السنديان والبلوط الكثيفة . ولما بلغناه وطفنا فى أرجائه ، لم نر أحداً فيه ، فقد أقفر من رهبانه وخدمه كما أقفرت سواه من أديرة لبنان الجميلة وكانت فى الماضى عامرة بأفاضل الرهبان .

دخلنا الكنيسة فإذا هى خالية خاوية من كل شىء إلا من مقعدين اثنين ، قد نخرهما السوس وعلاهما التراب ، أمامهما صندوق حديدى محكم القفل يقذف الزائرون فيه ما تجود به نفوسهم من النذور .

وشهدنا ونحن نطوف فى أرجاء هذا المعبد الجميل ، تصدعاً فى سقفه ، وشقوقاً فى جدرانه ، فشعرنا فى قرارة نفوسنا بحسرة وأسى للحالة التى وصل إليها هذا الدير ذى الموقع الجميل . ولم نسمع أثناء تجولنا فى أرجائه وفى أروقته الخارجية التى تستقبل الشمس كل صباح فتلقى عليها وشاحاً ذهبياً ، سوى صوت نواح الطير فوق الأفنان ، وكان النسيم العليل يهب عليها ، فيسمع لحفيفها ألحان هى أشبه شىء بالأنات الحزينة منها بالنغمات الشجية المطربة ، ومن تحتها نبع قد نبتت الأعشاب على

جانبيه كان يسجل خرير مائه نغماً يقبض القلب ، فكأن كل شيء فى ذلك المكان كان يشارك الدير فى حزنه لخلوه من ساكنيه ، الذين كانوا يعمرونه فى الماضى ، ويخلعون عليه الحياة .

وبينما نحن نهم فى مغادرته ، إذ بنا نرى راهباً مقبلا نحونا ، قد ألقى عباءته على كتفه ، ونشر مظلته البيضاء فوق رأسه ، وما كادت عيناه تقع علينا حتى رحب بنا ، بدون سابق معرفة وبالغ فى إكرامنا ، ودعانا للاستراحة فى ردهة رحبة فى الدير فتح لنا بابها ، فلبينا الدعوة شاكرين .

ولما استقر بنا المقام ، وتم التعارف بيننا أصبنا فيه راهباً حلو الحديث لطيف المعشر ، واسع أفق النظر ، فرحنا نتبسط معه فى الكلام بدون تكليف ، كأننا نعرفه من قبل ، إلى أن أبدت الآنسة سلوى دهشها من خلو الدير من الرهبان برغم حسن موقعه ، وطيب مناخه ، وسط المناظر الطبيعية الفاتنة الساحرة ، والهدوء الشامل ، حيث يحلو للمرء أن يقيم على الدوام ، يملأ رئتيه من نسمات الصباح التى تمتزج برائحة الصنوبر والأعشاب البرية التى تنبت من بين الصخور .

اغرورقت عينا هذا الراهب الفاضل بالدموع وبدا عليه التأثر ، وكأن قلبه قد خفق بالذكريات القديمة واهتزت نفسه لسحر المكان فقال :

ــ صدقت يا ابنتى ، إن كل ما فى لبنان جميل ، فلبنان والجمال لفظتان مترادفتان ، ولكن قاتل الله الأيام ، وحب المال الذى أعمى الإنسان ، فتهافت عليه تهافت الفراش على النار ، وركب فى سبيل

الحصول عليه متن البحار ، وتجشم من أجله كثيراً من الأخطار ، فنحن قد بعنا كثيراً من ممتلكات أديرتنا بل وأديرتنا ذاتها ، لحاجة أمنا الرهبنة إلى المال ، وإننا على وشك أن نبيع هذا الدير أيضاً الذى أثر ضعف الرهبنة فيه وفى غيره من ديورة لبنان .

سكت الراهب برهة وأردف ما تقدم بلغة عربية فصحى قائلا :

— لا يطيب للشباب اليوم إلا العيش الهنيء ، أما معيشة الرهبنة ، فهى عيشة تقشف وحرمان ، لا يستطيع أن يتحملها كل إنسان . إنى اليوم فى العقد الثامن من عمرى ، وقد مضى علىّ فى الرهبنة ستون عاماً كان الدخول فيها فى ذلك الوقت ، يقترن بكثير من العقبات التى تتلوها الاختبارات القاسية .

كان العمل المشترك بين الرهبان فى الماضى ، الصلاة فى الصباح الباكر ، فبها كنا نبدأ نهارنا ونختمه ، وبعدئذ كان ينصرف كل راهب منا إلى عمله يؤديه . فكان بعضنا يرعى بهائم الدير ، والبعض الآخر يتعهد زراعته ، وبعضهم كان يعنى بشؤون الرهبان المادية ، فيقضى لهم حاجتهم ، كما أن الفريق الرابع كان يعنى بالكتابة والتأليف والطباعة والتعليم . أولئك الرهبان الذين عافوا العالم وملذاته ، وكفروا بالمال وجمعه ، وتحرروا من أثقال هذه الحياة وحطموا أغلالها الاجتماعية فنبذوا أهواءها الذميمة وتغلبوا على شهواتها الدنيئة ، قد اتخذوا لهم العمل بعد الصلاة شعاراً ، فكان خير مسكن لآلامهم ، وأنجع دواء لتضميد جراحات صبرهم ، يعقدون عليه رجاءهم ، ويعلقون عليه آمالهم فى الحياة الآتية . تلك كانت الفلسفة التى

درج عليها الرهبان فى الماضى . الفلسفة التى تقوم على العمل والعزلة والانطواء على النفس وخدمة القريب .

أجابت سلوى ، أرجو المعذرة يا أبت ، يفهم من منطوق كلامك ، أن الراهب لا قبل له بمواجهة الالتزامات التى تتطلبها الحياة ، فيعتزل العالم وينطوى على نفسه . إن فلسفتكم هذه حسب ما أعتقد ، هى فلسفة لا تستقيم مع المنطق السليم ، بل كان الواجب يحتم على الراهب أن يخرج إلى العالم ، ويكون كالشمعة المضيئة فوق المنابر ، ليرى الناس نوره ، فيستضيئوا بمثله الصالح ، وتعاليمه القويمة .

– اعلمى يا ابنتى أنك فهمت كلامى على غير حقيقته ، وحملت حديثى على غير محمله فإن مهمة الراهب شاقة جداً ، ورسالته التى يؤديها فى الحياة بالغة فى الصعوبة إذ الواحد منا كالشمعة يحرق نفسه ليضىء لغيره . إن لنا معاشر الرهبان رسالة إنسانية لا تقتصر على الصلاة فحسب ، كما تتوهمين ، وإنما تقوم على الخدمات الاجتماعية التى نؤديها للبشرية . فالراهب منا يكفر بنفسه ويحمل صليبه الثقيل بصبر وتسليم لإرادة الله ، وذلك كى يحقق قول السيد المسيح « من أراد أن يتبعنى فليكفر بنفسه ويحمل صليبه ويتبعنى . . . » ورسالة الراهب الإنسانية بقدر ما هى جسيمة ، بقدر ذلك هى صعبة ومحفوفة بالأخطار .

لاحظنا أن الراهب قد تأثر من كلام الآنسة سلوى وآلمه حديثها ، فراح الدكتور خليل يطيب خاطره ، والعم أبو طنوس يعتذر له بعد ما سلمنا بالمهمة الشاقة التى تناط بهؤلاء الرهبان الأفاضل .

براد بكفيا

ودعنا هذا الراهب الذى يحمل على منكبيه عدا ثقل السنين التى قد جاوزت الثمانين ثقل الحياة ومتاعبها ، وعدنا أدراجنا فى الطريق المتصاعدة إلى بكفيا ، فزرنا برادها ، الذى يقع فى وسطها بناء على إشارة العم أبى طنوس ، وهو عبارة عن مبنى ضخم واسع قد جهز بالآلات الكهربائية الحديثة ، وتتسع أدراجه لحفظ آلاف الأطنان من مختلف أنواع الفاكهة كالتفاح والكمثرى والبرقوق والخوخ والبطيخ والشمام وسواها من أنواع الخضروات . وقد شرح لنا المهندس المشرف عليه عملية حفظ الفاكهة فى الخزائن والحصول على أية فاكهة فى غير أوانها فى أى وقت .

عيد الزهور

ويقام فى بكفيا فى شهر أيلول (سبتمبر) من كل سنة عيد الزهور يشرفه رئيس الجمهورية بحضوره ومعه كبار الشخصيات ، فحالفنا الحظ وشهدنا العيد ، فراعنا منظر الفواكه والخضروات المعروضة فى ساحة واسعة أقيمت خصيصاً لهذا الغرض ، كما حضرنا بعد ظهر ذلك اليوم المهرجان العظيم الذى أقيم فيها ، فاخترقت المركبات المزينة بالأزهار الشوارع وعليها لافتات تحمل عبارات مختلفة ، كلها إعلان عن هذه البلدة ، الفاتنة التى

ظل أثر جمالها عالقاً فى قلوبنا .

ويتولى تنظيم هذه المهرجانات أبناء بكفيا أنفسهم ، فهم يؤمنون إيماناً صادقاً بفائدتها ، لأنها دعاية طيبة لبلدتهم ، وإعلان حسن عنها ، وهكذا قضينا ذلك اليوم وقد كان فى الحقيقة من أجمل وأمتع الأيام التى قضيناها فى ربوع لبنان .



عيد الزهور فى بكفيا

قرية بحر صاف

دعانا أحد الأصدقاء لزيارة قرية بحرصاف ، وهى منتزه جميل

متربع على أكمة مرتفعة تمتد حتى جهة العالى فى الطرف الغربى من بكفيا، وتشرف على غابات وكروم وجلول ملأى بأشجار التين ، وقد كانت بحر صاف فى الماضى مركزاً حصيناً فيها كثير من القلاع التى أقيم على أنقاضها اليوم دير كبير ، يعرف باسم دير مار يوسف ، يزدهر برهبانه الأفاضل.

نبع النعص

عدنا إلى بكفيا قبيل الظهر ، فآثرنا أن نتناول طعام الغداء على نبع النعص ، ويقع فى وسط غابة ملأى بأشجار الصنوبر الكثيف الأغصان، وكان النسيم العليل يداعب أوراقها الأبرية فتحدث حفيفاً لطيفاً خفيفاً يطيب سماعه ، وكان صوت خرير الماء وهو ينساب من النبع الذى فى مائه شفاء للناس وقع على السمع خفيف ، ورأينا الناس قد تفرقوا حوله واحتلوا الأماكن المحيطة به تحت ظل الأشجار . إن جلسة إلى جانب نبع النعص الجميل ، فوق الهضبة المرتفعة التى تكسوها الأعشاب السندسية فى أحضان الطبيعة المشرقة الضاحكة ، التى تمتزج بأغانى الطيور ، توحى بأسمى معانى الجمال التى تسحر القلوب .

وبكفيا الساحرة الغارقة فى الحدائق والرياض الخضراء ، حافلة بالمقاهى والفنادق الفخمة ، والأندية والملاهى التى ينشدها المصطافون ، هذا إلى جانب محلاتها التجارية الكبرى ، التى يجد المرء فيها من أنواع البضائع ما يضارع فى جودتها وتعدد أصنافها أحسن المحلات التجارية

وأرقاها . أما فى الليل ، فيرى المرء أفواجاً من الناس قد بهرتهم أنوار هذا المصيف الجميل ، فخرجوا يلتمسون فى الشوارع والطرقات أسباب التسلية ، ويمتعون أبصارهم بجمال ما يحيط بهم من مناظر ، هى مصدر وحى وإلهام لعشاق الطبيعة وطلاب المسرات . تلك هى بكفيا البلدة التى يغار أهلها على صالحها ، فأرادوا لها هذا الرقى ، فكان لهم ما أرادوا .

المحيدثة

كان الهواء العليل يرقع فى آذاننا ألحان الجمال ، فيتجاوب صداها بين الأشجار المغروسة على جانبى الطريق فتبثه إلى عشاق الطبيعة الذين تحتضنهم فى ظل أفنانها الفيحاء ، فى مثل هذا الوقت من النهار الذى كادت تنحدر فيه الشمس مسرعة إلى مغربها ، سارت سيارتنا الهوينا بين هؤلاء القوم حتى لا تعكر عليهم صفو راحتهم ، إلى أن بلغنا المحيدثة ، وهى قرية حديثة العهد كما يستدل عليها من اسمها ، وتقع على هضبة متدرجة فى الارتفاع تطوقها غابات الصنوبر والسنديان ، فتبعث من عبيرها الذكى الرائحة نسيما عليلا منعشاً .

والمحيدثة مكملة لبكفيا من الجهة الشرقية ، كما أن ضاحية بحرصاف مكملة لها من الجهة الغربية ، وهى لا تقل عن بكفيا روعة فى هندسة مبانيها ، واتساع شوارعها ونظافتها ، وتنسيق الحدائق فيها . ويأتى إليها المغرمون بجمال الطبيعة فى فصل الصيف فيلتمسون الهدوء فى ظل روابيها .

ضهور الشوير

وبعد أن اجتازت سيارتنا فى وسط قرية المحيدثة ، أخذت ترقى بنا الطرق الجبلية ، بين الربى والآكام ، فمررنا بمتنزه عين الحاج إلياس المشهور بفاكهته الشهية ، ومياهه العذبة ، فجلسنا فيه بعض الوقت ، ولما وصلنا إلى ضهور الشوير ، وهى تصغير كلمة شير ، معناها الصخرة ، كان بياض النهار أخذ يذوب بسواد الليل ، فقصدنا فندقاً وضعنا فيه أمتعتنا الخفيفة وخرجنا فى جولة ليلية فى الشوارع والطرقات . وكانت تعج بعشاق الملاهى ، وقد أتوا إليها من بيروت وسواها من القرى القريبة لقضاء سهرة ممتعة ، لانفراد هذا المصيف بطابع خاص ، يشيعه فى جوه أمل الحياة الباسم ، الذى تخلعه عليه أضواؤه البهيجة ، وجمال المناظر التى يتصف بها ، وهو طلق الهواء ، طيب المناخ ، مياهه عذبة باردة ، تهب عليه رياح صنين فتعبر فى طريقها إليه غابات ملأى بشجر الصنوبر الذى يكثر وجوده فى قرى المتن ، فيعطر أريجها الذكى جميع أرجائها .

وتقوم ضهور الشوير على منحدر يشرف على وادى نهر الكلب ، كما تطل فى الوقت ذاته على مصايف كسروان وجبال صنين المتشحة قممها بثوب قشيب من الثلج ، ويبلغ ارتفاع هذا المصيف عن سطح البحر بمقدار ١٢٥٠ متراً ، ويبعد عن بيروت بمقدار ٢٦ كيلو متراً ،

وهى مسافة قصيرة جداً إذا قيست بطرق المواصلات الحديثة التى شملت اليوم جميع أرجاء لبنان ، وتغلغلت فيه تغلغل الشرايين فى جسم الإنسان .

غابة بولونيا

غدونا مع الطير فى الصباح إلى غابة الصنوبر الشهيرة ، ويطلق عليها القوم هناك « غابة بولونيا » ، تشبهاً بغابة بولونيا بباريس ، فلما بلغناها ، طفنا فى أرجائها الفسيحة ، فإذا هى من أروع الغابات منظراً ، وأجملها مظهراً ، وكانت الطبيعة إذ ذاك ، قد فكت الشمس من عقالها ، فبرزت من وراء الجبال تختال تيهاً فى الأفق اللانهائى ، إلى أن ألقت خيوطها الذهبية فوق الربى والهضاب ، فاستقبلتها الطبيعة بابتسامة ، شاركتها فيها الطيور بتغريدها فوق الأفنان ، ما أبدع الطبيعة فى ذرى لبنان ! ! وما أروعها فى الصباح الباكر ، وهى تستقبل الشمس فى هيكل الخالق ، بثغر باسم ضاحك ، حقاً إن لفى ذلك السحر والجمال .

قرية شويا

قصدنا مطعماً أنيقاً قائماً على مرتفع فى تلك الجهات ، تناولنا فيه طعام الإفطار ، ثم قمنا بنزهة إلى شويا التى تقع غربى ضهور الشوير ، حيث يوجد ديران متلاصقان باسم النبي إلياس عليه السلام ، أحدهما

للموارنة ، والآخر للروم الأرثوذكس ، وقد شيد الاثنان على أكمة مرتفعة تحيط بها أشجار الصنوبر والسنديان ، وتشرف على قرى القاطع والبحر الأبيض المتوسط ، ويفصلها الوادى عن مصايف كسروان ، التى تقوم أمامها على منحدرات تتدرج فى الارتفاع ، هى آية فى الروعة والجمال ويقع فى فناء مدخل دير الموارنة متنزه جميل ، طاب لنا الجلوس فيه تحت ظلال شجر السنديان القديم الأيام ، الكثيف الأغصان ، وبينما نحن نجيل الطرف بالمناظر الطبيعية الفاتنة التى تحف بنا ، وإذا براهب فى مقتبل العمر وميعة الصبا يهبط علينا ، ويرحب بنا ، ثم ما لبث أن أخذ يتجاذب أطراف الحديث معنا ، فلمسنا فيه حلاوة المعشر ، وغزارة العلم ، وسعة أفق الاطلاع ، فكان يتحدث معنا بلباقة حديث الخبير العارف بكل موضوع كنا نطرقه ، ويجول فى كل بحث كنا نخوض غماره ، وكان ينم أسلوب هذا الراهب عن شىء قليل من اللهجة المصرية ، عرفنا منه أنه قضى فى مصر زمناً فى ديرهم الكائن بشبرا فى القاهرة ، كما عرفنا أنه تلقى علومه العالية فى مدرسة رهبنته الكائنة بروما فى إيطاليا وتعرف بمدرسة « البروبوجانده » .

ألح علينا هذا الراهب الفاضل أن نتناول الطعام على مائدة الدير ، فاعتذرنا بضيق الوقت ، وودعناه وتابعنا سيرنا إلى الشوير ، فاجتزنا بعين ماء تنفرد فى بقعة تظللها أشجار الصفصاف الباسقات ، وتحيط بها أشجار السنديان وكروم العنب وحدائق الفاكهة ، فاتخذنا لنا مجلساً تحت شجرة من تلك الشجرات الوارفات الظل نتناول ما معنا من طعام

على خرير ماء العين ، وتغاريد الحساسين ، وحفيف الريح اللطيف الخفيف ،الذى كان يداعب الأفنان الفارعة الطول . تلك هى الخصائص التى يتميز بها لبنان ، وبعد الأكل استلقينا على الأرض الجرداء فأخذتنا شبه غفوة من سحر المكان .

الشوير

ولما استيقظنا انتقلنا إلى الشوير ، وهى قرية كبيرة آهلة بالسكان ، يرجع عمرها إلى خمسمائة سنة تقريباً ، وكانت قبل ذلك حافلة بغابات السنديان والبلوط التى لم يبق من آثارها اليوم ، سوى أشجار قلائل جداً ، منها سنديانة كبيرة باسقة الأغصان شاهدناها أمام مدرسة فيها.

وبيوت الشوير من أجمل ما وقعت عليه عيوننا ، فهى على بساطتها ، جميلة الشكل ، حسنة الهندسة ذلك لا عجب لأن فن البناء هو صناعة أهلها . وقد أخبرنا أحدهم أنه يوجد فى الشوير بعض الآثار القديمة . واسم هذه القرية مأخوذ من اللفظ السريانية « شورو » ومعناها بالعربية السور نظراً لما كان يحيط بها من الآكام الملأى بالغابات .

الخنشارة

اجتازت سيارتنا الخنشارة الواقعة فى أعالى المتن ، وهى قرية تمتاز

بهدوئها ، وطيب مناخها ، وجمال هندسة مبانيها ، تعلو سطح البحر بمقدار ١١٠٠ متر ، وتبعد عن بيروت بـ ٣٣ كيلو مترا ، تحيط بها غابات الصنوبر الشاسعة ،وتكثر فيها الحدائق ، وكروم العنب، التى يعصر منها الخمر المشهورة بجودتها ، ولذة طعمها ، وقد شاهدنا فيها آثار مناجم ، قيل لنا إن القدماء كانوا يستخرجون منها الحديد .

وقبل أن نغادر الخنشارة ، زرنا فيها دير مار يوحنا الصابغ للروم الكاثوليك ، فشاهدنا مطبعته التى تعتبر من أقدم المطابع فى الشرق العربى ، كما زرنا مكتبته الشهيرة الفريدة فى بابها ، التى تحتوى على كتب خطية قديمة ، يحافظ عليها أولئك الرهبان الأفاضل ، محافظة البخيل على درهمه ، ولا يسمحون لكل طارق أن يطلع عليها ، خوفاً من العبث بها .

وادى الجماجم

تركنا الخنشارة ، فدلفت سيارتنا فى طريق معبد بالأسفلت ، حافل بالمشاهد الطبيعية الفاتنة ، إلى أن أطل علينا واد عميق مهيب ، قد اجتمعت فيه مناظر رائعة ، تمثلت فى صخوره عشرات النقوش الغريبة ، كأنها من صنع فنان حاذق ، ينطق الفن الذى يتجلى فيها ، بأسمى معانى الجمال ، فيجعل المرء يلمس بعض آيات المجد والروعة والجلال ، الذى خلدته العوامل الطبيعية فوق تلك الصخور النائية ، البعيدة عن العمران .

قال العم أبو طنوس :

— هذا وادى الجماجم المهيب ، وقد سمى بهذا الاسم ، لأن معركة نشبت فيه فى قديم الزمان ، فتراكمت فى مجراه جثث القتلى ، حتى سدت مسالك الماء الجارى فيه .

قد أفزعنا ذكر هذا الاسم ، وراعنا ما سمعنا عن جثث القتلى والجماجم ، التى لم نر لها أثراً فى بلد مثل لبنان ينتشر فى ربوعه الأمن ، ويخيم عليه السلام .

قالت سلوى : يلوح أن وادى الجماجم اسم على غير مسمى ، فليس فيه أثر لأية جمجمة ، ولا محل لأية جثة ، بل نراه على النقيض من ذلك ، يتيه فخراً بمناظره الطبيعية الخلابة ، وينور بزهوره البرية الجميلة ، التى تبرز فى كل مكان من ثنايا صخوره ، التى تزينها نقوش من أبدع ما وقعت عليه عيوننا .

أجاب العم أبو طنوس : صدقت يا ابنتى إن المناظر فى وادى الجماجم فاتنة ، وسيخرج منه مشروع حيوى يأتى فى ركابه الخير العميم ، والرزق الوفير ، لكثير من القرى اللبنانية التى تنبسط تحته عند جر مائه الغزير إليها .

بسكنتا

بلغنا بسكنتا ، القرية المنعزلة ، الهادئة فى سفح جبل صنين الذى يطل عليها عند الضحى ، وهى تشرف على وادى الجماجم العميق وتحيط بها الجبال الشامخة من الشرق والشمال ، وتحف بها غابات الصنوبر

الرائعة وتعلو عن سطح البحر بمقدار ١٤٠٠ متر ، وتبعد عن بيروت بمقدار ٥٠ كيلو متراً ، وتكثر فيها حدائق الفاكهة والخضروات وكروم العنب ، مياهها عذبة ، ومناخها جبلى جاف .

وقد أخذت بسكنتا اسمها من سنكن يتن رأس المؤرخين الفينيقيين وأشهرهم وقد استقى منه كثير من المؤرخين القدامى منهم والمحدثين ، معلوماتهم التاريخية القديمة عن الفينيقيين الذين ضربوا بسهم وافر فى العلوم ، وساهموا مساهمة فعالة بنقل الحضارة القديمة من موطنها من الشرق ، إلى جميع الأقطار التى كانوا يتعاملون معها .

جبل صنين

ويقوم على مقربة من بسكنتا ، جبل صنين بمهابته وجلاله وهو أحد الجبال القديمة فى العالم التى قدسها الأقدمون وعبدوها ، وبنوا بالقرب منها هياكل لآلهتهم ، وكانوا يطلقون عليها اسم جبل الوحى والإلهام . سلكنا من بسكنتا طريقاً حافلا بالمناظر الفاتنة إلى نبع صنين الشهير ، الذى يتفجر ماؤه من صخور صماء غاية ما يكون فى البرودة والصفاء ، وقد نبتت الأعشاب من حوله وعلت الأشجار الكثيفة الأغصان رباه . تجولنا فى هذه الربوع الجميلة وجسنا خلال تلك المرتفعات التى تملأ العين بهجة والنفس سروراً ، حيث تكثر بساتين الفاكهة ويتردد نسيم عليل فتحنا له صدورنا المتعطشة إلى استنشاق مثل هذا الهواء الذى فيه الصحة والعافية .

ناسك الشخروب

رغبت الأديبة سلوى أثناء وجودنا فى بسكنتا فى أن تزور أديب لبنان الكبير ميخائيل نعيمه ، صديق جبران الحميم ، فسألنا عنه ، فقيل لنا إنه يقيم فى فصل الصيف فى بقعة صغيرة من الأرض اسمها الشخروب ، فى الجهة الشرقية من بسكنتا ، وتبعد عنها بمقدار ٧ كيلو مترات ، ففى هذه البقعة الهادئة من لبنان وكانت إلى ثلاثين سنة خالت نكرة لا يعرفها غير الرعاة ولا يجوس خلالها سوى الفلاحين . يعيش ميخائيل نعيمه الفيلسوف ، معيشة روحية عميقة بعد ما غادر نيويورك المدينة الصاخبة ، وعاد إلى مسقط رأسه فى لبنان ، بعد غياب عنه دام قرابة عشرين سنة .

شددنا الرحال إلى ناسك الشخروب ، كما يسميه أدباء لبنان ، بصحبة شاب أديب يتلقى علومه فى الجامعة الأمريكية ، ولما بلغنا مشارف البقعة التى يقيم فيها ، سألنا عنه فقيل لنا إنه غير موجود الساعة فى منسكه ، فحز الألم فى نفوسنا لأنه كان بودنا أن نرى الرجل الذى يقبض اليوم بيده على المعول بدل القلم ، ويستبدل الأرض بالقرطاس ، ليخط عليها أسطورة الحياة الخالدة ، ويخرج من كنوزها الدفينة خيرات بارك الله فيها ، وفى لبنان خيرات كثيرة تطلب الأيدى لاستغلالها ! !

وبينما نحن نجيل الطرف فيما حولنا ، ونتأمل ذلك الجو الهادئ

الذى يقيم فيه فيلسوف بسكنتا ، ونمتع النظر بجمال المناظر التى تحف بنا ، رأينا شاباً مقبلا نحونا وقد لمس من مظهرنا أننا غرباء ، حتى إذا اقترب منا أخذ يتبسط فى الحديث معنا ، ولما جاء ذكر نعيمه قال :

– إن ميخائيل نعيمه ناسك الشخروب بعد عودته من الولايات المتحدة الأمريكية ، يعيش بيننا معيشة طابعها الهدوء والسكينة ، يقضى يومه بين بهائمه يطعمها ويسوسها ، وفى وسط حديقته يتفقد غرسها ، ويشذب أشجارها ، ويقوم ما اعوج من أغصانها ، ويدرأ عنها غائلة الآفات الزراعية . ويزور ناسك الشخروب فى فصل الصيف جميع الأدباء الذين يفدون إلى لبنان .

زادنا كلام صاحبنا الشاب شوقاً إلى رؤية أديب لبنان الكبير ، لنستمتع بحديثه وفلسفته بالحياة ، ولكن ضيق الوقت حال بيننا وبين رغبتنا ، فتركنا تلك البقعة الساحرة فى انتظار عودة ناسكها إليها وقفلنا راجعين إلى بسكنتا .

وميخائيل نعيمه هو مؤسس الرابطة القلمية فى المهجر ، وقد انحلت بموت جبران ، وعودة ميخائيل نعيمه إلى لبنان ، لأسباب ذكرها فى كتابه رداً على رسالة كان قد أرسلها إليه أديب من البرازيل ، أودع فيها فلسفته فى الحياة ، وسبب تركه الولايات المتحدة الأمريكية ليرتمى فى أحضان صنين وقد جاء فيها :

« تسألنى لماذا هجرت الولايات المتحدة وآثرت الحياة عليها فى حضن صنين ، فأقول لك إنى من بعد عشرين سنة قضيتها فى الولايات المتحدة ،

شعرت بحاجة روحى إلى الاستجمام فى نور البساطة العادية العارية من زخرف المدنية ، وغشها ، وتشويشها ، فقد أبصرت الحياة حقيقة بسيطة عارية ، ورأيت الناس فى كل ما يعملون ، ويقولون ويؤمنون ، إنما يسترون عرى الحياة بأكسية لا تحصى من أوهام وتقاليد ومعتقدات ، فيخسرونها من حيث لا يعلمون ، ولذلك يتألمون ويشقون ، وقد وجدت أن وجه الله يبدو سافراً فى هذه الجبال السافرة ، حيث إنه فى مدينة كنيويورك تحجبه طبقات من ضباب الأوهام والتقاليد الكثيفة ، فلا تلمحه البصيرة ، حتى يخفيه البصر ، ولا تقترب منه الروح حتى تقصيه أهواء الجسد ونزعات النفس ، هنا أستطيع أن أقبل الحياه كما هى ، وأن أحبها بكليتها ، أما فى نيويورك ، فمع علمى بأن الحياة وحدة لا تتجزأ ، كنت أحاول تجزئتها ، ومع علمى أنها فوق المقاييس والموازين كنت أنسى ذلك فى بعض الأحايين ، فأحاول أن أقيسها وأزنها .

« لا أقول إن صنين أطهر من نيويورك ، فكل ما فى الأرض طاهر ، بل أقول إن الطهر فى صنين أسهل منه فى نيويورك . . . »

تلك هى فلسفة نعيمه ورأيه فى لبنان ، حيث تبدو الحياة سافرة فى جباله الشامخة ، التى يتوجها الثلج الأبيض علامة الطهر والعفاف . وهل هناك على وجه البسيطة أطهر من أرض لبنان ! ؟

المتين

عدنا من زيارتنا لناسك الشخروب إلى المتين ، القائمة على منحدر

سفوح جبال صنين وتشرف على وادى صليما وترتفع عن سطح البحر بمقدار ١٠٨٠ متراً وتبعد عن بيروت بمقدار ٣٩ كيلو متراً .

ومناخ المتين معتدل جبلى ، وهواؤها جاف ، وعلى مقربة منها غابة من شجر السنديان هى منتزه طبيعى يقصدها المصطافون للتمتع بمنظرها ، ولاستنشاق الهواء الذى يمتزج بأوراق أشجارها ، فتنشره عبيراً ذكياً ، وتكثر فى المتين كروم العنب المتنوع الأشكال .

جلسنا فى مقهى على الطريق العام نشاهد السيارات الغاديات الرائحات تمر أمامنا فى طريقها إلى زحلة وسهل البقاع الخصيب .

المروج

كان وصولنا إلى المروج المصيف الجميل ، ليلة عيد القديسة تقلا الشهيدة ، ويحتفل اللبنانيون بهذا العيد ، على اختلاف شيعهم ومذاهبهم ، احتفالا شائقاً . اقترح علينا العم أبو طنوس أن نحضر ليلة العيد فى هذا المصيف الهادىء ، لنأخذ فكرة عن الأعياد الدينية فى لبنان ، ولنشاهد فى الوقت ذاته عادات القوم فى مثل هذه المناسبات .

قصدنا فى المساء الكنيسة ، فألفيناها حافلة بالناس وقد تقاطروا إليها من جميع القرى المجاورة ، والسرور يطفح على وجوههم للاحتفال بهذا العيد ، فاتخذ الباعة الجائلون لهم ركناً فى ساحة الكنيسة الفسيحة ، يعرضون فيه بضاعتهم ، وقد التف حولهم أطفال بملابس العيد الزاهية النظيفة ،

ليفرغوا ما فى جيوبهم من قروش معدودات ، فى شراء ما تيسر لهم من أنواع الحلويات ،وقد أثار إعجابنا منظر الشبان المفتولى السواعد، الأقوياء العضلات ، وقد ضربوا نطاقهم حول حبل تدلى من جرس معلق فوق قبة الكنيسة ، فكان كل واحد من هؤلاء الشبان ، يباهى زميله بطول المدة التى يستغرقها فى قرع الجرس الكبير ، إلى أن اقترب شاب فارع الطول، رشيق القوام ، يرتدى الملابس اللبنانية الوطنية ، ويتعمم بعقال تحته كوفية ، تناول الحبل من زميله ، وأخذ يقرع الجرس قرعاً متواصلا بيد واحدة زهاء ثلث ساعة ، كان يدفع عنه فى أثنائها كل من يحاول أن ينتزع الحبل منه، وظل كذلك حتى إذا ظهرت عليه علامات التعب ، ترك لزميل له الحبل . اقتربنا من الشاب وهنأناه على براعته ورشاقته فى قرع الجرس ، غير أن الشاب تقبل تهنئتنا بخجل وحياء ، ولما عرف أننا غرباء قال :

إن قرع الأجراس فى لبنان ، ودوى رنينها فى قباب الكنائس ، وتردد اهتزازاتها فى بروج الأديرة المنزوية وسط الأحراش والأدغال ، هو من صميم تقاليدنا الوطنية ، وعاداتنا القومية فنعقد له الحلقات فى شتى المناسبات والاحتفالات ، يشترك فيها الشبان اللبنانيون على اختلاف مذاهبهم ونحلهم ، فيسطرون بسواعدهم القوية عليها أنشودة الحياة ، فيتجاوب صداها حراً طليقاً فى الفضاء اللانهائى ، فتطرب لسماعه الآذان الذى تعشق مثل هذا الرنين الذى تتتابع صدى تموجاته حتى تمس شغاف القلوب . إن رنين الأجراس فى لبنان ، برقيات غامضة ، يحملها الأثير بين طياته ، لا يستطيع أن يفك رموزها ، أو يحل أحاجيها سوى الآذان

اللبنانية الصميمة . حقاً لقد صدق هذا الشاب فيما وصف ، إن رنين الأجراس واهتزازاتها يبعث فى النفس ذكريات ، فيها رهبة وفيها خشوع ، تتعانق فيها الأسباب التى تربط الإنسان فى الحياة الذى جاء إليها رغم أنفه ، وتحله منها رغم إرادته .

رقصة الدبكة

انتقل بصرنا إلى ناحية أخرى من الساحة ، فرأينا جماعة من الناس ، قد عقدوا حلقة حول نخبة من الشبان يرتدون الزى العربى الجميل ، وقد أمسك كل واحد منهم بيد الآخر ، واصطفوا على شكل نصف دائرة ، وأخذوا يرقصون رقصاً إيقاعياً بديعاً ويأتون بحركات هادئة متزنة على نفخ مزمار من القصب ، بدائى الصنعة ، رقيق النغم ، وكان أولئك الشبان ينشدون بمصاحبة المزمار ، أناشيد تفيض بالشوق والحنين إلى لبنان ، وإلى مائه العذب ، وهوائه العليل ، وجداوله الرقراقة الصافية ، ووديانه الرائعة ، ومناظره الطبيعية الفاتنة ، وكان رائدهم وهو فى طرف الحلقة أشدهم طرباً ، وأكثرهم حماساً ، يلوح بمنديل أبيض اللون فى الهواء بين كل دبكة ودبكة ، ليذكى فى نفوس رفقائه الحماس .

وكان النافخ بالمزمار الذى يتوسط الحلقة ، يحنى رأسه حيناً ، ويرفعه حيناً ، وهو ينفخ بمزماره نغماً شجياً ، فيه عذوبة ، وفيه روعة ، يتمشى مع انسجام الأصوات ، وكان الراقصون يتمايلون بأجسامهم ذات اليمين

وذات الشمال ، وهم يقدمون رجلا و يؤخرون أخرى ، وقد سحرتهم رقة النغم، التى كانت تضفى على نفوسهم لوناًمن ألوان جمال تلك الرقصة الإيقاعية البديعة .

أجل إن رقصة الدبكة اللبنانية ، هى رسالة من الفن الرفيع ، تخط سطورها الأرجل اللبنانية ، على صفحات الفن بمداد نغم المزمار الرقيق .

أعجبنا أيما إعجاب بهذه الرقصة ، التى يزينها طابع الاحتشام والوقار ، والبعد عن الحركات المثيرة المريبة .

سألنا العم أبو طنوس عن هذه الرقصة ، فقال : إنها رقصة الدبكة اللبنانية ، وهى من رقصات أهل جبل لبنان القديمة ، يرجع تاريخها إلى عهد الفينيقيين ، فكانوا يرقصونها فى المواسم والأعياد أمام هيا كلهم المشيدة فى أحضان الطبيعة ، فوق الربى والآكام ، وقد نقلها عنهم اليونان واتخذوها رقصة وطنية لهم ، بعد أن أدخلوا عليها بعض تعديلات يسيرة .

ورقصة الدبكة التى يشترك فى أدائها الراقصون والراقصات فى نظام وترتيب ، هى الوحيدة التى احتفظت بما لها من وقار وروعة وجلال ، فلم يدخل عليها أى تبذل أو استهتار ، وبقيت وقفاً على أصحابها اللبنانيين القدامى منهم والمحدثين ، يؤدونها فى المناسبات القومية ، والأعياد الدينية بحيث إذا انتقلت إلى خارج موطنها لبنان ، فإنما تنتقل على أيدى أبنائها اللبنانيين أنفسهم .

وتصاحب رقصة الدبكة عادة موسيقى خاصة بها ، وأغانى معينة لا يمكن أن تؤدى إلا معها تعرف عند اللبنانيين « بالعتابا » .

ويتفنن الزجالون اللبنانيون فى نظم هذا اللون من الأغانى التى تعبر عن الحنين إلى لبنان ووصف مفاتن الطبيعة فيه .

الرقص بالسيف والترس

وما كاد رقص الدبكة ينتهى ، حتى انبرى شابان من بين الحاضرين وأخذا يلعبان بالسيف والترس ، على قرع الطبول ، ونفخ المزمار ، وكان منظر هذين الشابين وهما يكران ويفران بخفة ورشاقة ، من أجمل المشاهد وهكذا بقينا فى ذلك الجو الساحر نتنقل من مكان إلى مكان حتى ساعة متأخرة من الليل .

عينطورا

فى الصباح الباكر ، استأنفنا رحلتنا ميممين شطر زحلة ، فسارت بنا السيارة فى طريق ممهد أملس ونحن نستمع إلى الأغانى اللبنانية من مذياعها حتى بلغنا عينطورا ، وهى قرية هادئة صغيرة يعيش أهلها على زراعة الحبوب والخضروات ومنتجات الألبان .

وشاهدنا فى الجهة الجنوبية الشرقية منها آثاراً قديمة قلما يعيرها سكان هذه القرية اهتمامهم يرجع تاريخها إلى العهد الرومانى .

وتقبل بعض الأسر على الاصطياف فى عينطورا المغمورة بكروم العنب لهدوئها ولبساطة المعيشة فيها

أوقفنا سيارتنا أمام مطعم بسيط فيها على الطريق العام ، فدخلناه وجلسنا

على مائدة غاية ما تكون من النظافة ، وتناولنا طعام الإفطار ، وكان مؤلفاً من الزيتون الأخضر والأسود اللذيذ الطعم ، والطماطم والبصل الأبيض اللون الحلو الطعم ، واللبن الزبادى ، فتذوقناه فإذا هو دسم بمادته تشوبه حموضة يسيرة تزيد فى لذة طعمه . مع الخبز المرقوق الأشقر اللون كجناح الدبور

وقبيل الظهر أخذنا نقطع بسيارتنا طرقاً شقت وسط الجبال تحيط بها الغابات من جميع نواحيها تارة والجبال الجرداء أخرى ، غير أننا لم نصادف فى طريقنا وهاداً ووديانا عميقة .

وجميع هذه البقاع تلبس فى فصل الشتاء حلة بيضاء من الثلج الذى يتراكم فوقها ، فتسد المسالك والطرقات ، وتنعزل القرى الواقعة فى هذه البقاع بعضها عن بعض ، ويصبح الوصول إليها متعذراً ، فيقبع جميع سكانها فى دورهم طول فصل الشتاء ولا يغادرونها إلا لقضاء حاجة ملحة ، يعيشون على ما اختزنوه لأنفسهم فى فصل الصيف من مؤونة وزاد.

زحلة

سارت السيارة فى طريق السهل الجبلى وشق بين جبال تكاد تكون جرداء وإنما ليست بارتفاع وروعة الجبال التى شاهدنا فى الشمال ، إلى أن بلغنا زحلة ، عروس لبنان وأكبر مدنه وأعظمها شأناً .

وسميت زحلة بهذا الاسم نسبة إلى الإله زحل ، وتشاهد آثار هيكله فوق الأكمة الجنوبية التى تطل على المدينة .

وتختفى زحلة فى منخفض من الأرض تحيط بها الجبال من جهاتها الثلاث ، ويخترقها فى وسطها نهر البردونى الشهير الذى ينبع من مغارة فى وادى صنين القريب ، فيشطرها إلى شطرين ، أقيمت على ضفتيه المتنزهات والمقاهى والمطاعم والفنادق ، يتردد إليها المصطافون لاستنشاق الهواء ، وللتمتع بجوها اللطيف ، ومناظر الوادى الفاتنة .

وأهم تلك المتنزهات ، متنزه وادى العرايش ، تحف به المقاهى على الجانبين تظللها أشجار الصفصاف والحور الشامخ الارتفاع ، فتخلع على المكان منظراً من أروع مناظر لبنان البهيجة الساحرة ، يزيد فى روعته وجماله صوت خرير الماء المنساب فى مجراه ، وحفيف أغصان الأشجار التى يداعبها النسيم العليل وقد استوت الطيور فوقها مغردة بألحان تستمدها من روعة المكان وجماله .

وقد ألهم سحر وادى العرايش وجماله المرحوم شوقى أمير الشعراء قصيدته العصماء التى مطلعها :

يا جارة الوادى طربت وعادنى ما يشبه الأحلام من ذكراك

وزحلة مشهورة بكرومها التى تنتج أصنافاً كثيرة من العنب اللذيذ الطعم ، الذكى الرائحة ، الجميل المنظر ، ويقطرون منه العرقى الزحلاوى ، وهو ألذ عرقى فى العالم طعماً ، وأنقى صنفاً ، ويصدرونه إلى جميع بقاع العالم لشهرته .

وشوارع زحلة نظيفة واسعة ومفروشة بالأسفلت ، ومضاءة بالكهرباء ، فيها كثير من الحوانيت الكبيرة التى يجد المرء فيها جميع ما يطلبه .

وزحلة هى مصيف سهل البقاع الجبلى الفسيح وهو من أخصب سهول

الدنيا ترويه مياه الأمطار شتاء ، والينابيع الغزيرة التى تتفجر من الجبال التى على جانبيه صيفاً ، وقد كان هذا السهل الذى ينتهى عند جبل حرمون فيما مضى مصدر ثروة للبنان وأعظم إهراء غلال للرومان .

تعنايل

مكثنا فى زحلة يومين ، زرنا فيهما جميع ضواحيها ومنتزهاتها الجميلة ، والأماكن الأثرية فيها ، ثم استأنفنا رحلتنا فى طريق معبد بالأسفلت تحف به الأشجار على الجانبين ، ومن خلفها السهول الفيحاء إلى تعنايل ، وهى ضاحية هادئة فيها دير الآباء اليسوعيين الشهير وأراضيه الواسعة ، وقد أقطعهم إياها الإمبراطور نابليون الثالث بعد أن أخذها من الحكومة التركية تعويضاً لهم عن مقتل خمسة من رهبانهم فى حوادث سنة ١٨٦٠ المشؤومة .

وقد اعتنى هؤلاء الآباء الأفاضل بهذه الأراضى حتى أصبحت جنة من الجنان تكسوها كروم هى بهجة للناظرين دواليها غير متعالية تخفى تحت أوراقها عناقيد ها البهيجة .

مرصد كساره

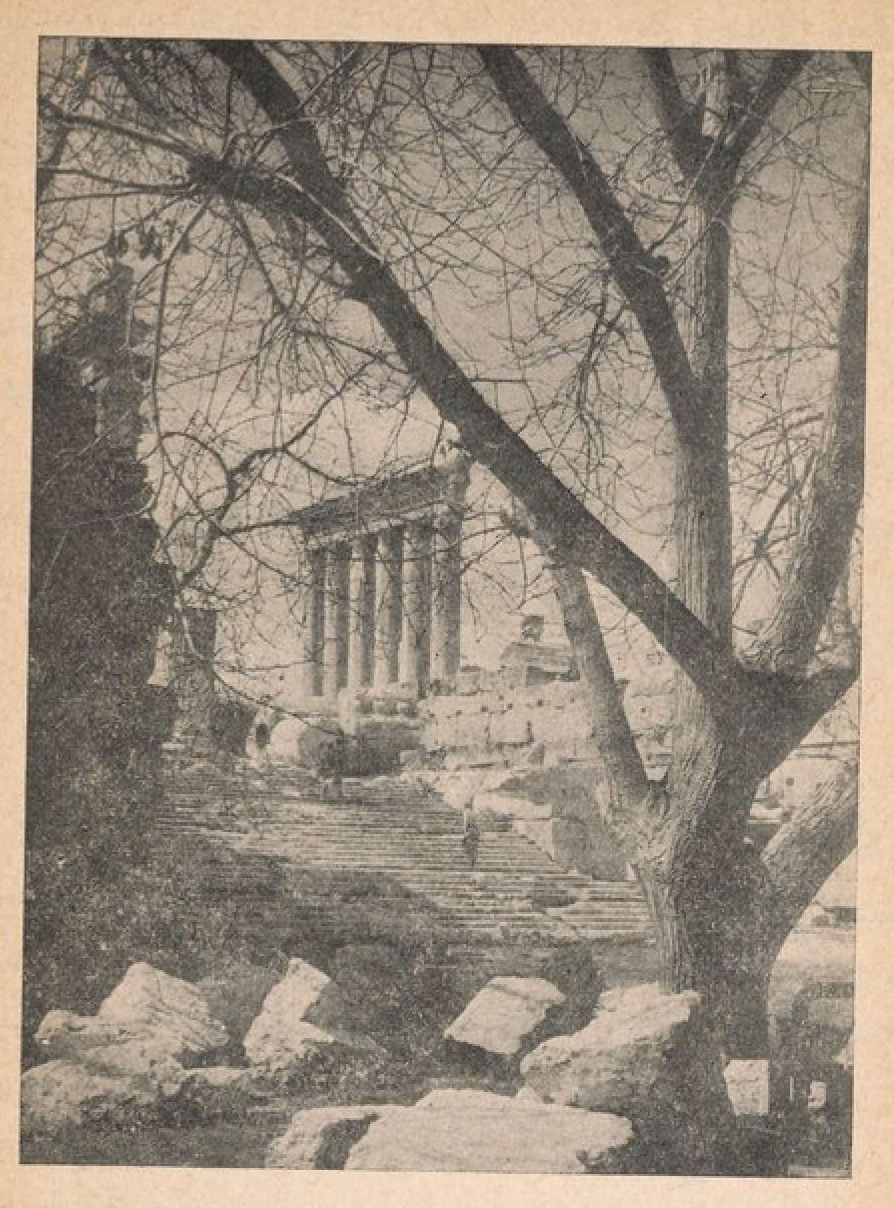
وقد أبدى الدكتور خليل رغبة فى أثناء وجودنا فى تعنايل فى رؤية

مرصد كساره الجوى ، وكنا قد سمعنا عنه أنه أعظم مرصد فى لبنان ، فذهبنا إليه يرافقنا أحد الآباء الأفاضل ، فلما بلغناه قدمنا بدوره إلى الأب المشرف عليه ، فأخذ يشرح لنا كل ما تقع عليه العين من الآلات والأجهزة الدقيقة المزود بها المرصد، وكان الدكتور خليل شديد الإعجاب بشرح حضرة الأب الذى ختم حديثه معنا بقوله : إن الحكومة اللبنانية تعتمد على هذا المرصد فى معرفة التقلبات الجوية من النشرة اليومية التى يصدرها .

وبعد أن طفنا فى أرجاء هذا المرصد العظيم القائم فى تلك البقعة النائية الهادئة ، شكرنا لحضرة الأب الفاضل ما زودنا به من معلومات ، وما أظهره نحونا من لطف ثم ودعناه وانصرفنا .

فى الطريق إلى بعلبك

كانت السيارة تسابق الريح فى سيرهاعندما تركنا كساره ، ولم نكن نخشى سرعتها ، لأن الطريق ممهد سهل لا وديان عميقة فيه تقع تحت أبصارنا ، ولا وهاداً مخيفة نمر عليها ، أو جبالا شامخة نشق لنا طريقاً فيها ، وبقينا على هذه الحال ونحن نقطع دروباً تحف بها الأشجار الباسقة حتى بلغنا بعلبك ، وهى مدينة فينيقية قديمة ، من أقدم مدن العالم ، تبعد عن بيروت بمقدار ٨٢ كيلو متراً وتعلو سطح البحر بمقدار ١١٥٠ متراً .



هذه الأعمدة الجبارة رمز لعظمة الماضى

وتقع بعلبك فى الجهة الشمالية الشرقية من سهل البقاع الخصيب ، واسمها مركب من لفظتين : بعل ومعناها رب وبك ومعناها الوادى أى رب الوادى ، وقد كانت هذه المدينة فى الماضى ، مركزاً دينياً مشهوراً ، ومحطاً للقوافل لحسن موقعها ، كما كانت قبلة جميع الفاتحين الغزاة الذين تعاقبوا على حكم لبنان .

وبنى الفينيقيون فيها معبداً لإلههم بعل ، أحاطوه بسور من الحجارة الكبيرة الحجم ، أدخلت عليه الشعوب التى تولت الحكم فى لبنان كثيراً من التبديل والتغيير ، ولما احتل اليونان بلاد فينيقية ، وبسطوا سلطانهم عليها ، أطلقوا على بعلبك اسم « هليوبوليس» أى مدينة الشمس ، لحسن موقعها ، وطيب مناخها ، وخصوبة الأراضى التى تحيط بها .

قلعة بعلبك

كانت بعلبك آهلة بالسكان قبل حدوث الطوفان ، وقد عاش فيها أبونا آدم عليه السلام زمناً بعد طرده من الفردوس الأرضى ، ثم انتقل منها إلى دمشق ، حيث مات ودفن فى الزبدانى على مقربة منها ، ذلك هو اعتقاد القوم فى تلك البقاع ، ثم إن قابيل بعد أن قتل أخاه هابيل توارى من وجه الرب وهرب إلى بعلبك يطلب له ملجأ فيها ، فأمره الرب أن يبنى له هيكلا ، فبناه وهو المعروف بقلعة بعلبك .

غير أن رواية أخرى تقول إن سيدنا سليمان الحكيم عليه السلام ، هو

الذى بنى هذه القلعة التاريخية ، وقدمها مهراً لبلقيس ملكة سبا ، التى جاءت من أقاصى الأرض لتسمع حكمته ، بيد أن هاتين الروايتين تفتقران إلى ما يؤيدهما .

البعثة الألمانية وقلعة بعلبك

بقيت هذه القلعة التى هى من أروع الآثار اللبنانية زمناً طويلاً فوق قمم الجبال ، تغط فى سبات عميق ، تنبىء أطلالها الدارسة البكماء عن ماض مجيد اكتنفه الجهل ، وأحاط به الغموض ، ودفنت فيه كثير من ذكريات أسرار الآلهة التى عبدتها الأمم القديمة ، إلى أن جاءت بعثة ألمانية إلى لبنان فى مستهل هذا القرن ، فأيقظتها من سباتها ، ورفعت الأنقاض المتراكمة فوقها ، وأظهرت هياكلها على ما كانت عليه من روعة فى الفن ، وجلال فى البناء ، قبل أن تنال منها عصف الرياح العاتية ، وتدك مبانيها الزلازل الغاشمة سنة ١٧٥٩ ، فحملت تلك البعثة معها من تلك الآثار ما استطاعت حمله فى ذلك العهد ، الذى كانت الفوضى ضاربة أطنابها فيه ، وتركت الباقى مكانه ، عرضة للتلف والضياع والنهب والسلب . ذلك كان مصير جميع الآثار التى اكتشفت فى لبنان ، قبل إنشاء المتحف الوطنى فى عهد النور والاستقلال .



قلعة بعلبك تحدت الزمن

شهرة بعلبك

اكتسبت بعلبك شهرتها من قلعتها العجيبة الغريبة ، التى تعتبر من أروع ما بناه الرومان فى عصر مجدهم ، وسط حدائق غناء ، وهى تتكون من بهوين واسعين ، وهياكل عديدة لجوبيتير ، وباخوس ، وفنيس وغيرها ، يأتى إليها السائحون من جميع أنحاء العالم لرؤية أطلالها الدارسة ، وأعمدتها الستة الضخمة ، التى تذهب بالارتفاع حتى لتناطح السحاب ، وقاعاتها الأنيقة التى تبهر الأبصار بعظمتها ، وجمال هندستها ، وروعة

النقوش التى تحليها ، وضخامة الحجارة التى وضعت فى مبانيها ، ويبلغ طول بعضها ١٩ متراً بارتفاع ٤ أمتار وسمك ٣ أمتار ، ويزن الواحد منها ٦٥٠ طناً وهى مبنية على مساحة من الأرض تبلغ ٤٠٠٠ متر مربع .

هذا ما رواه الدليل المرافق لنا عن هذه القلعة العظيمة التى ملكت علينا مشاعرنا .

وقفة أمام القلعة

أمام هذه الهياكل المتداعية التى هى صدى الماضى ، وعنوان على عظمة العصور الغابرة ، وأمام أجمل أثر تركه الرومان فى ربوع لبنان خالداً على الزمن ، يهزأ بعاديات الدهر ، بعد ما عبثت به أيدى الفاتحين الغزاة من عرب وترك وفرنسيين ، وقفنا قبيل الغروب نجيل الطرف فيها ، ونتأمل فى محراب باخوس إله الخمر الحافل بالذكريات وهو يصب عصير ابنة الكرمة فى الكأس يتوج رأسه إكليل من اللبلاب قد أسكرنا جمال هندسته ، وروعة فن البناء فى أعمدته ، ودقة استدارة هيكله بأعمدته الستة التى تحيط به ، وما حليت به من نقوش هى آية فى الروعة .

وفى داخل صومعة فنيس إلهة الحب والجمال وقفنا خاشعين ، انها اليوم يخيم على هيكلها سكون الموت ، وكانت فى الماضى تزخر بالحياة ، بما كان يرتكب فيها باسم الدين من الموبقات والمحرمات فى المواسم والأعياد .

أجل كان كل شىء حولنا يشعرنا برهبة المكان وروعته ، ويملأ قلوبنا

وحشة ، ولكن برغم كل ذلك فإن قلعة بعلبك ما فتئت قبلة السائحين ، ومحط أنظار عشاق الآثار القديمة ، يأتون إليها ليرتووا من فيض معين ذلك الفن الذى لا ينضب .

ولما دخل الدين المسيحى لبنان اعتنق سكان بعلبك النصرانية ، فمنع الإمبراطور قسطنطين العبادة فى هذه الهياكل ، وبنى على أنقاض معبد الزهرة (فينوس) كنيسة تحمل اسم العذراء مريم عليها أشرف السلام ، كما بنى الإمبراطور تيودوسيوس من بعده كنيسة أخرى على أنقاض الهيكل الكبير ، كان المسيحيون يقيمون فيها شعائرهم الدينية حتى الفتح الإسلامى سنة ٦٣٥ ميلادية ، فحول العرب البناء بأكمله إلى قلعة حصينة نظراً لموقع بعلبك الحربى ، بأن عمدوا إلى نزع الأعمدة الأثرية من مكانها ، ودكوا الدرج وبنوا بحجارته سوراً كبيراً فوق قواعد تلك الأعمدة ، وقد كشفت البعثة الألمانية آثار الكنيسة عند التنقيب .

انتقلنا من هذه البقعة التاريخية إلى بركة ، لا لنرتشف منها الماء الزلال وإنما لنسمع نبذة عن تاريخها القديم والحديث من العم أبى طنوس ، وكله يدور حول قصص هى أشبه شىء بالأساطير الخرافية منها بالقصص الواقعية ، إلى أن قال ، إن للنساء نصيب الأسد من هذه القصص ، لزعمهن أن النزول فى مائها ، يجلب لهن السعد وينيلهن ما يشتهين ، ثم إن كثيراً من السائحات الأجنبيات ، يقصدنها خصيصاً لهذا الغرض

قالت سلوى : وهل هذا قاصر على النساء فقط .

أجاب العم أبو طنوس ، هذا أمر لا يرتقى إليه شك .

فللحال خلعت سلوى حذاءها ، وشمرت عن ساقيها ، ونزلت تخوض عباب ماء البركة وهى فرحة جذلة .

أثار منظرها وهى على هذه الصورة ضحكنا جميعاً وآمنا بأن الخرافات لا تزال تسيطر على عقول بعض الناس مهما تبلغ درجة ثقافتهم .

فقال لها العم أبوطنوس : أتمنى لك حظاً سعيداً يا آنسة .

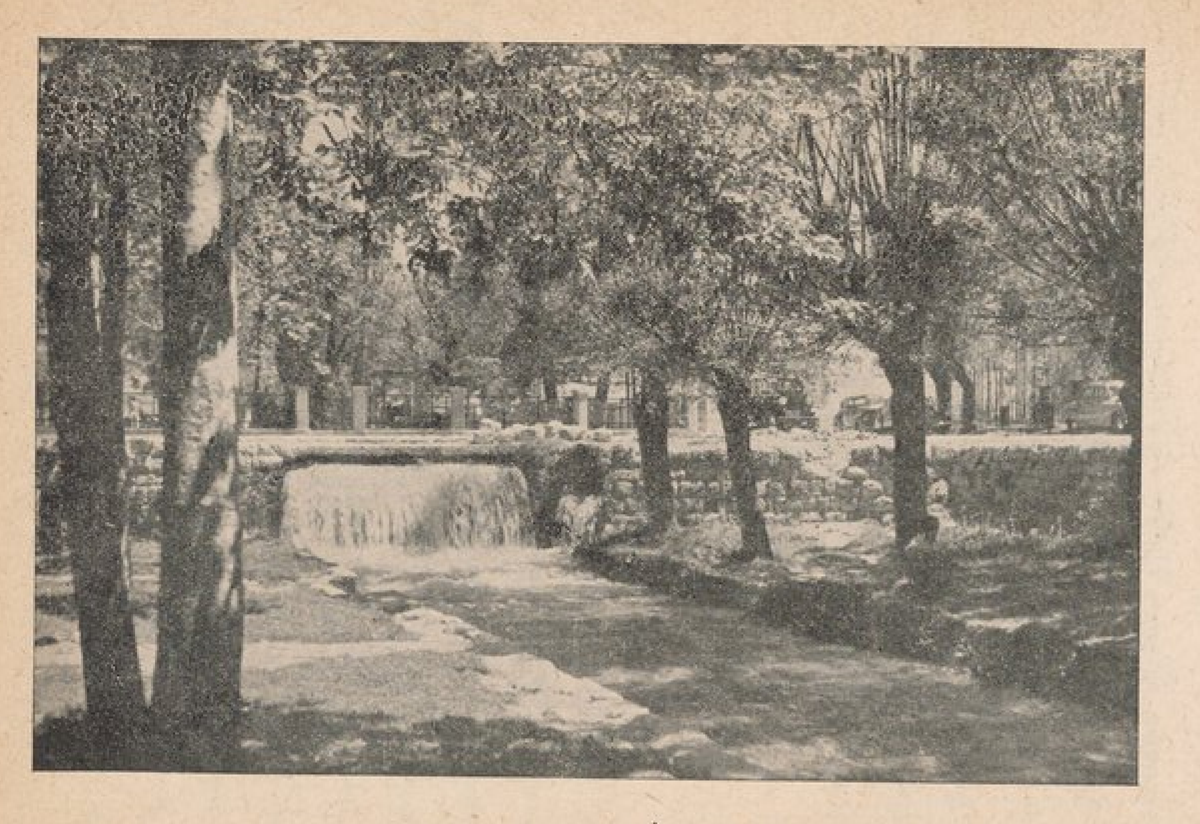
منتزه رأس العين

بعد أن قضينا فى تلك القلعة التاريخية زهاء ساعتين برفقة الدليل ، وهو يشرح لنا كل ما خفى عنا بشأنها بأسلوبه اللبنانى الطريف ، غادرناها إلى منتزه رأس العين الشهير ، وهو أجمل منتزه فى تلك البقعة ، فرأينا جموعاً من الناس محتشدة فى تلك المروج الفيحاء حول العين ، وقد افترشوا الأعشاب وتفيأوا ظل الأشجار ذات الرائحة الذكية .

وقد شاهدنا هناك أطلال آثار جامع قديم يرجع تاريخه إلى سنة ١٢٧٧ قضينا ليلتنا فى فندق بجوار العين فى ذلك الجو الهادئ ونحن نستعيد ذكريات تاريخية قصها علينا الدليل وأساطير غريبة رواها لنا لا تخلو من الطرافة .

رياق

عدنا من منتزه رأس العين الحافل بآيات الجمال فى الصباح الباكر



جلسة على نبع رأس العين تزيل عن النفس الحزن

وسرنا فى طريق وسط سهل البقاع الخصيب، الذى أبرز ما فيه من مظاهر الجمال ، انبساطه على مدى النظر ، وقد تناثرت الأشجار الباسقة فوقه فى كل مكان بدون نظام ، إلى أن وصلنا إلى رياق ، وهى ملتقى عدة طرق حديدية كان لها شأن كبير فى الماضى قبل أن تغزو السيارات جميع طرقات لبنان .

وقد اكتسبت رياق شهرتها من مطارها الحربى القديم ويقوم على مساحة واسعة من الأرض وهو من أحسن مطارات الشرق العربى مزود بالأجهزة والآلات الحديثة التى تحتاج إليها المطارات الحربية اليوم وقد لعب مطار رياق فى الحرب الكبرى الثانية دوراً هاماً فى محيط الأعمال العسكرية والحربية .

اشتوره

هبطنا اشتورا الفاتنة وكانت الشمس فى أوج السماء ، وتقع فى الجهة الشرقية من مدينة زحلة على ارتفاع ٩٠٠ متر من سطح البحر ، وتبعد عن بيروت بمقدار ٤٧ كيلو متراً ، فسارت سيارتنا تتهادى على طريقها الأملس الرحب النظيف بين أفواج من الناس ، غلب عليهم روح المرح والسرور ، إلى أن حطتنا رحالنا أمام نبعها الذى يتفجر من صخور صلدة فاتخذنا لنا مجلساً بالقرب منه ، وحولنا الخمائل الوارفة الظل وقدمتنا أغصانها التى لم تقو العواصف على إحناء هامها من نظرات الشمس

التى كانت تتسرق إلينا ، فكنا نحدق النظر فى ماء هذا الجدول البارد وهو يترنح فى سيره فوق الحصباء فى قناة تضيق حيناً وتتسع حيناً آخر ، لتروى البساتين والحدائق التى يكثر وجودها فى تلك البقاع .

وتلعب اشتوره دوراً هاماً فى توجيه دفة الشؤون السياسية والاقتصادية والثقافية فى الشرق العربى ، فيلتقى فيها كبار رجالات العرب ، ويعقدون اجتماعاتهم فى فندق مسابكى الشهير ، للتشاور فى الأمور التى تهم الشرق العربى ، ولإبرام المعاهدات ، وللبحث فى غير ذلك من الشؤون ، كما يقصدها العرسان وينزلون فى هذا الفندق الملىء بالذكريات .

وتطالعك فى اشتوره فى كل صباح ، صور تنطوى عليها حجرات هذا الفندق ، التى لا تخلو من قصص طريفة ، يقصها عليك خدمه بأسلوبهم التهكمى من حيث لا تدرى .

زرنا هذا الفندق زيارة خاطفة ، فتنقلنا فى أرجائه بإذن من المشرفين عليه ، إلى أن وصلنا إلى بهو واسع حافل بأفخر الأثاث والرياش ، كست جدرانه صور كثيرة تمثل جميعها ذكريات اجتماع رجالات العرب فيه .

وليس بغريب على بلد مثل اشتوره ، هى ملتقى عدة طرق لا ينقطع فيها سيل السيارات الغاديات الرائحات ، فى ساحتها التى تظللها أشجار الصفصاف ، أن تتعدد فيها المقاهى والمطاعم والفنادق والحوانيت التى تغص بروادها فى فترات معينة من السنة ، تبلغ أشدها فى فصلى الربيع والصيف اللذين يشيعان فيها جواً مليئاً بالفرح والسرور ، حتى لتمتد السهرات والحفلات فى ملاهيها التى تقام فيها فى شتى المناسبات إلى مطلع الفجر .

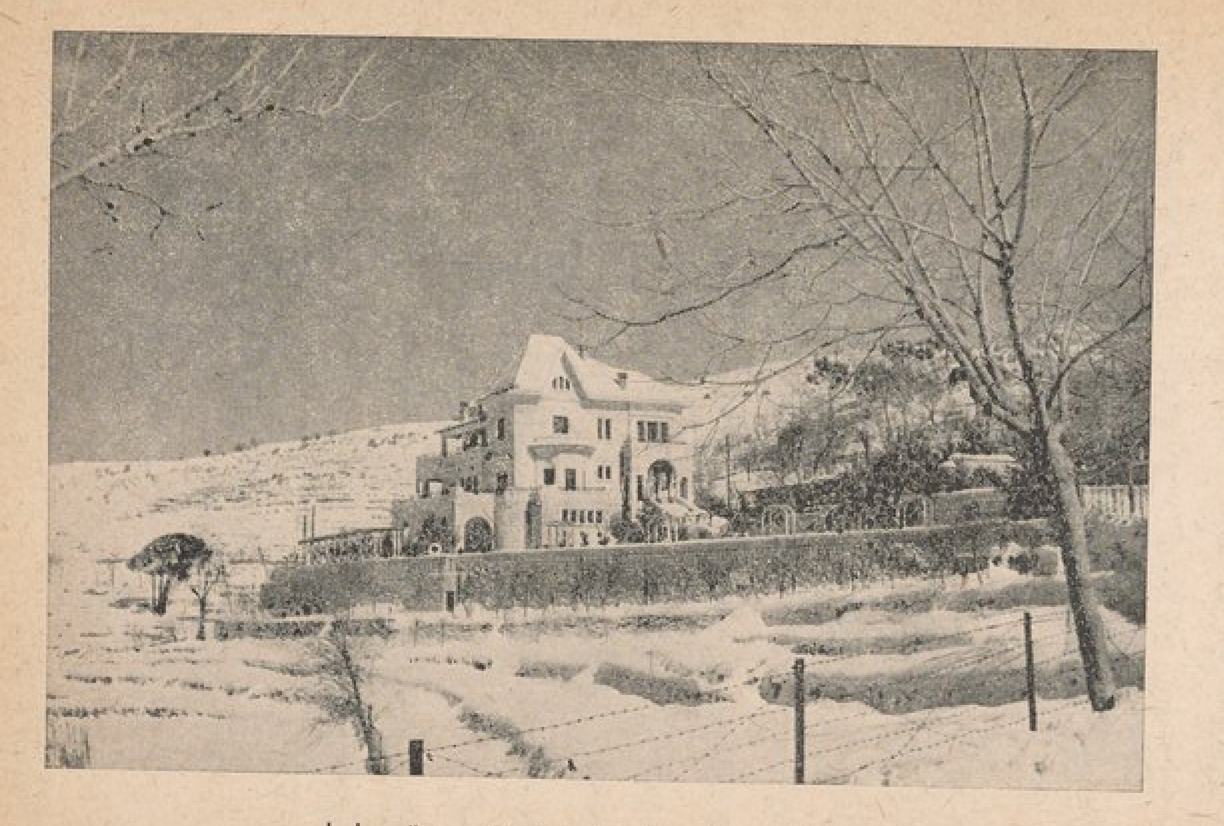
جديتا

لبثنا ما يقرب من ثلاث ساعات ونحن نتنقل فى أرجاء اشتوره التى تكتظ بالذين تطيب لهم الإقامة فيها إلى أن انصرفنا عنها إلى جديتا ، وهى قرية صغيرة ليست بذات شأن يذكر ، وإنما تكثر فيها كروم العنب المختلف الألوان والأشكال ، ويقطرون من عناقيده الكبيرة الحجم ، الشهية المنظر ، اللذيذة الطعم العرقى الفاخر ، ويعصرون منه النبيذ الحلو المذاق .

المريجات

كانت السيارة تزحف فوق طريق أملس بطىء الانحدار ، فى منطقة تعلو سطح البحر بمقدار ١٢٠٠ متر ، من مناطق لبنان التى تطبع فى النفس ألواناً بهيجة من ألوان الجمال . فى طريقها إلى أمتع مصايف لبنان وأكثرها ازدحاماً بالملاهى والمقاهى والكازينات .

ولما أشرفنا على رابية تطل على المريجات – وهى تصغير مرج ، سميت كذلك لوجود مروج خضراء نضرة فيها ، تسرح فيها قطعان الماعز وفى الجهة الشرقية منها كروم العنب ، لايشوب جوها الصافى الأديم الغيوم ، التى تحجب ما يحيط بتلك البقاع من جمال – أخذت عيوننا تطاول إليه ، وإلى ما حولنا من الأحراش التى هى زينة الجبال وبهجتها . ولكن يا ترى



منزل تحاصره الثلوج وشجرة عارية تقشعر من البرد ! !

هل يرى الناس هذه الصور البهيجة ويلمسون فيها آيات الفن التى يعجز أكبر فنان أن يأتى بمثلها ! !

ضهر البيدر

تلك تصورات جالت فى خاطرنا ، ونحن نواصل سيرنا فى طريق خفيفة الانحدار إلى ضهر البيدر ، وهو محط رياضة التزحلق على الثلج فى فصل الشتاء ، يقصده المبتدئون فى هذا الضرب من الرياضة لقربه من بيروت ، إذ يبعد عنها بـ ٣٥ كيلو متراً فقط . ويبلغ ارتفاعه ١٥٠٠ متر أوقفنا سيارتنا فى النادى الرياضى حيث استرحنا بعض الوقت ، فعلمنا من بعض النازلين فيه أن الثلج فى فصل الشتاء يغمر تلك البقاع ، فيسد المسالك والطرقات ، ويتعذر مرور السابلة والسيارات . وشاهدنا فى أثناء سيرنا نفق السكة الحديدية وقد شق فى جوف جبل انتصبت الصخور فوقه كالقلاع الجبارة وقد قلت أهمية هذا النفق اليوم ، بعد أن تغلغلت الطرق الحديثة فى جميع بقاع لبنان ، لتفسح لها مجالا للسيارة الأنيقة المريحة .

حمانا

بدت لنا حمانا المتربعة فى صدر الوادى الذى يحمل اسمها فى المساء كعروس مجلية فوق عرشها ، تختال وسط الأنوار الكهربائية ، التى تنبعث

فيها من كل مكان ، فتبدد جحافل الظلام التى كان ظلها قد بدأ يتراخى على الأشياء .

وكانت شوارعها تعج بالمصطافين الذين يستهويهم ما فيها من متعة ، وفتنة ، وقد خرجوا فى مثل هذا الوقت لاستنشاق الهواء العليل ، والتمتع بملاهيها الساحرة .

ويقع فى أعلاها الشاغور ، وقد خلد ذكره كثير من الكتاب والشعراء الذين زاروا لبنان ، كما تغنى بجماله الشاعر الفرنسى لامرتين ونعته بالوادى الحزين .

شاقنا أن نشاهد الشاغور ، فذهبنا إليه فى اليوم التالى مبكرين ، وكان الناس قد سبقونا إليه ، وانتشروا فى المقاهى والمطاعم القائمة حول حافتيه تظللهم الأشجار الباسقة ، التى قامت أجواق الطيور فوق أفنانها تستقبل الصباح البهيج بأغاريدها الحلوة ، وكأنى بها ترحب بالقادمين ، وترجو لهم طيب الإقامة فى هذا الوادى الفاتن الجميل .

واشد ما أثار إعجابنا منظر الماء ، وهو ينحدر فى هوة سحيقة ، نقر له فى قلب صخورها بمرور الأيام ، مجرى يسيل فيه إلى غايته ، وكان الجالسون حوله لا يسلمون من رذاذه الذى ينشره على الجانبين ، وهو يترنم فى أثناء انحداره بألحان الخلود ، يستلهم معانيها من الطبيعة الضاحكة التى انتصبت فوق رباها الأشجار الباسقة ، والتى تسترسل أغصانها فى التصفيق طرباً كلما هزها النسيم .

لقد اجتمع لوادى حمانا جمال الشواطئ ، وروعة الجبال ، وجلال

السهول ، فهو أروع منظر يرى الإنسان فيه بديع صنع البارى ، إذ لم نر فيه أثراً من آثار الحزن التى ألصقها فيه لامرتين زوراً وبهتانا ، بل كان كل شيء حولنا يشعرنا بالجمال الإلهى ، ويملأ قلوبنا بالبهجة والسرور ، ولاسيما فى الليالى القمرية عندما يبرز القمر من خدره زاحفاً على أطلال النهار ، ويتسلل نوره من بين أفنان الأشجار ، إن فى ذلك آيات الجمال فى لبنان .

تسلقنا رابية فوق الشاغور وأجلنا الطرف منها ، فبانت لنا قمم الجبال والوديان والقرى المنتشرة فى كل مكان ، وغابات الصنوبر التى يكثر وجودها فى تلك البقاع ، فيمر الهواء خلالها فتنقله بدورها إلى هذا المصيف الجميل نقياً ، فيه شفاء للصدور ، التى يمزجها اليأس برجاء الشفاء ، والصحة الكاملة بعد طول المرض والعناء .

فالوغا

تكاد القرى اللبنانية تكون متلاصقة ، لا يفصلها عن بعضها ، إلا حدود وهمية تواضع عليها الناس . فهناك بالقرب من حمانا تقع قرية فالوغا على السفح الغربى لجبل الكنيسة ، على ارتفاع ١٢٠٠ متر عن سطح البحر وتبعد عن بيروت بمقدار ٣٣ كيلو متراً .

اجتازت سيارتنا فى وسط هذه القرية ، وكانت تكتظ بالمصطافين الذين يستهويهم ما فيها من غابات الصنوبر الجميلة القديمة الأيام ، وهى تحيط بها إحاطة الهالة بالقمر .

ولا يقل مناخ فالوغا فى جودته عن باقى القرى اللبنانية التى تجاورها ،

فهواؤها عليل ، وماؤها عذب بارد غزير ، وفاكهتها شهية ، وخضراواتها نضرة ، ومنتجات ألبانها لذيذة دسمة مغذية ، وأشهر ما فيها نبع الصحة ، يرشدك إليه أى شخص ، ويقول لك والفخر يملأ فؤاده ، إن مياهه معدنية تليس أنفع منها للذين يشكون من أمراض الكلى. حقاً إن ينابيع لبنان التى تفجر من الصخور لا مثيل لها فى العالم فى شفاء الأجسام .

صوفر

وتقع وراء فالوغا قرى كثيرة معلقة فوق الجبال ، أخذ العم أبو طنوس يسرد أسماءها على مسامعنا ، فإذا كل واحدة منها تحمل طابعاً خاصاً من طوابع الجمال ، فاكتفينا بوصفها دون زيارتها ، وعدنا أدراجنا إلى صوفر التى تعلو سطح البحر بمقدار ١٣٠٠ متر ، وتبعد عن بيروت بـ ٢٧ كيلو متراً ، وكان الليل على وشك أن يوغل فى التقدم فقضينا ليلتنا فى فندق فيها ، وفى اليوم التالى سرنا فى شارعها الرئيسى الذى تحيط به الأشجار الباسقة على الجانبين ، وهو بمثابة منتزه يكتظ دائماً بالمصطافين ، على أن صوفر مصيف هادئ ، هواؤها جاف ، ومناخها صحى ، رائع ، ودورها فخمة نظيفة ، تتمثل فيها أيضاً المناظر الطبيعية الفاتنة التى قلما تخلو قرية لبنانية منها.

بحمدون

كان مرورنا ببحمدون التى تعلو على سطح البحر بمقدار ١١٥٠ متراً ،

وتبعد عن بيروت بمقدار ٢٥ كيلو متراً فى الأصيل ، وكانت الشمس قد ألقت خيوطها الذهبية على الجبال والوديان التى تطل عليها ، وكروم العنب المتعددة الأصناف التى تحيط بها إلى مسافات شاسعة ، وحدائق الفاكهة التى تزين كل بقعة فيها ، فتخلع عليها ألواناً من الجمال ، تبعث فى القلوب فيضاً من الإحساس بسحر تلك المناظر التى تشيع فى جمالها الروعة والجلال ، وتنشىء فى النفوس صوراً تمثل لك مدى ما بلغه هذا المصيف ذى المناخ الجاف من الشهرة ، وما امتازت به المناظر الطبيعية فيه من سخاء أحسسنا بها ونحن نطوف فى تلك الضواحى الفاتنة ونمتع النظر بقطوفها الدانية

قضينا بقية يومنا ونحن نتجول فى بحمدون المحطة ، فزرنا فيها فندق الامباسادور وهو من أشهر فنادقها ، وأفخمها ، ويقف على قدم المساواة فى روعته ، وجمال موقعه ، وحسن استعداده ، مع فنادق الدرجة الأولى فى المصايف اللبنانية الشهيرة . ويلتقى فى هذا الفندق وفى سواه ، كبار الشخصيات والأثرياء وسواهم من المصطافين الذين يفدون إلى هذه البقعة الجميلة ، ليستمتعوا بسحر مناظرها وطيب هوائها ، وفاكهتها الشهية وبخاصة أعنابها .

وقد أعجبنا بشوارع بحمدون النظيفة الواسعة المعبدة بالأسفلت ، والمضاءة بالكهرباء ، وعلى جانبيها المقاهى والملاهى والحوانيت ، رأينا السكة الحديد وهى تخترق بحمدون المحطة متسلقة الجبال ، فكان منظر القاطرة وهى تلهث متواثبة فوق القضبان الحديدية ، وسحب دخانها القاتم يملأ الجو فى طريقها إلى سهل البقاع الخصيب ودمشق ، لمن أروع المناظر

قد قلت اليوم أهمية هذه السكة الحديدية بعد ما عرفت السيارة طريقها إلى جميع قرى لبنان .

عاليه

استقبلتنا عاليه المدينة اللعوب الطروب بعد الغروب ، فبدت لنا وهى رابضة على الجبل المطل على شاطئ البحر بدورها الجميلة ، وفنادقها الفخمة ، وحدائقها الغناء ، وملاهيها العديدة الفاتنة ، كغادة هيفاء تميس فى ثوب أرجوانى قشيب ، خلعته عليها الأنوار الكهربائية الساطعة التى تسبح فيها وتشع من منتدياتها فى أنتظار عشاق الليالى الحمر الذين يستهويهم ما فى هذا الصيف من جمال ومتعة ولذة .

قصدنا فندقاً استرحنا فيه بعض الوقت ، ولما تقدم الليل صحبنا العم أبو طنوس فى جولة فى الشارع الرئيسى الذى يخترقها ، فشاهدنا على جانبيه المقاهى ، والملاهى ، وصالات الرقص ، والكباريهات ، والفنادق الفخمة ، التى لم نألف رؤية مثلها فى قرى الاصطياف الأخرى التى مررنا بها ، وقد اكتظت بالوافدين عليها فى صدر الليل ، لقضاء سهرات ممتعة متحررين من قيود هذه الحياة إلى حين ، وليعودوا إلى منازلهم أو أعمالهم خالين الوفاض مع الصباح البهيج .

وقد لاحظنا أن هذه الملاهى وأكثرها ينتقل من بيروت إلى عاليه فى فصل الصيف ، تقدم للمترددين عليها برامج مسلية ، وحفلات شائقة ،

ورقصاً خليعاً ماجناً ، يظهر الراقصات فيه على المسارح بأثواب شفافة تفصح عن كل شيء تحتها . إنها المدنية الزائفة ، بل الحرية الغالية التى ينشدها طلاب المسرات عن هذا الطريق الملىء بالأشواك ، ما أفدح الثمن وما أرحب الطريق ! !

وتبعد عاليه عن بيروت بمقدار ١٥ كيلو متراً فقط ، تقطعها السيارة فى طريق متصاعدة واسعة مفروشة بالأسفلت ، تحف بها الأشجار على الجانبين ، فى أقل من ربع ساعة ، ولذا اتخذتها الحكومة مقراً رسميا لها فى فصل الصيف ، ومعها رجال السفارات والقنصليات وكبار رجالات الدول العربية كما يصطاف فيها أيضاً رئيس الجمهورية .

ملاهى عاليه

وتجتذب ملاهى عالية فى فصل الصيف أشهر المغنيين والمغنيات ، والفنانين والفنانات ، والممثلين والممثلات ، والراقصات لإحياء الحفلات على أشهر مسارحها ، للترفيه عن أصحاب الثروات الذين يضيقون ذرعاً بما معهم من مال لا يعرفون كيف ينفقونه . وهكذا تذوب الثروات الطائلة فى عاليه المصيف الفاتن ، الذى يفوق بملاهيه وبما تقدمه من برامج شائقة أعظم الملاهى فى العواصم الكبرى ، أما سيل السيارات ، فلا ينقطع بين بيروت وعاليه ، لا ليلا ولا نهاراً ، ولذا تظل طرقها مكتظة بالسيارات التى تلاقى صعوبة بالغة فى شق طريقها إلى الجهة التى تقصدها .

أشهر فنادق عاليه

تضارع فنادق عاليه بفخامتها وحسن موقعها ونظافتها أعظم الفنادق العالمية ، غير أن أشهرها فندق طانيوس . من لا يعرف هذا الفندق الذى هو ملتقى كبار رجال المال والأعمال ، ومحط رجال السلك السياسى والقنصلى، وكبار موظفى الدول العربية ، يتسامرون فيه ويتشاورون فى شتى الأمور التى تهم الشرق العربى ، وإلى جانب فندق طانيوس يقوم فندق الجبيلى وفندق شاهين ، وقد حرص أصحابها على أن يجعلوا منها أحسن الفنادق العالمية وأكثرها راحة للنازلين فيها . زرنا هذه الفنادق فإذا هى تكتظ بكبار الشخصيات الذين يستهويهم ما فيها من أسباب الراحة وضروب التسلية .

البيسين

كان لزاماً علينا أن نزور البيسين ، وقد شاقنا فى معرض الحديث عنه ما سمعناه من أحد الصحفيين الذين قابلناهم فى فندق طانيوس صدفة ، فقصدناه فى المساء لنقضى سهرة ممتعة فيه ، فإذا هو بحق مفخرة الملاهى العالمية ، لسعة مساحته ، وحسن تنسيقه ، وجمال هندسته ، التى اشترك فى تصميمها كبار المهندسين ، الفرنسيين والإيطاليين واللبنانيين .

ويشرف البيسين على الشاطىء اللبنانى الفاتن ، فتنبسط تحته بيروت وما يحف بها من القرى والدساكر بمناظرها الطبيعية الفاتنة .

اتخذنا لنا مجلساً فى الحديقة الجميلة التى يزينها حوض السباحة نتناول طعام العشاء على أنغام الموسيقى ، وكانت الحديقة تموج بالوافدين عليها ، وقد تدلت فوق مقاعدهم الأنوار الكهربائية الساطعة ، وكانت تمتزج بأضواء القمر وبريق النجوم ، فتحيل الظلمة الحالكة إلى نهار وكان النسيم يداعب صفحات الماء ، فيتماوج بدلال تموجاً فيه سحر وفيه جمال . ولما تقدم بنا الليل ، انتقل الناس إلى المسرح ، فانتقلنا معهم ، فشاهدنا على خشبته تمثيليات يقوم بأدوارها كبار الفنانيين والممثلين من الجنسين ، وهكذا قضينا سهرتنا فى جو البيسين الفاتن ، حتى مطلع الفجر ، فغادرناه وسحر المناظر التى هيمنت علينا لم تغب عن مخيلتنا .

سوق الغرب

كان انفصالنا عن عاليه فى صباح هادئ ، تعطره النسمات المنعشات ، فسارت بنا السيارة فى طريق واسع مفروش بالأسفلت ، تكتنفه الأشجار على الجانبين شأنه شأن جميع طرقات لبنان الجبلية الحديثة ، ذات المناظر الخلابة الفاتنة ، التى شقت وسط الجبال الشامخة ، وكانت الشمس إذ ذاك فى صدر بزوغها ، ترقص فوق تلك الربى ، تحجبها عن العين من حين إلى حين ، غيوم شفافة عابرة ، كانت ترافقنا فى سيرنا ، وكان النسيم العليل يزجى

إلى أنوفنا الروائح المسكية ، وهو يهدهد الزهر الذى ينور بين الصخور والأدغال .

كانت أول قرية مررنا بها هى سوق الغرب ، ولعلها سميت بهذا الاسم ، لأن سوقاً كانت تقام فيها للمنتجات اللبنانية ، وتعلو سوق الغرب عن سطح البحر بمقدار ٨٠٠ متر، وتبعد عن بيروت بمقدار ٢٣ كيلو متراً ، وهى ذات مناخ صحى ، وموقع جميل ، تشرف على بيروت والبحر الأبيض المتوسط ، تكسو رباها أشجار الصنوبر ، وتزين أرجاءها دوالى العنب الجاثمة فوق الأرض وقد أخفت تحت أوراقها حملها الثقيل ، وترصعها حدائق الفاكهة بما فيها من أشجار يغمرها الصباح بفيض من نوره الوضاء ، كان يملأ قلوبنا نشوة ورضى .

ويقوم على جانبى طرقات هذه القرية المضاءة بالكهرباء ، والمفروشة بالأسفلت ، الحوانيت والفنادق الفخمة ، وأشهرها فندق كامل الذى تقام فيه مسابقات انتخاب ملكة الجمال فى لبنان ، كان بودنا أن نحضر حفلة من تلك الحفلات ، لنشاهد فتيات لبنان وهن يرفلن بملابسهن الشفافة ، التى تفصح عن كل عضو من أعضاء أجسامهن ، وهن واقفات أمام هيئة المحكمين ومن حولهن الناس يشاهدون هذا المنظر الفريد فى نوعه ، ولكن العم أبو طنوس وهو الصحافى المخضرم ، قد أراحنا من مشاهدة مثل هذه الحفلات ، فراح يصف لنا حفلة شاهدها بنفسه فقال :

حضرت مرة انتخاب ملكة الجمال فى لبنان ، فرأيت المحكمين وهم بشر مثلى ومثلكم ، قد وقفوا يتغزلون فى الأبدان ، وهى تمايل فوق المنصة

كأغصان البان ،وقد تربع فى صدر كل واحدة من الحسناوات المتسابقات حقان ،كأنهما رمانتان ، ويفحصون الوجوه وقد طليت بطبقة من الأصباغ والمساحيق التى هى من مستلزمات الجمال ، ثم راحوا فى النهاية يتلمسون الجمال فى ناحية أخرى من الأجسام ، ألا وهى السيقان وكانت كأنها نضيد الجمان ، وكان المحكمون يدققون النظر فى تلك التماثيل الحية ، ويتحسسون بعض الأعضاء ولا لوم عليهم ، ويقيسون البعض الآخر ،وقد مكثوا على هذه الحال مدة وهم يقلبون الصفقة على جميع الوجوه ، وأولئك الفتيات صامتات باسمات الثغور وهن فى معرض الجمال متعة للناظرين .

ولا تقتصر إقامة مباريات انتخاب ملكة الجمال على سوق الغرب فحسب ، وإنما تتعداها إلى بعض قرى الاصطياف الأخرى ، التى تنفرد بالمنتديات ودور اللهو ، فيغشاها عشاق الجمال ، وطلاب المسرات .

ويقع وراء سوق الغرب واد خصيب ، يتسع جانباه حيناً ، ويضيق حيناً ، وأشهر متنزهات هذا المصيف الفاتن ، عين السيدة ، والحرش ، ويذهب إليهما الناس للتمتع بما فيهما من جمال ، قد خطته يد الطبيعة على تلك الربوع .

شملان

وتقع جنوبى سوق الغرب قرية « شملان » وهى قرية صغيرة ، تشرف على البحر الأبيض المتوسط وتنبسط تحتها مدينة بيروت ، وكثير من

القرى والدساكر ، اجتازت سيارتنا شوارعها بدون أن نتنبه لها ، غير أن العم أبو طنوس لفت نظرنا فيها إلى معهد جميل الهندسة ، حسن الموقع ، تحيط به حديقة غناء ، يدل مظهره على عظم أهميته ، يتخرج فيه كبار رجال السلك السياسى البريطانى ، الذين يعملون فى الشرق الأدنى فقال :

أنشأ الإنجليز فى فلسطين سنة ١٩٤٤ يوم أن كانت تحت الانتداب البريطانى معهداً أطلقوا عليه « مركز الدراسات العربية فى الشرق الأوسط » وقبيل انتهاء الانتداب البريطانى فى فلسطين ، نقلت وزارة الخارجية البريطانية مركز هذا المعهد ، الذى هو تحت إشرافها إلى قرية شملان ، بعدموافقة الحكومة اللبنانية ، ولم نعلم لماذا اختار البريطانيون قرية شملان بالذات ، مع أنها قرية صغيرة لا شأن يذكر لها .

وترسل وزارة الخارجية البريطانية إلى هذا المعهد شباناً من جميع أنحاء المملكة المتحدة ، من كندا ، واستراليا ، ونيوزيلندا وغيرها ، فيتعلمون اللغة العربية قراءة وكتابة ، وتاريخ البلدان العربية والإسلام ، فى مدة الدراسة التى لا تتجاوز سنة ، يتحتم على الطالب فى أثنائها ألا يتكلم سوى العربية . وقد تخرج فيه عدد كبير من الدبلوماسيين ، يشغل اليوم أكثرهم ، مناصب هامة فى السلك السياسى فى الشرق الأوسط .

الفصل العاشر

دير القمر

تركنا شملان ومعهدها الزاهر ، واستأنفنا سيرنا فى طرق معبدة بالأسفلت فمررنا بكثير من القرى ، وبعد مسير ساعة من الزمان ، وسيارتنا فى هبوط وصعود ، ولف ودوران ، حول الأكواع والمنحنيات ، بدا لنا واد واسع العرصات ، يذهب فى الغور إلى مدى بعيد ، تفيض جوانبه نضرة وخضرة ، تشرف عليه رابية جميلة ، يقصدها الناس للنزهة ، فما كدنا نجتازها ، حتى ظهرت لنا دير القمر ، ببيوتها المشيدة على منحدرات رائعة ، تطوقها غابات الصنوبر وكروم العنب ، وتعلو دير القمر عن سطح البحر بمقدار ٨٣٥ مترا ، وتبعد عن بيروت بمقدار ٤٥ كيلو مترا .

طفنا فى هذا المصيف الجميل ، فشاهدنا القصر المعروف بقصر الحرج الذى بناه الأمير فخر الدين المعنىّ الثانى بدهاليزه الخفية ، وسراديبه العجيبة التى تشبه بغرابتها أساطير ألف ليلة وليلة ، كما رأينا الجامع الذى بناه الأمير يونس أخى الأمير فخر الدين ، وهو من الآثار الجليلة التى تركها الأمراء المعنيون الذين حكموا لبنان .

مررنا بعدئذ بمنشية البلدية ذات الموقع الطبيعى الفاتن ، وقد غرست فى أرجائها أشجار من الصفصاف الفارع الطول تدلت أغصانها فوق بركة ماء ، خلعت على المكان منظراً بهيجا يفتن كل من يراها ، وبعدئذ انتقلنا إلى ميدان فسيح الأرجاء قيل لنا إن الفرسان كانوا يتبارون فيه فى أيام الأمراء المعنيين والشهابيين .

شوارع دير القمر نظيفة واسعة ، مفروشة كلها بالأسفلت ومضاءة بالكهرباء ، وقد أقيمت على جانبيها المقاهى والفنادق من الدرجة الأولى والحوانيت التى يجد المرء فيها جميع ما يشتهى. أما نبع الشالوط فهو أشهر ينابيعها ، يتدفق ماؤه بغزارة من أفواه مواسير واسعة . ذقنا هذا الماء فإذا هو بارد عذب مثله مثل بقية مياه لبنان .

غابة الشربين

زرنا فى أعلى هذا المصيف غابة الشربين التى يبلغ عمر بعض أشجارها مئات السنين ، وقد تعانقت أغصانها لقدم عهدها ، ولا تقل عنها جمالا وروعة غابة الصنوبر الكثيفة الأغصان ، ذات الرائحة العطرية التى تنبعث منها عندما يلامسها النسيم .

دير سيدة التلة

سلكنا بعدئذ طريقاً تحف به الأشجار ، يوصل إلى دير سيدة التلة لرهبان الموارنة ، القائم فى مكان مرتفع عن يمين الطريق المؤدى إلى بيت الدين فى وسط البلدة ، فى جداره القبلى حجر كبير عليه صورة تشبه القمر فى شكلها ، قيل لنا إنهم وجدوه فى دير قديم ، ولذا أطلقوا على هذه القرية ، التى لعبت دورا هاما فى تاريخ لبنان السياسى ، دير القمر .

وفى رواية أخرى قصها علينا أحد شيوخ البلدة ، أنه عندما تولى الأمراء المعنيون الحكم فى قضاء الشوف ، عثر النصارى على أنقاض دير فى غابة ، فأخذوا يعيدون بنيانه فى الليل على ضوء القمر فقيل لها دير القمر ، نسبة إلى هذا الحادث .

ودير القمر مناخها جاف صحى ، ويفصلها عن بيت الدين التى تعلو سطح البحر بمقدار ١٠٠٠ متر وبعقلين واد جميل ، طوت سيارتنا طريقه المتماوج بين الأشجار ذات الرائحة الذكية ، إلى أن برز أمامنا بناء عالى الأركان ، شرقى الهندسة ، شيد فوق رابية تشرف على الوادى ، وحوله القرى والدساكر القائمة فوق الروابى والمرتفعات تحيط به صخور قد نبتت الأعشاب بين شقوقها حتى نمت وطالت .



قصر بيت الدين مقر رئيس الجمهورية

بيت الدين

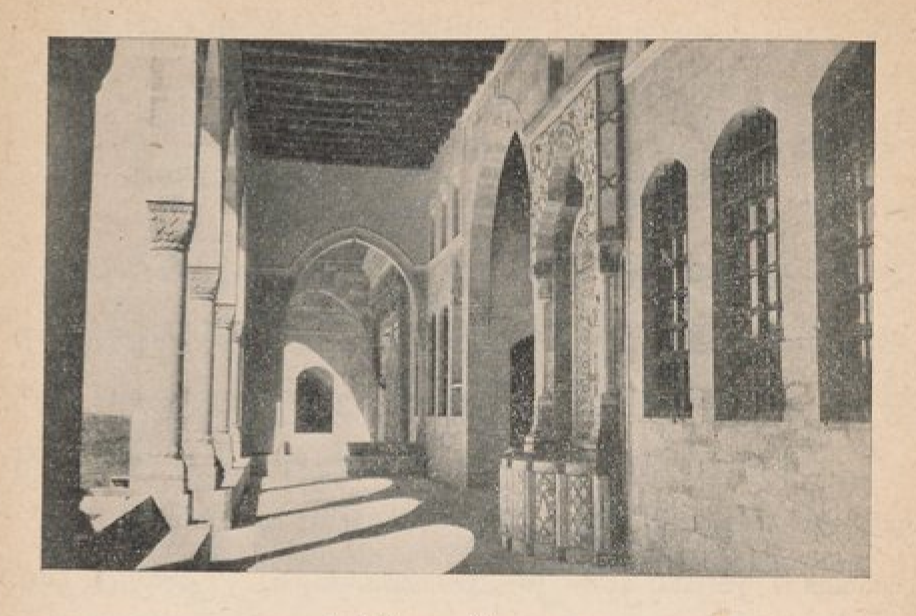
نالت بيت الدين شهرتها من قصرها التاريخى الشهير الذى عهد الأمير بشير الشهابى الكبير فى أوائل القرن التاسع عشر بتشييده إلى فنانين من دمشق ، وقد قضوا فى بنائه حوالى عشرين عاماً ، حتى جاء هذا القصر المنيف بأروقته المنضدة ، وقبابه المرفوعة عليه ، وأعمدته الملساء ، وأبراجه المربعة ، تحفة فى فن البناء ، وآية فى حسن الهندسة ، ومتعة للعين ، يزيد فى جماله الأعشاب المتداخلة فى شقوق جدرانه . ويعتبر هذا القصر

على حداثة عهده من الآثار اللبنانية الخالدة التي يفاخر بها اللبنانيون .

وقد اتخذت الحكومة اللبنانية جزءاً من الجناح الخارجي في هذا القصر ، وجعلت منه شبه متحف ، رأينا فيه كثيراً من أنواع الأسلحة والصور والأزياء وسوى ذلك من الأدوات التي يرجع تاريخها إلى عهد الأمراء المعنيين والشهابيين .

وقد اعتزل الأمير بشير الحكم في لبنان سنة ١٨٤٠ بعد مؤتمر أوربا ، حين أجبرته الدول الأوربية على ذلك ، فشد رحاله إلى مالطه ، ولذا يطلقون عليه الأمير بشير المالطي ، ونزل في حانة أنطونيو مصيف حاكم الجزيرة مع ولديه الأمير أمين والأمير خليل اللذين رافقاه إلى منفاه ، ثم تركها بعد سنة تقريباً إلى الإستانة حيث مات في ٢٩ ديسمبر سنة ١٨٥٠ وعمره ٨٧ سنة ، ودفن في مقبرة الأرمن الكاثوليك في بيرا .

طفنا بداخل هذا القصر برفقة شاب من أهل القرية بإذن خاص ، فإذا هو يتألف من ثلاث بنايات غاية في الروعة وحسن البناء ، وقد لفت نظرنا الميدان الفسيح الذي كان يتبارى فيه الفرسان بألعاب الفروسية ، والشعراء والزجالون بما تجود به قريحتهم من بديع النظم ، وحسن الإلقاء بحضرة الأمير وحاشيته وكبار الشخصيات ، ثم المبنى الخارجي ، والمبنى الوسطي ، وجناح الحريم والإسطبلات التي كانت تأوي مئات الجياد المطهمة العربية ، وقاعات الحمام التركية وغيرها فعدنا بذاكراتنا إلى الماضي القريب ، يوم أن كان هذا القصر قبلة الأنظار وملتقى الرجالات العظام الذين زاروا لبنان .



قصر بيت الدين من الداخل

وقرأنا على رتاج بابه الخارجى الكبير بيتاً من الشعر ، قال لنا العم ابو طنوس إنه من نظم الشاعر بطرس كرامه شاعر الأمير :

وعلى باب الحمى قد أرخوا　　　　دار عدل فادخلوها بسلام

كما قرأنا فى القاعة الكبرى ، المعروفة بقاعة العمود والمزدانة بالنقوش العربية البديعة ، تلك القاعة التى كان الأمير يقابل فيها ضيوفه من أجانب ووطنيين العبارة الآتية :

« رأس الحكمة مخافة الله »

كما كتب فوق الباب من الداخل :

بنى الإله جزاء من بالعدل يرعى عباده
فساعة العدل خير من ألف شهر عباده

وهناك نقوش عديدة منقوشة على الجدران المحلاة بالفسيفساء كلها آية فى الجمال . وقد ابتاعت الحكومة اللبنانية هذا القصر من ورثة الأمير بشير ، وأصبح المقر الصيفى لرئيس الجمهورية منذ سنة ١٩٤٤ بعد أن رممته مصلحة الآثار اللبنانية وأعادت إليه رونقه وجماله .

وقد أخبرنا الشاب المرافق لنا ، أن السياح الذين كانوا يزورون هذا القصر فى الماضى ، كانوا يحملون معهم على سبيل التذكار ، قطعاً من الرخام التى كانت تزين قاعة العمود .

وشاهدنا فى إحدى حجرات هذا القصر متحفاً للأزياء والعادات اللبنانية التى كانت شائعة فى عهد الأمراء وعهد المتصرفية .

ويحيط بقصر بيت الدين حدائق غناء ، رأينا فى ركن منها ضريح الست شمس زوجة الأمير بشير الأولى وأم أولاده الثلاثة الذكور قاسم وخليل وأمين ، وقد وضعت بجوارها رفات زوجها الأمير بشير بعد نقله من مقبرة الأرمن الكاثوليك فى شهر اكتوبر سنة ١٩٤٧ .

وقد أثارت زيارتنا لهذا القصر التاريخى ذكريات ماضيات ، كانت تدور كلها حول ما كان عليه من ابهة وعظمة وجلال ، أيام حكم الأمير بشير للبنان ، وقد أراد أن يخلق منه بلداً كبيرا ، ولكن المطامع الأوربية

والأهواء الشرقية تألبت على هذا الأمير ، وأقصته بعيداً عنه ، حيث مات ولسانه يهجس بذكر لبنان الذى أحبه ومات بعيداً عنه .

وقبل أن نغادر بيت الدين وقف العم أبو طنوس فى ساحة القصر وأخذ يقص علينا القصة التالية عن الأمير فقال :

فى اليوم الثالث لوصول الأمير بشير إلى إسطنبول بعد أن أرغم على أن يتخلى عن الامارة اللبنانية أرسل رؤوف باشا الصدر الأعظم يدعوه إلى مقابلة الباب العالى وأرسل إليه فى الوقت ذاته خيولا مطهمة له ولحاشيته.

وقبل أن يتشرف الأمير بشير بالمثول أمام الباب العالى ، سأل كبار رجال الديوان الصدر الأعظم ، وكان متغطرسا ، ينظر إلى العرب نظرة الأسياد للعبيد ، هل نقوم للأمير للسلام عليه ، فأجابهم : كلا لانقوم .

ولما حل ركاب الأمير فى ساحة السراى ، وأهل بطلعته الموقرة ، وعينيه البراقتين ، ولحيته المسترسلة على صدره ، وقد خطها الشيب ، وظهر بزيه اللبنانى العربى ، يشد وسطه مأزر من الكشمير كان قبلة جميع الأنظار ، ترجل الأمير عن جواده وأنبئ الصدر الأعظم بقدومه ، فدخل عليه الأمير ، فما كاد الصدر الأعظم يراه ، حتى تهيبه فنهض من مكانه إجلالا واحتراما ، واقترب منه مسلما ، فنهض جميع الحاضرين عندئذ وقد تملكهم العجب ، وأخذهم الدهش من كل ما حدث ، ولا سيما عندما أعطى الأمير بشير مكان الصدارة فى المجلس ، وبعد انصرافه سأل بعض رجال كبار ديوان الصدر الأعظم ، لماذا نهضتم للأمير بشير بعدما كنتم قد أصدرتم أمركم بعدم الوقوف ، فأجاب الصدر الأعظم ،شعرت أن فى هذا

الرجل قوة أنهضتنى ، فإنى لم أر فى حياتى هيبة مثل التى رأيتها فى هذا الرجل فقد رأيت فى جلال منظره وقوة شخصيته وعظمتها أكثر مما سمعت عنه .

بعقلين

جمعتنا رفقة الطريق إلى بعقلين ، وسميت كذلك لوقوعها بين جبلين ، بشاب من شباب الطائفة الدرزية الكريمة ، التى تعيش مع الطائفة المارونية فى جبل لبنان الأشم ، على أحسن ما يكون من حسن التفاهم والوئام ،

طرقنا أثناء الطريق مع هذا الشاب موضوعات عدة ، حتى إذا عرجنا فى نهايتها على موضوع الغربة والمغتربين ، انتفض الشاب من مكانه وقال :

ـ إن داء الهجرة الذى استشرى فى لبنان هو الذى قتله فى الصميم ، وإن ما يتشدق به الناس من أن جبل لبنان يضيق بساكنيه ، فهذا كلام هراء لا يستقيم مع المنطق السليم ، فقد كان هذا الجبل يستوعب فى القديم عدداً من السكان ، يفوق عددهم الحالى بمراحل ، ومع ذلك كانوا يعيشون قانعين ، وبقناعتهم كان غناهم وكانت راحتهم .

أذكر أن الرومان لقبوا لبنان بأهراء روما ، فكانت سهوله الخصبة الساحلية منها والجبلية ، تمد روما بأنواع الحبوب فى تلك الأيام ، التى كانت فيها طرق المواصلات صعبة شاقة .

ونحن الدروز لا نميل إلى الهجرة كثيراً ، فأراضينا تمدنا بما نحن فى حاجة إليه . فمن كرومنا نصنع الدبس « العسل » ، ومن حقولنا نخزن

الغلة وأنواع الحبوب ، ومن ماشيتنا نصنع «القورما» وكنا إذ ذاك قدبلغنا بعقلين ، وهى مصيف هادئ ، مناخها صحى ، وهواؤها جاف ، وماؤها بارد غزير ، وهى تعلو سطح البحر بمقدار ٨٥٠ مترا .

وقد أخبرنا العم أبو طنوس أن أول من نزل فى هذه القرية واتخذها سكناً له ، قبائل بنى الفوارس وقد وفدوا عليها من معرة النعمان ، كما اتخذها الأمراء المعنيون مقراً لسكناهم بعد انتقالهم من دير القمر .

وتحيط ببعقلين حقول أشجار الزيتون الواسعة ولذا تكثر فيها معاصر الزيوت ، ومصانع الصابون ، التى تكاد تكون بدائية فى معداتها وأدواتها.

وتشتهر بعقلين بصناعة السجاد والعباءات التى يلبسها الفلاح اللبنانى ، وتصنع من وبر الماعز التى تربى قطعانه فى الجرود ، غير أن هذه الصناعة اليوم فى طريق الزوال ، لتغلغل روح المدنية فى قرى لبنان كما هو شأن صناعات كثيرة فيه .

ويقيم فى بعقلين أحد مشايخ عقل الدروز الثلاثة وقد قابلناه مقابلة خاصة فإذا هو شيخ جليل الهيبة حلو الحديث رحب بنا وأكرم وفادتنا .

الطائفة الدرزية الكريمة

قال لنا رفيقنا الشاب وهو يحدثنا عن طائفته التى ينتسب إليها ، أن لبنان هو منبت هذه الطائفة التى يرجع تاريخ نشأتها إلى أواخر القرن الرابع الهجرى ، وذلك حين عهد الحاكم بأمر الله صاحب الآراء الغريبة ،

والمعتقدات الشاذة ، إلى أحد أتباعه المدعو « محمد إسماعيل الدرزى » أمر رعاية التنوخيين الذين نزحوا من اليمن بعد سيل العرم إلى سوريا ، ومكثوا فيها ، ولم يغادروها مع الذين غادروها إلى مصر ، فكان هذا من شأنه أن يغلب هذا الإسم عليهم ، وأصبحوا يلقبون « بالدروز » نسبة إلى هذا الشخص، فى حين أنهم يتبرأون منه ، ويقبحون سيرته ، ويناهضون تعاليمه التى تخالف معتقداتهم .

ولما دالت دولة الفاطميين ، شد التنوخيون المقيمون فى حلب رحالهم إلى لبنان ، وأقاموا بجهة الشوف ، وما زالوا حتى اليوم يقيمون فى هذه البقعة وما جاورها .

المختارة

وتقوم على مقربة من بعقلين قرية المختارة، تحيط بها الغابات الشاسعة ذات الأشجار الباسقة ، زرنا فى هذه القرية قصر الأمير كمال جنبلاط . الزعيم الدرزى الشهير ، وهو قصر قديم غاية فى الروعة ، يشرف على واد يزيد فى جماله ، ويحيط بهذا القصر شجر السرو الدائم الاخضرار الفارع الطول .

والأمير كمال جنبلاط ، رئيس الحزب التقدمى الاشتراكى فى لبنان، مثقف ثقافة عالية ، وقد وزع جميع ممتلكاته الواسعة التى ورثها ، على أفراد قريته ، ولم يحتفظ لنفسه منها إلا بما يقوم بأوده .

الباروك

انتقلنا بعدئذ إلى منطقة الباروك ، وهى مصيف جميل تعلو سطح البحر بمقدار ١١٧٠ مترا وتبعد عن بيروت بمقدار ٥١ كيلو مترا ، مناخها صحى ، وجوها جاف ، وفيها النبع الشهير المعروف بنبع الباروك ، يتفجر ماؤه العذب الغزير من صخور تكتنفها الأشجار . ويقصد منطقة الباروك ، كثير من الناس للتمتع بجوها الجميل ، وهدوئها الشامل ، ومناظرها الطبيعية الفاتنة ، فمن جبال عالية تكسوها الأشجار ، وصخور جميلة الشكل تنبت فوق رباها الأعشاب النضرة ، إلى غابات كثيفة يزينها شجر الأرز الذى يبعث فى النفس أسمى صور الولع بالجمال ، نبتت حوله زهور متنوعة الأشكال والألوان .

اتخذنا لنا مجلساً فى تلك البقعة الهادئة ، تحت شجرة تميل أغصانها مع الريح حيث مال ، وتشدو الطيور فوقها ألحاناً تستمد جمالها من روعة المكان ، فتناولنا طعامنا فى ذلك الجو الساحر على أديم أرض نثرت الأشجار فوقها أوراقها الصفراء ، وشربنا من ماء نبع الباروك البارد العذب ، وكان الناس قد اجتمعوا تحت الأشجار والمنتزهات التى حوله يرقصون ويطربون ويترنمون بالأغانى العذبة ، وكانت الطبيعة تشاركهم أفراحهم ومسراتهم بجوها الساحر ، وشمسها الدافئة وهوائها العليل .

عين زحلتا

ما كدنا نترك نبع الباروك الشهير ونقطع طريقاً جبلياً ممهداً بالأسفلت ، حتى بلغنا عين زحلتا ، وتعلو سطح البحر بمقدار ١٢٠٠ متر ، وتبعد عن بيروت بمقدار ٤٦ كيلومترا ، فإذا هى محاطة بغابات باسقة الأشجار ، جوها جاف ، ومناخها صحى ، ومياهها غزيرة عذبة باردة . وقد شاهدنا فيها آثار هيكل قديم قيل لنا إنه كان لأحد آلهة الأشوريين الذين كانوا يقيمون فى تلك البقاع فى العهد القديم .

عين الحلف

وقد اجتزنا فى هذا المصيف الفاتن بعين ماء بأعلى القرية يقال لها عين الحلف ، وهى نبع ماء بارد عذب ، وقد سميت كذلك لأن الأمير بشير الشهابى الكبير كان يلتقى بأعدائه عندها ويعقد الصلح معهم .

نبع الصفا

أفضت بنا إلى قرية نبع الصفا الغارقة فى الرياض الخضراء ، طريق معبدة بالأسفلت ، تحف بها المناظر الطبيعية الفاتنة ، فزرنا فيها نبعها

الشهير البارد العذب ، وقد جر مياهه الأمير بشير الشهابى الكبير فى الماضى إلى بيت الدين ، وقد رأينا الآلات الحديثة التى أقيمت على شلالاته لتوليد التيار الكهربائى الذى يغذى شركة ترام بيروت ، كما شاهدنا حول النبع فندقاً مبنياً على الطراز الحديث ، قضينا فيه ليلتنا فى ذلك الجو الساحر ، وكان صوت شلالات النهر يدوى فى آذاننا لشدة انحدار مائه فيطربنا .

الفصل الحادى عشر

مصايف الجنوب

أراد العم أبو طنوس كعادته قبل القيام برحلتنا إلى لبنان الجنوبى ، أن ينقل إلى مسامعنا نبذة تاريخية عن المناطق المزمع زيارتها ، حتى نكون على بينة من أمرها ، وفى جلسة على نبع الباروك ، تحت ظلال الأشجار الباسقات ، وفى ذلك الجو الساحر الفاتن ، وعلى نغمات خرير الماء المنساب من ذلك النبع الجميل ، ومداعبة النسيم لأغصان أشجار الأرز الخالد قال :

كان لبنان الجنوبى عظيم الأهمية فى العصور القديمة ، فأبحرت من موانئه مراكب الفينيقيين موثوقة بأنواع البضاعة ، إلى الموانى والبلدان الواقعة على ساحل البحر الأبيض المتوسط وفيما وراء المحيط الأطلسى ، وكان سبق لهم أن ارتادوها واختلطوا بأهلها ، وتاجروا معهم ، وقد ساعدهم هذا الاختلاط ، على أن يلعبوا دوراً هاماً فى اقتصاديات تلك البلدان ، وأن يكونوا رسلاً لنشر المدنية والمعارف والعلوم بينها .

ولبنان الجنوبى ، سهل فسيح محصور بين البحر ، وسلسلة الجبال الساحلية ، التى كانت الغابات ذات الأشجار السامقة تكسو رباها ،

وكانت تلك الجبال تؤلف فى الماضى خطاً دفاعياً منيعا ، اتخذه الفينيقيون درعاً قيهم رد غارات الأعداء . وينقسم هذا السهل إلى قسمين . ففى الشمال سهل صيدا وهو مكمل لصحراء الشويفات التى تمتد من نهر الأولى ، والجزء الأعلى من نهر الباروك إلى نهر القاسمية ، وقد تغنى كثير من الشعراء فى ذكر نهر الأولى الذى أطلق عليه العرب نهر الجنة لأنه يروى حدائق وبساتين الفراديس .

وفى الجنوب سهل صور ، ويمتد حتى نهر القاسمية ، إلى رأس الناقورة ، نهاية الجدود اللبنانية ، وهذا الجزء من لبنان الجنوبى ، يكمل لبنان الشمالى.

وترجع خصوبة التربة فى لبنان الجنوبى إلى وفرة المياه ، ولا سيما فى السهول المحاذية للشاطىء ، فهى من أخصب بقاع العالم ، وأوفرها محصولا ، وتنتج الحبوب بأنواعها والتبغ الجزينى الذى هو أجود تبغ فى العالم ، والليمون والبرتقال والموز والمشمش والتفاح والتين والزيتون .

وقد ساعدت خصوبة التربة سكان لبنان الجنوبى على الأعمال الزراعية ، وجعلتهم من أمهر زراع العالم ، كما خلقت منهم موانيهم صيادين ماهرين ، وتجاراً بارعين حاذقين ، وقد ورثوا جميع هذه الصفات عن أجدادهم الفينيقيين .

تلك هى نبذة يسيرة ، سردها على مسامعنا العم أبو طنوس ، ونحن جلوس بجوار نبع الباروك ، ولما غادرناه ، سرنا فى طريق معبدة تحف بها الأشجار ، وتنتصب من ورائها غابات الصنوبر الشاسعة ، وكان النسيم العليل يهب عليها ، فيوقع على أفنانها ذات الأوراق الأبرية ألحان

الخلود ، وهى من وحى الطبيعة فترقص لرقتها البلابل والشحارير . التى قامت تصدح عليها بألحان يتجاوب صداها بين القمم والوديان ، فإذا كل تلك البقاع ترنيمة هادئة اشتركت فى إخراجها الطبيعة وما حوت .

جزين

طوينا فى أثناء الطريق إلى لبنان الجنوبى كثيراً من القرى والدساكر ، المغمورة بالمناظر الطبيعية ، إلى أن بدت لنا من بعيد جزين القرية الساحرة التى تعلو سطح البحر بمقدار ٨٠٠ متر ، وتبعد عن بيروت بمقدار ٨٢ كيلو مترا ، وهى جاثمة فوق منحدرات صخرية ، فيها روعة ، وفيها جمال ، تستريح فوقها الأشجار الباسقة ناشرة أغصانها الخضراء كالأعلام فى الفضاء ، كما انتصبت فوقها المنازل التى تحمل طابعاً خاصاً بشكلها الهندسى البسيط البديع ، تحيط بها الجلول وقد اختطها القوم وغرسوا فيها حدائق الفاكهة .

ما أجمل تلك الجلول ، وهى تمتد بالطول على مدى البصر ، وتتدرج بالارتفاع فوق الشاغور ! ! وقد وقفنا أمامه خاشعين ، فراعنا منظر الماء المنساب من رأس الجبل الذى ترصع هامه الأشجار ، وهو يهوى بقوة من علو ٤٠ مترا من فوق تلك الصخور الأزلية التى تتيه فخراً وكبرياء لتطاولها على الدهور ، فيسمع لسقوطه دوى شديد ، ثم يتناثر رذاذه على الجانبين ، ولا يلبث أن يجرى الماء فوق الحصباء فى واد لا قرار له ، قد



أشجار اللوز بجانب الطريق وقد نورت أزهارها ترقب المارة

اخضرت حافتيه ، وانبسطت تحته الرياض الخضراء التى يتغلغل فيها فيروبها .

ما أجمل شلال جزين ! ! وما أعذب الماء الذى يسيل فى واديه ! !

إن جزين هى فخر مصايف الجنوب باعتدال جوها ، ورقة هوائها ، وعذوبة مائها ، وبرودته الطبيعية ، وكثرة فاكهتها الشهية .

ويقع فى الجهة الشمالية من الشلال غابة الصنوبر الفيحاء ، وهى من أجمل منتزهات جزين ، يواجهها من الجهة الشرقية الجنوبية كروم العنب ، التى تمتد إلى مسافات بعيدة فيها .

تنقلنا فى جزين ، وطفنا فى شوارعها بين المطاعم والمقاهى الفاتنة وقد حرص أصحابها على أن يقيموها حول ينابيع الماء التى تكثر فى تلك الجهات يظللها أشجار السرو الشامخ الارتفاع .

مغارة الشقيف

وتقع على بعد قليل من جزين قرية الشقيف ، وهى ضيعة صغيرة ليست بذات شأن ، غير أن أشهر ما فيها مغارتها العجيبة المنقورة فى قلب الصخور ، وتعرف بمغارة الشقيف ، أو مغارة فخر الدين ، لأن الأمير فخر الدين المعنىّ ، قد اختبأ فيها من وجه الأتراك الذين كانوا يطاردونه ، ولما ألقوا القبض عليه ، قادوه إلى الإستانة حيث قتلوه سنة ١٦٣٠ .

بكاسين

أما قرية بكاسين القريبة من جزين فلا تقل روعة عنها فهى محاطة بغابة صنوبر شاسعة تشرف على وادى جزين .

قضينا فى هذه البقاع يومين كاملين ، لم يحجب عن عيوننا فيهما شىء من جمال المشاهد الطبيعية الرائعة ، التى تقترن بلطف قوم ، ليس أيسر من أن تتعارف معهم ، وأن يحلوك فى ديارهم على الرحب والسعة ذلك لاعجب لأن صفاء نفوسهم مكتسب من صفاء جوهم .

مرجعيون

غادرنا تلك البقاع الفاتنة ، فى طريق تناثرت حولها قرى مغمورة بالغياض والرياض ، إلى أن وصلنا إلى مرجعيون ، وتقع على ارتفاع ٧٨٠ مترا ، عن سطح البحر ، وسط سهل خصيب ترويه عدة ينابيع عذبة . سارت سيارتنا فى وسط هذه المدينة المكتظة بالسكان ، الطيبة المناخ ، المشهورة بشجاعة رجالها ، وقد سجلت لهم بطولاتهم المعارك التى دارت بينهم وبين جنود فرنسا الحرة الذين هاجموهم فى الحرب الكبرى الثانية .

حاصبيا

ولما أشرفنا على حاصبيا وهى قرية قديمة تقع فى أسفل وادى التيم ، حيث عاش محمد إسماعيل الدرزى ، مؤسس الطائفة الدرزية ، أخذ العم أبو طنوس يسرد على مسامعنا نتفاً عن تاريخ هذه القرية وما جاورها من القرى الأخرى ، وكيف كانت فى الماضى مسرحاً لحوادث أليمة .

وتعلو حاصبيا عن سطح البحر بمقدار ٧٥٠ مترا ، ويكثر فيها شجر اللوز والزيتون وكروم العنب ، وقد شاهدنا الكثير منها مغروساً على المنحنيات الجبلية .

انتقلنا بعدئذ إلى خلوات البياض ، وتقع على رابية مرتفعة فيها ، وهى مكان مقدس عند الدروز يحجون إليه فى أوقات معينة من السنة .

راشيا

وبعد أن تجولنا فى حاصبيا ، وشاهدنا بعض الأماكن الأثرية فيها ، زايلناها إلى راشيا القريبة منها ، وتقع على ارتفاع ١٣٥٠ مترا عن سطح البحر ، وهى تشرف على وادى التيم مهد الطائفة الدرزية ، زرنا فى هذه القرية قلعتها الشهيرة التى اعتقل فيها الشيخ بشاره الخورى ورياض الصلح والوزراء كميل شمعون (رئيس جمهورية لبنان الحالى) وسليم تقلا وعادل

عسيران وعبد الحميد كرامى .

وينتصب فوق تلك البقاع جبل حرمون الذى جاء ذكره فى التوراة ، وقد أطلق عليه العرب جبل الشيخ ، لأن الثلج يتوج قممه العالية التى يبلغ ارتفاعها عن سطح البحر بمقدار ٣٧٦٠ مترا ، على مدار السنة . كان القدماء ينظرون إلى هذا الجبل نظرهم إلى آلهتهم . ، وهذا ما دعاهم إلى أن يقيموا المعابد والهياكل على سفوحه ، وكان أشهرها هيكل بعل حرمون .

صيدا

استمتعنا بليلة هادئة فى حاصبيا ، حتى إذا تنفس الصباح ، نهضنا من نومنا ، واستأنفنا رحلتنا هابطين إلى صيدا ، فى دروب وطرق كنا نرى فيها الفلاحين المفتولى السواعد ، الأقوياء الأجسام ، قد انتشروا فى حقولهم ، وانكبوا على أراضيهم بهمة ونشاط ، يتعهدونها بالفلاحة والزراعة والرى ، بوسائلهم الخاصة .

بلغنا صيدا قبيل الظهر ، وقد أسسها الفينيقيون على الساحل الشرقى للبحر الأبيض المتوسط ، جنوب غربى مدينة بيروت ، وتبعد عنها بمقدار ٤٨ كيلو متراً ، وقد كانت هذه الميناء فى غمرة التاريخ ، جنة الصيادين ، لكثرة السمك المختلف الأشكال والألوان الذى يأوى إلى مياهها ، ولذا أطلق عليها الفينيقيون لفظة « صيدون » الفينيقية ، ومعناها « صيد » وقد حرف اسمها بمرور الأيام ، وصارت تعرف « بصيدا » كما يقال إنها سميت

بهذا الاسم ، نسبة إلى صيدون بن كنعان بن حام بن نوح ، الذى أسسها.

وقد غزا الفينيقيون بسفن صيدهم الصغيرة ، من هذا الميناء التاريخى القديم ، جميع أصقاع العالم التى كانت معروفة فى ذلك الوقت ، كما استعان الفاتحون من المصريين القدامى والأشوريين والبابليين واليونان والرومان والفرس بهؤلاء الصيادين فى الأعمال الملاحية ، والحروب البحرية التى خلدت اسمهم فى بطون التاريخ .

وإلى هؤلاء القوم يرجع الفضل فى اكتشاف الزجاج ، وذلك عن طريق المصادفة . كان جماعة من الصيادين الفينيقيين ، جالسين على شاطىء البحر للاستراحة بعد تعب من صيد كثير ، فتناولوا سمكاً وشووه على الرمال الناعمة البيضاء ، وبعد أن أكلوا واستكفوا شاهدوا للرمل بريقاً غريباً ، فهدتهم قوة ملاحظتهم إلى شىء ما ، كان بداية اكتشاف الزجاج الذى ننعم اليوم بفائدته ، ونجنى ثمار مزاياه ، ونزين به منازلنا ،

بقيت صيدا مهملة مدة طويلة من الزمان، إلى أن أدرك الأمير فخر الدين المعنىّ، فى القرن السابع عشر ، أهميتها ، وما كانت عليه من العظمة فى العصور التاريخية القديمة ، فاتخذها مدينة تجارية وقد ضمت إلى لبنان بمقتضى معاهدة الصلح فى سنة ١٩١٨ .

قضينا يوماً كاملا فى هذه المدينة التى تقوم اليوم على أنقاض مدينة صيدون القديمة ، فتجولنا فى بساتينها اليانعة وحدائقها الغناء العامرة بأشجار الفاكهة التى تكتنفها من جهتيها الشرقية والشمالية ويرويها نهر الباروك وتنحدر مياهه من أعالى الجبال . ومما يزيد فى جمال صيدا ، مناظر تلال

وربى جبل الريحان، القائمة وراء الحدائق والبساتين فى الجهة الشرقية منها ، ولعلها سميت بهذا الاسم لكثرة أشجار الريحان التى كانت تكسوها فى الماضى ، وتعطر جميع الأرجاء التى تحيط بها بشذى رائحتها الذكية .

وقد رأينا كثيراً من آثار هذه المدينة من فينيقية ورومانية ويونانية وصليبية وهى تنطق بعظمتها ، وتذكر من يراها فى ذلك الماضى البعيد يوم أن كانت مزدهرة نامية ، يخطب جميع الفاتحين الغزاة ود أهلها ، للاستفادة منهم ، ومن مواهبهم الملاحية ، وتعتبر صيدا اليوم بمبانيها الجميلة الهندسة ، وبساتينها المزدهرة اليانعة ، وساحلها الفاتن ، من أجمل المدن الواقعة على شاطىء البحر المتوسط .

وصيدا غنية بجوامعها الأثرية القائمة فى مختلف أرجائها ، وأهمها الجامع الكبير وجامع البحر وجامع البطاح وجامع المصلية وجامع المجذوب ، وكلها آية فى الفن الذى ألبسه القدم ثوباً من القداسة والوقار .

وقد أخبرنا العم أبو طنوس فى سياق حديث دار بيننا ونحن جلوس على شاطىء البحر ، نستعيد ذكريات أولئك القوم الغابرين ، أنه فى سنة ١٨٨٦ قد استخرج حمدى بك مدير المتحف العثمانى ، من مدافن صيدا — وكانت فى ذلك الوقت ولاية عثمانية — أربعة نواويس من المرمر الخالص ، البديع الشكل ، الغالى الثمن ، الجميل الصنع . وكان قد اكتشفها المسيو أدمون دوريغلو ، ونقلتها الحكومة العثمانية إلى متحف الأستانة وعندما شاهد بعض علماء الآثار الإنجليز ، هذه النواويس ، أوعزوا إلى حكومتهم أن تعرض على تركيا أن تتنازل لها عن جميع ديونها

مقابل أن تتنازل لها تركيا عن هذه النواويس الأربعة الأثرية ، ولكن الحكومة التركية رفضت هذا العرض ، وهذه النواويس هى تحفة رائعة تزين متحف الأستانة اليوم .

صور

كانت نيتنا متجهة إلى زيارة صور ، التى تقع فى الجنوب الغربى من صيدا فى ذات اليوم ، ولكن ضيق الوقت ، حال بيننا وبين رغبتنا ، فبارحنا صيدا إلى صور فى اليوم التالى مبكرين ، فى طريق جميل معبد بالأسفلت ، يشرف على شاطىء البحر الهادئ . إن لفظة صور ، معناها الصخرة ، أنشأها الملك حيرام الفينيقى ، على شبه جزيرة صخرية ، وأوصلها بهيكل هاملكار ، بطريق معبدة ، وكان فى هذا الهيكل عمود من الذهب الخالص ، أهداه إليه سليمان الملك ، الذى كان مرتبطاً معه برباط الود والصداقة ، مكافأة له على إرسال العمال وخشب الأرز ، لتشييد هيكل أورشليم فى أواخر القرن التاسع قبل الميلاد .

ويحيط بصور من جهاتها الثلاث الشمالية والجنوبية والغربية ، البحر ، وتقع فى الجهة الشرقية منها ، حدائق البرتقال الشاسعة .

كانت هذه الميناء فى الماضى على مبلغ عظيم من الأهمية والعظمة ، وقد أحرز لها بحارتها مجداً تالداً ، لقبت من أجله « بملكة البحار » .

ويرجع الفضل إلى صور ، فى اكتشاف اللون الأرجوانى الجميل ،

الذى جاء ذكره فى الكتب القديمة . وقد هدتهم إليه الصدفة .

كان جماعة من سكان صور الفينيقية ، جالسين بالقرب من الشاطئ الممتد بين صور وعكا ، فرأى أحدهم أصدافاً ، حلزونية الشكل سال منها سائل يضرب لونه إلى الحمرة ، وكانت الأمواج قد قذفت بها إلى الشاطئ ، وخلفتها وراءها فوق كثبان الرمل ، تحت أشعة الشمس . وقف ذلك الفينيقى يحدق النظر فى هذه الأصداف البحرية ، ويتأملها بعين المكتشف ، وقد خضب السائل المنساب منها الرمال التى حولها باللون الأحمر ، فحمل بعضها إلى بيته ، وأخذ يجرى فيها أبحاثه ، بأن استخرج الحيوان الموجود فى داخلها ، وسحق رأسه ، وأخذ منه مادة صفراء اللون ، مزجها بماء البحر ، ثم عالج المزيج بوضعه فوق نار هادئة فى إناء من الرصاص ، فكان هذا أول اكتشاف للون الأرجوانى ، الذى ينعم العالم اليوم بجماله ، فكما هدت الصدفة سكان صيدا الفينيقيين إلى اكتشاف الزجاج ، هدت كذلك سكان صور إلى اكتشاف اللون الأرجوانى .

كانت تملك صور فى الماضى أسطولا بحرياً عظيما ، اغتصبه منها ملك صيدا بعد حروب طاحنة وأبحر به إلى شمال أفريقيا ، حيث أسس مدينة قرطاجنة الشهيرة التى نافست روما فيما بعد ردحاً طويلا من الزمن . وقد خاض قائدها المغوار هانيبال ، حروباً دامية مع الرومان وغزاهم فى عقر دارهم ، بأن عبر جبال الألب ، ووقف على أبواب روما يدقها ، ويهددها ، ولكن سوء الطالع وقف له بالمرصاد فخانه الحظ فكانت الغلبة فى النهاية للرومان .

قضينا يوماً كاملا فى صور أم قرطاجنة المدينة التاريخية العظيمة ، ثم رحلنا عنها فى الصباح الباكر فمررنا بكثير من القرى التى تشرف على الشاطىء ، ولما بلغنا هضبات الشوف ، بدت لنا أشجار الزيتون الرصاصية اللون ، ذات الأغصان الكثيفة ، وهى تضارع فى عظمتها وقدمها ، أشجار زيتون الكورة فى الشمال ، ولما وصلنا إلى الدامور اخترقت سيارتنا طريقاً تنتصب على جانبيها أشجار التوت التى يعنى بها الفلاحون اليوم لتربية دودة القز والتى تشتهر بها الدامور ؛ وكان محصول الحرير منها فى الماضى وافراً فى لبنان قبل أن تتخلص كثير من القرى من شجر التوت ، وتزرع مكانه أشجار الفاكهة .

الفصل الثاني عشر

بيت مرى

يعتقد اللبنانيون وهم على حق فى اعتقادهم، أنه ليس على وجه البسيطة أجمل من لبنان، ويتجلى هذا الجمال فى كل بقعة من بقاعه التى تقع عليها العين، فجميع قرى المتن هى لوحات حية، رسمتها يد الطبيعة، فامتدت إليها يد الإنسان فرصعتها بأشجار الصنوبر الفاتن، الذى يطل على البحر بقامته الممشوقة، ويصطف صفوفاً متناسقة فيها روعة وفيها انسجام على جوانب الطرق المعبدة بالاسفلت، المتصاعدة فى وسط الجبال، فى هذا الطريق سارت سيارتنا من بيروت مارة بقرى فاتنة إلى أن بلغنا بيت مرى، وهى من أجمل مصايف المتن، وتعلو سطح البحر بمقدار ٧٥٠ متراً، وتبعد عن بيروت بمقدار ١٧ كيلو متراً. وقد اشتهرت بيت مرى بحسن موقعها، وطيب مناخها، وروعة المناظر التى تكتنفها، وهى تعتبر من مصايف الفينيقيين القديمة فكانوا يذهبون إليها عند ما يشتد الحر فى بيروت لقربها منها. ويرى المرء من بيت مرى البحر المنبسط تحت قدميها بأمواجه الزرقاء الزاخرة، تعلو وتهبط وهى فى حيرة من أمرها، ثم لا تلبث أن تعود إلى مستقرها، وهى تتغنى بنغماتها السحرية التى كان

يطرب لها أولئك الفينيقيون ، الذين عشقوا البحار ، كما أقاموا لهم فيها معبداً لإلههم بعل مرقد ، كانوا يحجون إليه فى المواسم والأعياد ، ويقوم اليوم على أنقاضه فى الجهة الغربية منه دير القلعة لرهبان الموارنة .

زرنا هذا الدير ، فإذا هو يطل على نهرى العجمانى والمتن ، تحيط به غابات السنديان الشاسعة ، وينتصب فوقه جبلا صنين والكنيسة ، وهما يناطحان السحاب فى علوهما .

وقد قيل لنا إن فى مبانى هذا الدير ، كثيراً من الحجارة المقتلعة من الهيكل الفينيقى القديم ، تحمل بعضها كتابات فينيقية ، وقد لفت نظرنا الدكتور خليل إلى صخور صلبة شديدة الشبه بالمرمر المجزع بجانب الهيكل القديم ، هى بلا شك ثروة للبنان إذا ثبت وجود مثل هذه الصخور على نطاق واسع فيه

شوارع بيت مرى نظيفة واسعة ومضاءة بالكهرباء ، وفيها كثير من الفنادق والملاهى التى ترغب المصطافين فى الذهاب إليها والإقامة فيها .

برمانا

بين جمال الطبيعة الذى كان يحف بنا ، وجلال المناظر التى كانت تتراءى لنا ، وصلنا إلى برمانا ، وتقع على قمة جبل يشرف على البحر ، يدهشك ما يحيط به من المناظر ، التى خلعت عليها الطبيعة سحرها وجمالها . فهناك غابات الصنوبر الشاسعة ، وهى من أروع متنزهاتها ، يتردد إليها عشاق الطبيعة ، فيلتمسون فيها الهدوء والسكينة ، وسط عبيرها الذكى ،



أشجار الصنوبر قد اصطفت على جانبي الطريق المؤدية إلى
برمانا وبيت مرى مصيف فينيقيا القديم

الذى تنشره فى الجو فتخف أجسامهم وينحط عنهم ثقل الحياة .

وبرمانا لفظة فينيقية معناها بيت كرمان ، وهو إله كان الفينيقيون يعبدونه ، وقد بنوا له هيكلاً فى تلك البقاع ضاعت اليوم معالمه ودرست آثاره .

وبرمانا عذبة المياه ، جيدة المناخ ، وأشهر ينابيعها عين أبو خليل ، وهو نبع معدنى ماؤه عذب عليل ، وبرودته طبيعية كسائر ينابيع لبنان . ولا تقل برمانا فى تنسيق شوارعها ، ونظافتها ، وجمال منازلها ، وفخامة فنادقها ، وتعدد ملاهيها عن بقية قرى الاصطياف الأخرى .

بعبدات

ليس سحر قرى المتن مقصوراً على قرية دون أخرى ، أو صورة طبيعية يغرى جمالها النظر إليها فى بقاع كلها وحى وإلهام وشعور بالجمال ، وإنما يجذب الغريب إليها طابعها الخاص الذى تتميز به وتحمله على الشعور بهذا الجمال أراد أم لم يرد ، تلك هى صورة مصغرة طافت بمخيلتنا ونحن نواصل صعودنا فى طريق املس وهدفنا بعبدات ، وتبعد عن بيروت بمقدار ٢٣ كيلو متراً ، وتعلو سطح البحر بمقدار ٨٥٠ متراً تحيط بها غابات من جميع نواحيها . هواؤها نقى ، وجوها لطيف ، وماؤها عذب بارد ، وشوارعها واسعة نظيفة مضاءة بالكهرباء ، ومفروشة بالأسفلت ، وبيوتها جميلة الهندسة وقد رأينا فى أحد شوارعها الرئيسية تمثالا للمغفور له نعوم

اللبكى الذى كان أول رئيس لمجلس النواب اللبنانى ، كما شاهدنا قاعدة جميلة لتمثال شاقنا أن نعرف أمرها وبقاءها على تلك الحال ، فعلمنا أنها قاعدة لتمثال المرحوم أميل لحود وزير مالية لبنان الأسبق ، أقامها له أهل بلدته وهو على قيد الحياة اعترافاً منهم بفضله على قريتهم ، بنيت القاعدة وهى ماتزال فى انتظار وضع التمثال عليها .

ويقع فى أسفل بعبدات نبع العرعار ، فمررنا به فإذا هو من أشهر ينابيعها ، ماؤه بارد عذب غزير ، يسير فى قنوات تروى الحدائق والبساتين التى تمتد تحته على مدى النظر .

ويفصل بعبدات عن شقيقاتها قرى المتن الأخرى المعلقة فوق الجبال ، مثل العربانية والشبانية وصليما وقرنايل وبزبدين ورأس المتن المتربعة على رأس الجبل ، فى المتن الأعلى وجميعها قرى فاتنة طيبة المناخ تزينها غابات الصنوبر الشاسعة التى يكثر وجودها فى المتن — نهر المتن الذى يؤلف مع نهر العجمانى ، نهر بيروت وقد أقيم فوقه جسر حجرى . تركنا سيارتنا بجوار مقهى قريب منه ، تديره سيدة أسرنا ظرفها ولطفها وحسن مقابلتها لنا وسرنا على أقدامنا ، وغايتنا قرية شيخنا المغترب ، الذى قابلناه فى مطار بيروت الدولى ، وتقع وسط غابة صنوبر ، تطل على النهر ، وكان حسن أثناء الطريق يطربنا بصوته العذب ، وبينما نحن نتنقل فى طريقنا نمتع النظر بجمال الطبيعة التى تحف بنا من كل جانب ، ونسمع إلى همس النسيم العليل الذى كان يوسوس بين أفنان الأشجار ، بلغنا كرماً من العنب بعيد المدى ، كان أول من رأينا فيه شخصاً يلبس قبعة من القش ،

وعلى كتفه بندقية صيد ، يتسلق الأشجار بخفة ، ويصعد فى الجلول برشاقة ، وفى يده سلة كبيرة كان يضع فيها مايجمعه من كرمه ، بحيث ما كاد يسمع أصوات الغناء حتى تنبه لنا ، وأخذ يحدق النظر بنا ، ثم ما لبث أن أسرع نحونا ، فعرفنا لأول وهلة ، أما نحن فلم نعرفه ، عرفناه عند أول عهدنا برؤيته فى مطار بيروت الدولى ، شيخاً هزيل الجسم ، أصفر الوجه ، محنى الظهر ، يكاد لا يقوى على إخراج الكلمة من فيه ، أما فى هذه المرة فرأينا فيه شيخاً جليل الهيئة ، مورد الخدين معتدل القامة ، ممتلئاً صحة وعافية ، فعجبنا من رؤيته على هذه الصورة ولكنه قال :

ــ لا تدهشوا انظروا ما فعل بى هواء لبنان وطيبة مناخه ، وعذوبة مائه ، ففى هذه العناصر الثلاثة إكسير الحياة الذى يبحث عنه العلماء ، فقد كسبت فى مدى زمن قليل من موفور الصحة والعافية ، ما أضعته فى الاغتراب فى ربع قرن من الزمان .

قالت سلوى : عجباً أفى هذه المدة البسيطة التى قضيتها فى لبنان ، ردت إليك العافية ؟

ــ أجاب الشيخ ، لا تعجبى يا ابنتى فإنى من تربة هذه الأرض أُخذت ، وبمائها جبلت ، وبهوائها العليل تنشقت ، فكل شربة ماء من نبع الضيعة تساوى دار الغربة بأجمعها ، وكل نسمة هواء تهمس فى أغصان شجر الصنوبر والسنديان والصفصاف ، تساوى مال العالم أجمع ، فانظروا إلىّ كيف كنت وكيف صرت .

سار شيخنا وسرنا وراءه ، حتى اقتربنا من بيت قديم نبتت الأعشاب حول جدرانه فقال :

– هذا هو البيت الذى رهنته لأسافر إلى أمريكا ، وتلك هى السنديانة التى كنت أجلس تحتها أعلم أطفال القرية قبل سفرى بعض النهار ، وكنت أصلح الأحذية القديمة فى البعض الآخر ، تلك هى تذكارات تشوقنى إلى قريتى ، وتكرهنى بالغربة التى أفنيت فيها زهرة شبابى ، وإنى اليوم سعيد بمعيشتى وقد استعدت الأراضى التى رهنتها لأفلحها وأزرعها وأتعهدها بنفسى .

وقد بالغ شيخنا فى إكرامنا ، فأعد لنا غذاء لبنانياً فاخراً شهياً . وجلسنا بعد الأكل نتجاذب أطراف الحديث مع نفر من شيوخ تلك القرية ، وكانوا قد عرفوا بأمرنا ، فأتوا للسلام علينا ، تلك هى عادات القوم فى القرى اللبنانية ، وقد أجمع جميع الذين حادثناهم ، على أن الهجرة داء عضال ، قد استشرى فى لبنان ، ولا بد له من دواء ، يقيه شر هذا المرض الوبيل ، فالقرى اللبنانية اليوم تكاد تكون مقفرة إلا من الشيوخ والنساء والأطفال ، لأن الشباب لا تطيب له الإقامة فيها ، بل يرغب فى السفر إلى الأقطار الإفريقية أو الأمريكية أو إلى بعض الأقطار العربية مثل الكويت والبلاد العربية السعودية حيث يجرى الذهب الأسود ، لزعمهم أن مجال الثراء واسع فيها ، وما درى أولئك المساكين ، أن القلة مع الصحة فى ربوع لبنان ، خير من الغنى مع المرض فى الغربة .

قالت سلوى : تجولنا فى كثير من قرى لبنان ، من شماله إلى جنوبه ،

ومن شرقه إلى غربه ، فلاحظنا والأسف يملأ أفئدتنا ، أن المثل القائل الذى سمعناه من بعض شيوخكم ، وهو « هنيئاً لمن له مرقد عنزة فى جبل لبنان » لا أثر له اليوم .

أجاب العم أبو طنوس : صدقت ، ولكن لا بد أن يعود ذلك اليوم عند ما يعود المغتربون إلى لبنان فنعود نسمع فيه قول هذا المثل .

قضينا بقية يومنا . ونحن نتجول فى غابات الصنوبر الكثيفة التى تكثر فى جهة المتن ، وكروم العنب الشاسعة التى تحيط بقرية شيخنا ، حتى إذا أمست الدنيا ، قضينا السهرة فى داخل خيمة ، نصبها شيخنا فى كرمه من أغصان الأشجار ، فكنا نسمع أغانى العتابا المنبعثة من كل مكان من كروم العنب .

ولما أصبحنا ، ودعناه وعدنا أدراجنا إلى مطار بيروت الدولى ، عن طريق بحنس ، حيث يوجد مصح المصدورين على رابية عالية تحيط بها غابات الصنوبر الكثيف الأغصان ، فبلغناه قبيل الساعة الثامنة صباحاً ، فاتخذنا لنا مجلساً فى مقصفه ، وأخذنا نتحدث مع العم أبى طنوس والسائق حسن فى انتظار المناداة على أسماء المسافرين ، حتى إذا حان الوقت أو كاد ، ودعنا العم أبا طنوس وشكرنا له جميل رعايته لنا ، واهتمامه بأمرنا ، وما زودنا به من معلومات شائقة ، وقصص طريفه ، دوناها فى مذكراتنا وطلبنا منه أن يزورنا فى مصر لنرد له بعض الجميل الذى طوق به عنوقنا ، فوعدنا بذلك قريباً ، ثم وجهنا الشكر للسائق حسن على لطفه وظرفه معنا ، وقدمنا له هدية قبلها شاكراً بعد إلحاح شديد من الآنسة سلوى .

كانت الساعة قد جاوزت الثامنة عند ما دخلنا المطار ، فصعدنا إلى الطائرة ، واتخذنا فيها أماكننا ، ولما أعلنت الساعة دقاتها النصف بعد الثامنة ، دارت محركاتها ، وعلا أزيزها ، وتحركت ، فتحرك معها قلب حسن ، وكان واقفاً من وراء الحاجز الخارجى ينظر إلينا فى تفكير عميق ، وكأنى به يستعيد فى تلك اللحظة ذكريات هذه الرحلة القصيرة ، وما كانت تتحفه به الآنسة سلوى وهى إلى جواره فى السيارة من حديث شائق عذب .

ولما درجت الطائرة على أرض المطار ، وأخذت تصعّد فى الجو رويداً كان حسن يلوح لنا بمنديله الأبيض ويقول :

— مع السلامة ، وإلى اللقاء فى السنة القادمة فى لبنان إن شاء الله .

وبقى حسن هكذا فى ذهول من فرقتنا ، حتى غابت الطائرة عن الأنظار ، فغاب عنا بالجسم ولم يغب عن ذاكرتنا ظرفه ولطفه وحسن معاملته لنا ،وهى الصفات التى يتصف بها جميع سائقى السيارات فى لبنان .

لم نشعر بالخوف فى هذه المرة ، والطائرة تطوى بنا الجو معلقة فى الفضاء ، لأننا ألفنا السفر بهذه الطريقة ، حتى أدركنا مطار القاهرة الدولى ونحن على أحسن حال وأهنأ بال .

* * *

والآن ، وقد طفت معى أيها القارئ الكريم بالفكر فى ربوع لبنان الجميلة ، أرجو أن يسعدك الحظ ، وتذهب بالرحلة إليه ، لتشهد الجمال الذى سطرته يد الطبيعة على كل بقعة فيه ، وقد وصفته لك

وأنا جالس أمام مكتبي بالقاهرة ، وفكري يذرع أرض لبنان ، مرتع السحر وموطن الجمال ، من الشمال إلى الجنوب ، ومن الشرق إلى الغرب ، وأنا أنشد ترنيمة الجمال قائلاً :

ما أعظم الطبيعة فى لبنان ! !

ما أجل أسرار الجمال هناك ! !

إن صوره تتزاحم أمام الإنسان ، وتظهر فى كل خطوة يخطوها فى ذلك الجبل ذات المناظر الفتانة ، ما يختفى منها مشاهد عن الأبصار ، إلا لتظهر مشاهد أخرى أبهج وأروع ، تنطق كلها بآيات الفنان الأعظم ، الذى اختار لها هذا الكتاب الخالد الذى سمى « لبنان » فهنيئاً لمن له مرقد عنزة فى جبل لبنان .


1 0 0 0 0 1 2 5 0 9 9

